



Princeton University Library



32101 072246109

المدخل
لدراسة

الجغرافيا البشرية

الدكتور
أوسيب باغ
مدرس في كلية الآداب
بجامعة دمشق

الدكتور
صلاح الدين عمر باشا
أستاذ في كلية الآداب
بجامعة دمشق

'Umar Bāshā, Ṣalāḥ al-Dīn

المدخل

لدراسة

al-Madkhal

المعراج في النشأة

الدكتور

أديب باغ

مدرس في كلية الآداب
بجامعة دمشق

الدكتور

صلاح الدين عمر باشا

أستاذ في كلية الآداب
بجامعة دمشق

١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م

مطبعة جامعة دمشق

المدخل

لدراسة

الجغرافيا البشرية

5-18-64 1981

الجغرافيا البشرية (١)

2276
.9228
361

تحرير

كان الفلاسفة والمؤرخون والكتاب يهتمون منذ القديم بتدوين الصفات الخاصة التي تميز الشعوب والجماعات البشرية عن بعضها على سطح الأرض . فكانوا يصفون أنماط حياة هذه الجماعات وأشكال سكنها والأساليب التي تتبعها في رعي مواشها وفي زراعتها وصناعاتها . وهذا ما أهاب ببعض علماء الجغرافيا الى القول بأن هيرودوت (٤٨٠ ق . م) وتوسيديد Thucydide (٤٦٠ ق . م) وتيت - ليف Tite - live (٥٩ ق . م) الذين كانوا ينظرون أحياناً في أبحاثهم الى نواحي الجغرافيا البشرية سبقوا سترابون (٢٥ ق . م) في هذا المضمار . وبعد ازدهار المعرفة الجغرافية في العصر الهيليني بمساهمة « إراتوسطن » ٢٨٤ ق . م و « بطليموس » ٢٠٠ م أهمل فلاسفة اللاهوت في القرون الوسطى دراسة الإنسان في تجاربه وحياته الحسية فتوقفت الجغرافيا البشرية عن تقدمها .

كما خبا نور العلم والمعرفة في جميع أنحاء أوروبا غير أن العرب في هذه الفترة كانوا في مستهل نهضتهم وغنقوان فتوحاتهم التي امتدت من حدود الهند شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً ومن آسيا الوسطى وجبال القفقاس شمالاً الى صحارى أفريقيا جنوباً .

وكان لاختلاطهم بالشعوب الأخرى أثره الكبير في نشأة الحضارة الاسلامية

وتطورها فملك العرب ناحية العلم والمعرفة وحفظوا لأوروبا تراث اليونان ،
وتقدمت على يدهم العلوم المختلفة وحازوا قصب السبق في ميدان الرحلات
والاكتشافات والدراسات الجغرافية لما لها من صلة في تيسير أمور الحكم
وتطبيق أحكام الشريعة . وقد كتب الدكتور زكي محمد حسن ^(١) عن الرحالة
المسلمين فقال « لقد درسوا طبيعة البلاد وطرقها وحاصلاتها وخارجها واحوال
سكانها وطبائعهم . وكان الحج والتجارة وطلب العلم من أهم الدوافع لهذه
الرحلات البعيدة في أنحاء العالم المعروف آنئذ . فان الوف المسلمين يتجهون
كل عام من شتى أنحاء العالم الاسلامي الى الحجاز لتأدية فريضة الحج والزيارة .
وكان بعض الحجاج عند عودتهم الى بلادهم يخبرون عن الطرق التي سلكوها
ويدونون مشاهداتهم فيصفون رحلاتهم تسجيلاً لفضلهم ، وهداية لغيرهم
ولفناً لنظر أولي الأمر الى مايجب اصلاحه .

كما كانت الرحلات والاسفار من أولى السبل لطلب العلم في تلك العصور
فقد كانت الكتب نادرة ، وكانت الدراسة العملية تقوم مقام ما نصفه اليوم من
تتبع المراجع والمؤلفات .

وكان رجال العلم ينتقلون في طلبه من اقليم إلى آخر يدرسون على مشاهير
الأساتذة ويلتقون أعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين والاطباء والفلاسفة والرياضيين .
أما التجار العرب فكانت قوافلهم منتشرة في القسم الاعظم من العالم

(١) راجع كتاب الرحالة المسلمون في العصور الوسطى للدكتور زكي محمد حسن طبع
دار المعارف بمصر .

المعروف في ذلك العهد كما خاضت سفنهم عباب البحار والمحيطات وازدهرت على أيديهم وأيدي التجار المسلمين الطرق التجارية بين بحار الهند والصين وسواحل أفريقية الشرقية وشواطئ البحر الأبيض المتوسط والاطلسي حتى بحر البلطيق .

وقد كتب الرحالة المقدسي بياناً بالسلع التي كان المسلمون يحصلون عليها من جنوبي روسيا والبلاد الأوروبية الشمالية ، وقوامها أنواع الفراء والجلود والشمع والقلائس والفراء والسيوف والدروع والاعناب والابقار . أما أهم ما كان يحملونه الى تلك الأقاليم فالمنسوجات بأنواعها وبعض التحف المعدنية والفاكهة وكان للمنسوجات الشرقية والسجاد سوق رائجة في أوروبا .

لقد كان لهذه الرحلات شأن كبير في تطور المعرفة الجغرافية لقد ساهم هؤلاء الرحالة بما كتبوا ، بالتعريف بالشرق الأقصى وأفريقية وأوروبا ، أما بلاد العرب والعراق وإيران فطبيعي أن يكونوا المرجع الأساسي في دراسة وضعها الجغرافي والعمراي والاجتماعي ، الى غير ذلك ، ولم يقف أكثرهم عند وصف مراحل أسفارهم وصفاً عاماً ، بل كانوا يعنون بتقييم الظواهر الاجتماعية غير المألوفة في أقاليمهم ، كما كانوا يحرصون على لقاء اعلام البلاد التي يجتازونها الى جنب تعرفهم الى طبقات الشعب المختلفة .

فالرومان مثلاً كانوا يتخيلون وجود الصين ، ولكن الرحالة العرب عرفوها وكتبوا عنها منذ بدء العصور الوسطى أخباراً أيديتها رحلة « ماركو بولو » البندقي في القرن الثالث عشر الميلادي .

كذلك كان الرومان لا يعرفون من قارة أفريقية إلا سواحلها الشمالية أما

الرحالة العرب فقد عبروا الصحراء وعرفوا مجاهل هذه القارة التي ظل
الاوربيون حتى القرن الثامن عشر يقفون عند سواحلها فلا تطول أعناقهم
الى ما وراءها .

هذا ولا بد من الرجوع الى كتب هؤلاء الرحالة العرب في كل بحث عن
تاريخ التجارة أو عن النظام السياسي أو التاريخ الاجتماعي أو الجغرافية البشرية لدى
الشعوب الاسلامية والامم التي اتصلت بها ، فان ما كتبه هؤلاء الرحالة كنز
لا ينضب معينه ، يضم الوثائق العظيمة الشأن في تاريخ الانسانية . وفي استطاعة
الباحث أن يستخرج منها شتى الحقائق ومختلف ضروب المعرفة ، مطمئنا الى
نتائج بحثه ، إذا قبل على دراسة هذه الوثائق ببصيرة نافذة وبشيء من
الحذر الذي يتطلبه النقد العلمي عند معالجة النصوص في العصور الوسطى غربية
كانت أو شرقية .

ومن المعروف أن العلماء العرب اعتمدوا على مصنفات حكماء اليونان
والهند في علم الهيئة الكروية وتقسيم البلدان . فقد كان أول كتاب لعلم الهيئة
نقل الى اللغة العربية من تأليف الفلكي والرياضي الهندي براهم كبت وهو كتاب
« سد هانة » ألفه عام ٦٢٨ م واصبح هذا الكتاب نواة لاول مدرسة لعلم
الهيئة العربي حتى جاء عصر المأمون ، وأمر بترجمة كتاب المجسطي لبطلميوس
ولما كان طريق البحث والنظر عند بطلميوس أضبط من المذهب الهندي ، مال
علماء العرب إليه واستخدموه أساساً لتهجهم^(١) .

(١) راجع بحث الدكتور عبد الرحمن زكي المنشور في مجلة « المجلة » العدد الثالث
والاربعون صفحة ٢ : . عن « تراث جغرافي العرب » .

غير أن جميع الجغرافيين العرب لم يأخذوا في العصور الوسطى بمنهج بطليموس ومدرسته ، هذا المنهج الذي يجمع بين الرياضة والفلك من ناحية ، والاحصاء والوصف من ناحية أخرى ، بل تسابق بينهم جماعتان تعاونتا على تقدم علم تقويم البلدان وإن اختلفتا في المنهج . فأما الأولى فهي جماعة الرحالة الذين طافوا ودونوا أخبار رحلاتهم ، وأما الأخرى فهي جماعة الفلكيين .

وقد اتسع الأفق الجغرافي عند العرب على أثر فتوحاتهم السريعة وانتشار الإسلام . وليس بخاف أنه كان لهم على أيام جاهليتهم معرفة علمية متواضعة بجغرافية بعض أقاليم بلادهم أو البلاد التي كانوا يتاجرون معها . ولكن سرعان ما اضطرت الخلفاء وقادة الحملات الإسلامية إلى جمع الحقائق الجغرافية التي تتصل بالمسالك والآبار والمدن ... كما يفعل قادة اليوم ، وإلى جانب هذا أصبحت الحكومة المركزية في حاجة إلى معرفة صفات البلاد وامكانياتها في نواحي الثروة الاقتصادية . ومن أشهر الرحالة العرب المسلمين :

النتضر البصري .-

لعل من أهم المصنفات الجغرافية التي ألفت خلال القرن الثامن ، تلك الرسائل التي وضعت لنفع القبائل البدوية تعريفاً للمنازل وموارد المياه والبادي والقفار ، ومنها كتاب النتضر البصري ، الذي كتبه في النصف الثاني من المائة الثامنة لهيلاذ وهو نازل على خراسان .

الخوارزمي . -

هو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي . عاش في منتصف القرن التاسع يعتبر في طليعة الجغرافيين والعلماء الأوائل ، فقد عدل بعض ماورد في كتاب جغرافية بطليموس ، وأدخل عليه آراء استحدثها . ومن أشهر ما ألفه رسالة عنوانها « وجه الأرض » لم يصل إلينا منها سوى بعض اجزاء المتن الذي يوضح الخرائط وهو أول من رسم خريطة الأرض على أساس قياس العرض والطول وذلك في زمن المأمون .

ابن خردادبة . -

هو ابو القاسم عبید الله ابن خردادبه ، جاء بعد الخوارزمي ، وكان يشغل منصب صاحب البريد والخبر ، بناحية الجبال وهو منصب خطير ، ومن مؤلفاته « كتاب المسالك والممالك » وقد استعان بكتابه هذا المتأخرون أمثال : ابن حوقل والمقدسي والجيهاني .

الاصطخري . -

ثم حفل القرن العاشر بطائفة فذة من علماء الجغرافيا العرب ، بينهم أبو اسحق ابراهيم الاصطخري « الكرخي » الذي نشأ باصطخر ، عني باخبار البلاد فبعث فيها ذلك شوقاً الى السياحة ، فخرج سنة ٩٥١ م وطاف بلاد المسلمين مبتدئاً من بلاد العرب الى الهند الى الأطلسي ، ولقي في رحلته جماعة

من العلماء في كل فن . ومن أهم مؤلفاته « كتاب الأقاليم » وهو يشتمل على حدود الممالك وصور أقاليم الأرض ومدنها وبحارها وأنهارها والمسافات بينها ، مفصلاً وصفه ذلك بالخرائط ، ويسمى الصور وجمعتها تسعة عشرة صورة . وله كتاب ثان اسمه « المسالك والممالك » .

المقدسي . -

ويدعى شمس الدين أبي عبد الله محمد ابن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي ، الذي زار معظم بلدان الاسلام فيما عدا اسبانيا وسجستان والهند ، وقام بتدوين ملاحظاته عما شاهدته في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » الذي ألفه سنة ٩٨٥ م .

البلخي . -

هو أبو زيد أحمد ابن سهل البلخي (٨٣٩ - ٩٣٤ م) . ألف كتاب « صور الأقاليم الاسلامية » .

اليقوي . -

هو أحمد ابن أبي يعقوب . نشأ رحالة يحب الأسفار ، فساح في بلاد الاسلام شرقاً وغرباً . ودخل أرمينية سنة ٨٧٣ م ثم رحل الى الهند وعاد الى مصر وبلاد المغرب ، فألف في سياحته هذه « كتاب البلدان » .

ابو الحسن المسعودي . -

هو علي ابن الحسين بن علي ، من ذرية عبد الله بن مسعود ولذلك قيل له

المسعودي . ولد في بغداد وتوفي في الفسطاط حول عام ٩٥٧ م وقد استهدف لنقذات الفيلسوف الكبير ابن خلدون ، وأشار الى عمله الخالد في مقدمته . ويحظى كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » بتقدير العلماء . فهو في الواقع موسوعة تاريخية وجغرافية كتبها حول عام ٩٤٧ م وهي تعتبر من أهم مراجع جغرافية العالم الاسلامي .

وللمسعودي تصانيف كثيرة أهم ما وصل الينا منها كتاب « التنبيه والاشراف » وله أيضاً « ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور » و « المقالات في أصول الديانات » .

ابو الريحان البيروني . -

هو محمد ابن أحمد البيروني علامة فذ ، أسهم في شتي ألوان المعرفة ، فهو رياضي وجغرافي وفلكي عملاق في كل تلك الميادين ، وعبقري بمعنى الكلمة . والبيروني أول عالم في القرون الوسطى (٩٧٣-١٠٤٨ م) . تتبع عثرات القدماء بنظر صحيح ، فأزالها بالرصد القويم ، والمشاهد الصحيحة ، وأسس تقويم البلدان على قواعد علمية راسخة . فان التراث الذي وصله ممن سبقوه كان مختلطاً بعض الشيء بالشكوك والاختلافات ، تحيط بها التخمينات ، وأما التراث الذي خلفه هو لمن بعده فقد كان خالياً من الشك والاختلاف والتخمين . وقد استخدم في جميع أبحاثه النظر العقلي الصريح والاستدلال النقي ، تلك هي الميزة الحقيقية التي امتاز بها البيروني في أعماله العلمية . سافر الى الهند وتعلم لغاتها ، وشاهد وحقق ، ثم دون كتابه الكبير « تاريخ الهند » بعد ما ألف سفره العظيم

« كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية » سنة (١٠٠٠ م) . ولم يقصر مؤلفاته على هذين الكتابين النادرين ، بل أضاف اليهما ثروة علمية أخرى ، فألف رسالة في علم الفلك وله كتاب في الصيدلة ثم صنف كتابه « الجماهر في معرفة الجواهر » .

الادريسي .-

هو أبو عبد الله محمد ابن ادريس الحموي ، من أشهر جغرافيين القرن الثاني عشر ولد عام ١١٠٠ م بسبته وتلقى العلم بقرطبة ، وتوفي عام ١١٦٦ م . قام بأسفار عديدة واستقر زمناً طويلاً في بلاط ملك صقلية النورماندي « روج الثاني » Roger II في مدينة بالرم . وكان قد استدعاه ، فألف له كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » وهو الكتاب النفيس الذي نُشر بعضه مع سبعين خريطة ، وأورد فيه المؤلف صفات البلاد والممالك تفصيلاً .

وقد صنف الادريسي كذلك لتعليم الأول (١١٥٤ - ١١٦٦) كتاباً في تقويم البلدان عنوانه « روضة الأنس ونزهة النفس » او كتاب المسالك والممالك .

ياقوت الحموي .-

هو صاحب المعجم الكبير المعروف ، قال عنه العلامة « سارتون » : إن كتاب معجم البلدان هو معجم لعلم الجغرافية ، وهو منجم غني جداً للمعرفة وليس له من نظير في سائر اللغات .

وياقوت من أشهر بلداني العرب ، تمدنا موسوعته بمعلومات فياضة عن

أحوال العالم الاسلامي قبيل غزو المغول .

بدأ شغفه بالسياحة حينما كان يقوم برحلات تجارية لسيدته . ولكنه بعد نالث رحلة الى جزيرة كيش في الخليج العربي ترك عمله ليتفرغ للتأليف . ثم جعل نسخ الكتب من تجارته وبدأ يكتب ويرحل ، فسافر الى تبريز والموصل وسورية ومصر وبعد ما استقر بعض الوقت قام برحلة أخرى الى نيسابور ٠٠٠ وهكذا تراه متنقلا من مكان الى آخر ليجمع مواد موسوعته الكبيرة فأنتمها عام ١٢٢٤م وتوفي في حلب بعد انتهائه من تأليفها بخمس سنوات ، وسيظل عمله خالداً ما بقيت الحضارة .

القزويني .-

هو أبو يحيى زكريا القزويني ولد في قزوين حول عام ١٢٠٤ م وتلمذ على الأبر ، وتولى القضاء في واسط والحلة في زمن الخليفة المعتصم العباسي وتوفي عام ١٢٨٣ م بواسط .

يعتبر القزويني في طليعة مؤلفي الموسوعات، ومن مؤلفاته التي خلفها كتاب « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » وكتاب « آثار البلاد وأخبار العباد » وهو يبحث في الفلك والجغرافيا عند العرب .

وقد استقاد المستشرقون كثيراً بما كتبه القزويني ولا سيما العلامة الألماني « جاكوب » فيما يتصل بالعلاقات التجارية بين المسلمين وسكان أوروبا الوسطى وأوروبا الشمالية .

ابو الفداء . -

هو امير من اسرة الايوبيين ولد في دمشق عام ١٢٧٣م وكان ابوه قد فر إليها ، وقد بدأ أبو الفداء حياته العسكرية مبكراً ، فالتحق بخدمة عمه اثناء حربه مع الصليبيين . ولما زار القاهرة خلعت عليه الامارة ولقب بالملك الصالح وتوفي سنة ١٣٣١م بمدينة حماه .

وترجع شهرة ابي الفداء الى مصنفاته ، وأهمها تاريخه للعالم وكتابه في تقويم البلدان ، وعنوان كتابه الاول « المختصر في تاريخ البشر » اما الثاني فعنوانه « تقويم البلدان » انتهى من تأليفه عام ١٣٢١) . وقد بحث في مقدمته في الجغرافيا الرياضية والبحور والأنهار والجبال الشهيرة ، واطال في وصف الارض ، ونهج فيه بحسب مواقع البلدان من ناحية الاقاليم ودرجات العرض والطول ذا كراً كل مملكة مستقلة في باب خاص وقد ترجم هذا الكتاب الى اللاتينية في القرن الثامن عشر .

ابن جبير . -

يعتبر ابن جبير في طليعة الرحالة العرب لقد امدنا بمعلومات طيبة في صميم علم تقويم البلدان للعالم الاسلامي في ايامه وبخاصة في تاريخ صقلية في عهد غليوم الصالح وكانت قد انسلخت عن حكم المسلمين .

وقد استطاع ابن جبير ان يقوم برحلته الطويلة خلال الحروب الصليبية . فذهب من غرناطة عام ١١٨٣ الى سبته ، ومن هناك ركب البحر الى الاسكندرية فاقاهرة ، واتجه الى قوص وعيذاب فجده ، ثم زار المدينة والكوفة وبغداد

والموصل وحلب ودمشق ، وركب البحر من عكا الى صقلية عائداً الى غرناطة عام ١١٨٥ م عن طريق قرطاجة ، وتردد على الشرق بعد ذلك مرتين . وفي الرحلة الثانية لم يتجاوز الاسكندرية حيث توفي فيها .

وكتاب رحلة ابن جبير المعروف باسم « تذكرة بالآخرة » عن اتفاقات الأسفار ، الذي كتبه مؤلفه - حوالي ١١٨٦ م نقله الى الانكليزية المستشرق « برودهيرست » .

ابن بطوطة . -

اما ابن بطوطة الطنجي (١٣٠٤ - ١٣٧٧ م) فهو بحق امير الرحالة العرب ليس في القرن الرابع عشر فحسب ، بل في جميع مراحل الحضارة العربية ويعتبر كتابه « تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » خير مرآة لجغرافية العالم الاسلامي واحواله بخاصة والشرقي بعامة بل البيزنطي ايضاً .

قضى ابن بطوطة في رحلته الاولى ٢٤ سنة (١٣٢٥ - ١٣٤٩) منذ غادر طنجة فمرّ كاش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب ومصر وفلسطين ولبنان وسورية والحجاز ، فحج حجته الاولى وسافر منها الى العراق والمعجم والأناضول ثم عاد الى مكة وغادرها الى اليمن واجتاز البحر الى افريقية الشرقية ، وقفل راجعاً الى الخليج العربي فزار عُمان والبحرين والاحساء ، ثم قصد الهند ومر بخوارزم وخراسان وتركستان وافغانستان وكابل والسند والصين وفي عودته مرّ بجزيرة سرنديب وجزائر الهند وسومطرة ، ثم رأى ان يعود الى وطنه .

تلك هي بعض البلدان التي زارها ابن بطوطة في رحلته الاولى فقط وقد اشاد الرحالة الشهير « ستيرن » بكتاب ابن بطوطة وبفضله على العلم والادب فتساءل : اي سائح اوربي يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطة في البحث لكشف المجهول من احوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة ، وتحمل من مشاق الاسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة ؟ بل اي امة اوربية كان يمكنها منذ خمسة قرون أن تجد من ابنائها من يجوب البلاد الاجنبية وفيه من الاستقلال بالحكم والقدرة على الملاحظة والدقة في الكتابة مال هذا الرجل العظيم ؟

وما يدل على مكانة كتاب ابن بطوطة بين كتب الرحلات الكبرى تلك العناية التي حظي بها عند علماء العالم . فقد انكبوا على نقله الى عدة لغات اجنبية ، ونشر في عدة طبعات انيقة وما زال يعتبر الى اليوم من أهم المراجع الجغرافية .

ثم انتقل مشعل العلم والمعرفة الجغرافية من أيدي العرب الى اوربا في عصر نهضتها فظهر في النصف الثاني من القرن السادس عشر بعض العلماء مثل جان بودان Jean Bodin الذي علق في كتابه « الجمهورية » عام ١٥٧٦ الاختلاف بين امزجة الشعوب ونفسياتها بتأثرها بالوسط الطبيعي الذي تعيش فيه . ثم ظهر بعد ذلك عدد كبير من المؤلفات حتى اوائل القرن التاسع عشر تجتمع كثيرا من المعلومات عن الجماعات البشرية المختلفة . وبالرغم من هذه المعلومات الكثيرة التي هي في الواقع مواد هامة بالنسبة الى الجغرافيا البشرية لا يمكن اعتبار هذه المؤلفات علمية لان الوصف فيها كثيرا ما ينقلب الى خيال وتهويل

وما هي في الحقيقة سوى خليط من معلومات ووصف لمغامرات خيالية محشوة
بذكريات تاريخية ومشاهدات أثرية بعيدة عن كل تحقيق أو تحليل .

أما الجغرافية البشرية بشكلها العلمي فتعود إلى ما بعد الاكتشافات ومعرفة
أكثر أجزاء الكرة الأرضية وإلى بدء الفتوحات الاستعمارية في القرن الثامن
عشر حين قام بعض العلماء بسياحات واسعة جمعوا فيها معلومات وافرة عن حياة
كثير من الشعوب وعن درجة حضاراتها وأدت فكرة المقارنة بين هذه المعلومات
إلى تنبه الفكر العلمي لأن المقارنة العلمية تخلق معنى الكلية .

وقد بين فيدال دولابلاش مؤسس الجغرافيا البشرية في فرنسا ان البحث
العلمي في الجغرافيا البشرية يرجع في أصله إلى اثنين من علماء الجغرافيا الألمان هما
اسكندر دو هامبولد (١٧٦٩ - ١٨٥٩) وكارل ريتز (١٧٧٩ - ١٨٥٩)
والفكرة الجديدة التي أتى بها هذان العالمان هي أن هنالك علاقة دائمة بين الحوادث
الطبيعية ومظاهر الحياة . غير أن كلا منهما نحا ناحية في تحليل هذه العلاقة .

هامبولد بوصفه من علماء الطبيعة عني بدراسة العناصر الطبيعية كالرياح
والحرارة والرطوبة والجفاف والارتفاع وبيّن تأثيرها على التشكلات النباتية
والحيوانية والبشرية وانتهى إلى وضع قانون الديمومة .

أما ريتز بوصفه مؤرخاً فقد أدخل في بحثه العنصر البشري وأثبت أن في
أبحاث الجغرافيا البشرية لا يمكن ان يقتصر في تحليل المظاهر على حوادث
الطبيعة فقط وإنما إلى جانب الطبيعة يوجد الانسان الذي هو ذاته عامل كبير
من عوامل التطور والحياة على وجه الأرض . وانتهى بنظريته إلى ان الانسان

والطبيعة هما العنصران الدائمان للتطور وأن على الباحث الجغرافي ان يرجع اليهما معاً في كل تحليل لمظاهر الحياة على سطح الارض .
وسارت الجغرافيا البشرية على هذه الطريق منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر تحت اشراف عالمين واستاذين من أكبر أساتذة الجامعات الاوروبية فردريك راتزل في المانيا وبول فيدال دولابلاش في فرنسا . وانتشرت تعاليمهما ونظريتهما في اكثر البلاد وأوحت لكثير من العلماء بتأليف كتب عديدة ادت إلى نشر وتعميم هذا العلم الحديث حتى دخلت أسسه جميع الاوساط العلمية والثقافية .

* * *

الفصل الأول

البحث الأول

الجغرافيا البشرية والعلوم المساعدة

يمكن تعريف الجغرافيا البشرية بأنها دراسة الجماعات البشرية في علاقاتها مع الوسط الجغرافي . ومعنى هذا التعريف أن الجغرافيا البشرية تعنى بدراسة الإنسان كمجموع لا كفرد في علاقته مع الوسط الذي يعيش فيه . ولا يقصد بذلك الوسط الطبيعي فقط وإنما الوسط الجغرافي حيث يدخل فيه إلى جانب العوامل الطبيعية تأثير الإنسان نفسه في تطور هذا الوسط .

يسمح لنا هذا التعريف أن نتبين غاية الجغرافيا البشرية وأن نعين حدودها . فهي تحتوي أربع مجموعات من القضايا تنتج عن علاقة الجماعات البشرية مع الوسط الجغرافي .

أولاً — دراسة توزيع البشر على سطح الأرض حسب شروط الطبيعة واستغلال ثرواتها أي دراسة انتشار البشر على سطح الأرض وعددهم وكنافتهم وحركاتهم وهجراتهم . وهذا ما يمكن تسميته بجغرافيا السكان .

ثانياً — دراسة المؤسسات البشرية ومعنى ذلك دراسة الأشكال التي يقيم بها البشر على سطح الأرض من أبسط أشكالها كدراسة البيت أو القرية حتى أعقدتها كدراسة المدن والدول وهذا ما يمكن تسميته بجغرافيا المسكن .

ثالثاً - دراسة استثمار الجماعات البشرية لموارد الطبيعة أي دراسة انماط الحياة المختلفة للجماعات البشرية في المناطق المناخية الكبرى أو ما يدعى بالجغرافيا الاجتماعية ، كدراسة نمط الحياة في المناطق الباردة والمعتدلة والجافة والحارة أو في المناطق الجبلية أو الساحلية وتشمل هذه الدراسة جميع ما تحتويه هذه المناطق من أنواع النباتات والحيوانات الأهلية .

رابعاً - دراسة الطرق والوسائل التي استخدمتها الجماعات البشرية في مختلف الأزمنة والأمكنة للاستفادة من الثروات الطبيعية لحفظ حياتها والدفاع عن كيانها وذلك منذ البداية حتى اليوم أي منذ بدأ الانسان الأول بقطع الأثمار ومزاولة الصيد البري والبحري أو العمل في الزراعة وتربية المواشي حتى اللجوء الى الصناعة والتجارة الداخلية واستخدام وسائل النقل الحديثة في التبادل التجاري العالمي . وهذا معناه دراسة تطور الحضارة عند الجماعات البشرية وهو ما نسميه اليوم بالجغرافية الاقتصادية .

هذا ما تحويه الجغرافيا البشرية من أبحاث وفي نطاق هذه الأقسام الكبيرة تتوزع أعمالها . غير ان فروعاً جديدة تخرج في الوقت الحاضر من هذه الأقسام الأربعة الكبيرة كالجغرافيا الجنسية وتبحث فيما اذا كان للعروق البشرية أو للاختلاط العرقي تأثير في تطور بعض الحضارات وفي حيوية السكان . والجغرافيا النفسانية وتبحث فيما اذا كان للمناخ تأثير على النفسية والمزاج . والجغرافيا السياسية وتبحث عن شكل الدولة وحدودها وقوتها وعن امكان اتساعها والدفاع عن نفسها أي تبحث عن الخطوط الكبرى التي يجب ان تتبعها الدولة في سياستها مستمدة من وضعها الجغرافي .

طريقة البحث في الجغرافيا البشرية

لا يكفي تعريف الجغرافيا البشرية وفهم غايتها وتحديد ماتحتويه من قضايا وإنما يجب إيجاد قواعد ثابتة لطريقتها في البحث : وأول هذه القواعد هو رفض مبدأ حتمية الطبيعة المطلقة وذلك لان مبدأ السببية في الجغرافيا البشرية كثير التعقيد . والانسان بارادته وإبداعه سبب يدخل كثيراً من الاضطراب على ما يعتقد أنه القانون الطبيعي . فالأرض الجافة مثلاً لاتصلح للزراعة غير أن الانسان يستطيع زرعها اذا ماعمد الى ريهارياً اصطناعياً . كذلك لا يستطيع الانسان أن يعيش في قمم الجبال العالية أو في الاراضي القطبية أو في وسط البحار غير أنه يستطيع الإقامة والعيش في مثل هذه المناطق اذا وجد فيها فائدة تغريه كوجود الذهب أو الفحم أو البترول أو إذا أراد إقامة قواعد للطائرات أو مرا كز للدفاع . فليس هناك اذن حتمية طبيعية مطلقة وإنما للانسان ارادته وابداعه يختار بين انواع كثيرة من النشاط الاقتصادي ما يتوافق مع منفعته وعصره مسيراً حسب تقاليد الجنسية والقومية وحسب درجة الحضارة التي نشأ بين احضانها . ولهذا السبب ترك الفاتحون العثمانيون في القرن الرابع عشر سهول البلقان الخصبية بيد أصحابها من أهل البلاد وتوجهوا الى الهضاب المرتفعة يعملون رعاة مثلما كانوا يعملون في بلادهم الأصلية تركستان .

والقاعدة الثانية أن لا بد لبحاث الجغرافية البشرية من دراسة علاقة الجماعات بالأرض التي تعيش عليها . وهذه العلاقة بين الانسان والارض هي الفارق الرئيسي بين ابحاث الجغرافيا البشرية وابعاث علم الاجتماع . وذلك لأن

علماء الاجتماع يميلون في دراساتهم للجماعات البشرية للاخذ بالنواحي النفسانية مع اهمال علاقة الانسان بالأرض حتى كأن الانسان في ابحاثهم مجرد عن كل صلة له بوسطه الطبيعي بينما تعتبر الجغرافيا البشرية ان الارض أساس في تكوين كل جماعة . حتى ليتمكن ان يقال ان الارض كلما اتسعت رقعتها ووفرت ثروتها كلما تأصلت العلاقات بينها وبين سكانها ؛ وكلما ارتفعت كثافة سكانها ونما استثمارها كلما ازدادت هذه العلاقة وثوقاً وارتباطاً . ويقول « ساندرسون » في معرض هذه الفكرة ان القبائل التي تصطاد في أرض واحدة ينشأ بينها نوع من التضامن الاجتماعي مستقل عن قرابة الدم واقوى منه .

القاعدة الثالثة هي ان الجغرافيا البشرية لكي تكون واضحة وتعليلية لا يمكنها أن تقتصر على تقرير واقع الحال الحاضرة فقط إنما يجب عليها أن تستعرض تطور الحوادث في الماضي أيضاً ومعنى ذلك الرجوع الى التاريخ . لأن كثيراً من الحوادث لا يمكن تحليلها حسب الشروط الحالية إلا بأنها أتت صدفة وعفواً من غير أن ترتبط بأي سبب ؛ إلا أنه يمكن تحليلها حالاً اذا ما عدنا الى الماضي . ولذا ففكرة التطور والعمر ضرورية جداً وبدونها لا نستطيع في كثير من الاحيان أن نجد سبب ما هو كائن . كيف مثلاً يمكن أن يعلل ارتفاع كثافة النفوس في مقاطعة الطونكين وهبوطها في الكوشنشين مع ان التربة متشابهة في المقاطعتين من حيث خصبها وغناها . لا يمكن تحليل هذه الظاهرة على ضوء الشروط الحالية ويجب في مثل هذه الحال أن نلجأ الى التاريخ والتاريخ يقول : ان انتشار السكان واستعمار الارض في الهند الصينية جرى من الشمال الى الجنوب وان الشعب الانامي لم يصل الى مقاطعة الكوشنشين الا مؤخراً . كذلك يعلل

التاريخ سبب تكاثف السكان في المدن المعلقة على رؤوس التلال أو في الفجوج
المنبوعة كالبتراء مثلاً بالحاجة الى الدفاع عن النفس .

اذن يمكن اللجوء الى التاريخ في سبيل غايات ثلاث .

١ - لنفتش في الماضي عن سبب حادث لا يمكن تعليقه في الحاضر بالعوامل
الجغرافية فقط .

٢ - عندما يساعدنا التاريخ على معرفة خصائص بلد ما .

٣ - عندما نرغب ايراد لمحة مقتضبة لبلد ما في فترة معينة من الزمن وبيان
العوامل الجغرافية في تلك الفترة .

وهكذا فالتاريخ يضع بين أيدينا معلومات كثيرة سياسية واقتصادية
 واجتماعية لكن المهم هو ان نعرف ما نتقي .

طرافة الجغرافيا البشرية وعلاقتها بالعلوم الاخرى

لايستطيع اي علم من العلوم أن ينمو منفرداً وأن يزدهر بعيداً عن مساندة
العلوم الأخرى ، لأن العلوم الانسانية تنصل ببعضها ويستفيد كل واحد منها
من مكتشفات العلوم الأخرى . والجغرافيا شديدة الارتباط بغيرها من العلوم
بسبب سعة موضوعها (سطح الأرض وما عليه من ظواهر طبيعية وبشرية)
وتفرعها الى عدد كبير من الأقسام .

هذا ويبدو ارتباط الجغرافيا البشرية بغيرها من العلوم واضحاً فيما حدث
في العصور الوسطى ، إذ تأخرت المعرفة الجغرافية في أوروبا مع تأخر العلوم
الانسانية . ولم تزدهر إلا على يد العلماء والرحالة العرب كما ارتبط تقدمها في
عصر النهضة بما أحرزته العلوم الأخرى من تقدم .

لقد ترتب على تقدم علم الفلك مثلاً نتائج جغرافية خطيرة . فبعد ان كانت فكرة انبساط الأرض مبدئاً من مبادئ الكنيسة تعتقد به وتدافع عنه خلال العصور الوسطى ، عادت فكرة كروية الأرض إلى الأذهان ، وكانت هذه الفكرة نقطة الانطلاق للقيام بالإكتشفات الجغرافية الكبرى . أضف إلى ذلك أن تقدم علم الفلك ساعد الملاحين على تعيين الإحداثيات الجغرافية وساعدهم بالتالي على تحديد أماكن وجودهم ، ولو لا ذلك لما استطاع الملاحون أن يغامروا في ارتياد مجاهل البحار والمحيطات .

وكان من الضروري استخدام المصورات في هذه الرحلات ، لذلك بدأت صناعة الخرائط تتقدم وتزدهر ، وشجعت بدورها المكتشفين والملاحين على الاستمرار في اكتشاف بقاع جديدة . وخطا علم المصورات خطوة كبيرة بمناسبة اختراع المطبعة إذ تمكنوا من طبع خرائط أكثر دقة وأسهل استعمالاً . وإن كل تقدم تحرزه صناعة وطبع الخرائط يعتبر نصراً جغرافياً لأن الخرائط هي أهم الوثائق والمستندات التي يستخدمها الجغرافي في دراسته .

أما علم الطبقات الأرض (الجيولوجيا) فهو شديد الصلة بالجغرافيا العامة ، ويشترك العلمان معاً في دراسة الأرض وتهتم الجيولوجيا بتاريخ الأرض بشكل خاص وكل تقدم في تفهم تاريخ الكرة الأرضية من شأنه أن يسهل علينا فهم الظواهر الجغرافية الحالية التي تتوزع على سطحها . وقد ساعد علم الباليونتولوجيا على فهم تطور حياة الإنسان خلال عصور ما قبل التاريخ . ومن العلوم التي تؤثر على تقدم الدراسات الجغرافية علم الأحوال الجوية أو «الميتيورولوجيا» لأن ما يحدث في الفضاء العالي يؤثر تأثيراً كبيراً على الجو

القريب من الأرض وبالتالي فإن دراسة المناخ لا بد وأن تستفيد من كل تقدم يحرزه علم الأحوال الجوية .

وقد ساعد تقدم الفيزياء على قيام فرع خاص من الدراسات الجغرافية أطلق عليه إسم فيزياء الأرض ، أما تقدم الكيمياء ودراسة مركبات القشرة الأرضية من الناحية الكيماوية فقد أدى إلى ظهور كيمياء الأرض géochimie .

كما أن تقدم الطب كان عظيم الأثر من نواحي كثيرة ، فقد قضى على الأوبئة والأمراض التي كانت تفتك كل عام على بعدد كبير من سكان العالم فأنخفض بذلك معدل الوفيات ، وقد ساعد تقدم الطب أيضاً أفراد السلالات البيضاء بشكل خاص على تحمل شروط المعيشة التي كانت تسود في أجزاء معينة من سطح الكرة الأرضية وخاصة في المستعمرات المدارية والاستوائية . وأخيراً فإن تقدم التكنيك الصناعي ، وإتقان المخترعات وتعددتها يعتبر عاملاً هاماً من عوامل تقدم الجغرافيا البشرية وكافة العلوم الأخرى ، فالباخرة والقطار والسيارة والطائرة لعبت كل منها دوراً هاماً في حمل الإنسان إلى الأماكن المجهولة المقفرة ولعبت أيضاً دوراً كبيراً في تقريب المسافات وتسهيل التبادل .

إن الصواريخ التي يطلقها الإنسان في وقتنا الحاضر إلى الفضاء العالي . تساعد في الحصول على معلومات قيمة تتعلق بشؤون جغرافية هامة ، كالجاذبية وخصائص الجو العالي وحقائق أخرى كثيرة تتعلق بالكرة الأرضية . وسوف يؤدي استمرار إرسال هذه الصواريخ إلى تحقيق أو دحض كثير من الفرضيات السابقة .

رأينا علاقة الجغرافيا البشرية بعلم التاريخ وعلم الفلك وعلم طبقات الارض
 وعلم فيزياء الارض وعلم الأحوال الجوية والتكنيك الصناعي غير أن الجغرافيا
 البشرية تلجأ أيضاً الى علم الاجتماع لأنها لا تدرس الانسان كفرد بل تبحث
 عن عمله كمجتمع . تلجأ كذلك الى علم الاقتصاد السياسي والى الاحصاءات
 فتنقدها وتصححها لتستفيد منها ، تلجأ كذلك الى علم الحيوان والنبات .
 كما وجدوا حديثاً علاقة بين الجغرافيا البشرية وعلم الآثار إذا استطاع « لافدان »
 أن يكتشف الطريق التي كان يسلكها التجار السوريون قديماً في أوروبا بتتبع
 الآثار التي خلفها هؤلاء التجار في طريقهم التي كانوا يسلكونها .
 ولنتساءل الآن ، الا تفقد الجغرافيا البشرية طراقتها بتقربها واحتكاكها
 بكل هذه العلوم ؟ لاشك بأن الحدود التي تفصل الجغرافيا البشرية عن بقية
 العلوم هي حدود كيفية غير محددة . إلا أن العلوم تتميز عادة بطريقتها في البحث
 أكثر مما تتميز بموضوعها . وستبقى الجغرافيا البشرية فكرة جديدة طريفة
 طالما هي تسعى للتفتيش عن الحوادث في الوسط الجغرافي وتحديد مكانها . وفي
 هذا العمل تتشكل مجموعة من طرق التنقيب والاستطلاع تكوّن لدى الباحث
 حالة فكرية تسمى الفكر الجغرافي أو المحاكاة الجغرافية تعمل على دراسة العلاقات
 التي تربط الانسان بالوسط الجغرافي . وهذا عمل لا يستطيع أن يقوم به إلا
 الجغرافي وذلك لأنه رجل يؤلف عقدة ارتباط بين العلوم .

البحث الثاني

الاكتشافات الجغرافية الكبرى

إن معلوماتنا الجغرافية عن مختلف اجزاء الكرة الأرضية هي حصيلة جهود بشرية طويلة وشاقة تتالت عبر العصور المختلفة .

لقد جاءت الجهود التي بذها البشر متناسبة مع اتساع سطح الكوكب الذي نعيش عليه ومع تعدد وتشابك الظواهر الطبيعية والبشرية التي تتوزع على سطحه ، ولم يكن مجرد التعرف على مختلف اجزاء الكرة الارضية كافياً لتقدم وتوسع علم الجغرافيا بل كان لابد من تصنيف الظواهر ودراسة توزيعها وتفسيرها وتنسيقها بغية الحصول على معلومات تشكل كياناً علمياً قائماً بذاته .

لقد اعتاد الباحثون وخاصة الباحثون الغربيون ، على أن يقصروا الاكتشافات الجغرافية على تلك الاكتشافات التي قامت بها الشعوب التي تعيش في أوروبا وعلى ضفاف حوض البحر الأبيض المتوسط . والواقع ان كل الشعوب المختلفة وفي كل أجزاء الأرض ، سعت منذ أن وجدت ومنذ أن تكاثرت ، الى التوسع والبحث عن ثروات جديدة ، فكانت بذلك تعمر مناطق غير مأهولة وتستثمر خامات جديدة وتستقر الجماعات في البقاع الجديدة فتتوسع بذلك البقعة المسكونة بصورة مستمرة . وقد أدت هذه الحركة البشرية المستمرة الى تغيرات كثيرة في توزيع السكان على سطح الكرة وفي تغير

الكثافات . وكانت الجماعات البشرية القوية تستولي في تنقلاتها على بقاع وأرض الجماعات الضعيفة كذلك فعلت الدول فيما بعد اذ كانت تستولي على البلاد ذات الخامات والموارد الاقتصادية بصرف النظر عن ارادة ورغبة الشعوب صاحبة الحق في الأرض ونشأت على هذا الاساس الامبراطوريات الاستعمارية الواسعة .

وعلى هذا فسندرس فيما يلي الأسباب الدافعة لهذه الاكتشافات والصعوبات التي لاقتها والمراحل المختلفة التي مرت بها عبر العصور التاريخية إلى أن اكتسب علم الجغرافيا البشرية مفاهيمه وحقائقه الحالية عن علاقات الجماعات البشرية بسطح الأرض .

— الاسباب الرئيسية للاكتشافات الجغرافية :

إن رغبة قوية دفعت الأشخاص والشعوب بصورة دائمة نحو الاراضي الجديدة ، واذا نحن حللنا هذه الرغبة وجدنا فيها بعض النزعات البشرية العميقة كالنزعة نحو تأمين اسباب المعيشة ، واكتساب القوة ، والرغبة في الاطلاع على كل ما هو خفي وجديد . ولقد اتخذت هذه النزعات أشكالا مختلفة تبعاً لاختلاف المجتمعات والعصور .

هذا ويمكننا أن نصنّف الدوافع الأولى التي حملت المكتشفين الى البقاع المجهولة على الوجه التالي :

١ — الدافع التجاري : كانت الرغبة في الكسب التجاري دافعا لاجتياح بلاد وأسواق جديدة لتأسيس مستودعات ومخازن للبيع والشراء في تلك البلاد

التي تختلف بمناخها ومحصولاتها عن مناخ ومنتجات البلاد التي خرج منها هؤلاء المستكشفون ، ومن الامور المعروفة أن البحث عن طريق تجاري جديد يوصل أوروبا بالهند بلاد التوابل والغلات المدارية هو الذي ادى الى اكتشاف جزر الانتيل (الهند الغربية) فأمرىكا .

٢ — الدافع الاستعماري : بحثت شعوب معينة (الدول الاستعمارية) عن اراضٍ جديدة بغية استقلالها إما لتأخذ منها حاجتها من الغلات التي لا توجد في بلادها الاصلية بسبب اختلاف المناخ وإما لترسل اليها الفائض من السلع ومن السكان الذين تفص بهم ارض الوطن الضيقة .

لقد استعمرت انكلترا الهند لتستفيد من محصولاتها المدارية التي لا يمكن انتاجها في الجزيرة بشكل من الاشكال . أما استراليا فقد استعمرتها بريطانيا لترسل اليها المحكومين والمجرمين في بداية الأمر ولكنها ما لبثت ان تحولت الى مستعمرة إسكانية استقبلت عدداً كبيراً من سكان الجزر البريطانية .

٣ — الدافع الديني : كانت الرغبة في نشر الدين في المناطق النائية المجهولة الدافع الرئيسي لبعض المكتشفين . وكانت هذه الرغبة التي تجلت في بداية الأمر بصورة فردية نقطة الانطلاق في سبيل تشكيل البعثات التبشيرية ، وخاصة البعثات التي كانت تبشر بالديانة المسيحية ؛ إن الآباء اليسوعيين الاسبان هم الذين اكتشفوا جزر الفيليبين ، وتوغل الاستعمار الفرنسي الى الصحراء الافريقية الكبرى عن طريق الآباء البيض Pères - Blancs كما امتد الاستعمار الى افريقية السوداء عن طريق المبشرين الانكليز من البروتستانت ومن اشهر هؤلاء المبشرين Livignstone الذي اكتشف افريقية الوسطى والجنوبية .

٤ — الدافع الانساني : الى اجانب الدافع الديني كان الدافع الانساني احياناً غاية المكتشفين على اريثاد المناطق المجهولة ، فقد كانوا يسعون للقضاء على بعض العادات التي لاتليق بالطبيعة الانسانية كتجارة الرقيق وأكل لحوم البشر .

٥ — الدافع العالمي : ولقد لعب الدافع العلمي دوراً كبيراً في اكتشاف بقاع كثيرة من الارض ، وكانت غاية المكتشفين ابضاح الحقائق العلمية كإكتشاف البقاع القطبية بشكل خاص ، تلك البقاع المقفرة الباردة التي يصعب على الانسان تحمل الشروط الطبيعية فيها غير أن هذا الدافع لبس اليوم ثوب المصلحة الاقتصادية والستراتيجية .

— الصعوبات التي صادفها المكتشفون :

إن الرواد الأشداء من المكتشفين الذين أخذوا على عاتقهم ازاحة الغموض والأسرار التي كانت تكتنف بقاعاً كثيرة من أجزاء الكرة الارضية قد صادفوا عقبات كثيرة وصعبة منها :

١ — العقبات الطبيعية : وهي كثيرة نكتفي بتعداد بعضها :

المساحات البحرية والمحيطية الواسعة التي لم يكن من السهل اجتيازها ، الكتل الجبلية الضخمة ، الصحارى الجافة المقفرة ، الأنهار الكبيرة ذات الجريان السريع والتي تعترض مجاريها الجنادل والشلالات ، الحرارة الشديدة في المناطق المدارية والامستوائية ، البرد الشديد في المناطق القطبية ، الغابات العذراء التي لم يكن من السهل التوغل فيها ، الحيوانات المفترسة ، الأمراض الفتاكة المتنوعة .

٢ - العقبات البشرية : اللغات واللهجات المحلية المجهولة ، المعادات والتقاليد المحلية ، عداة الشعوب والقبائل للمكتشفين ، عادة أكل لحوم البشر ، كره الأجانب ، الغيرة والحسد ، التنافس الاقتصادي والسياسي .

هذا وقد تغلب الانسان على الصعوبات الطبيعية بفضل ما حققه من تقدم فني في طرق ووسائل المواصلات ، وفي ميدان حفظ الصحة والوقاية ومن سيطرة على الطبيعة ، هذا بالإضافة الى ما كان يتحلى به المكتشون أنفسهم من صفات الجلد والصبر ، والمهارة وشدة العزيمة .

ومن أجل التغلب على هذه العقبات البشرية اضطر المكتشفون أن يلجأوا حيناً للسياسة وأحياناً للخديعة او السلاح؛ وكان عليهم أن يتصرفوا ، حسب ما تطلبه عليهم الظروف التي تحيط بهم . لقد سجل التاريخ معظم الاكتشافات الجغرافية باسم المغامر أو البحار أو القائد أو المهندس أو العالم الذي كان له سبق المبادرة أو القيادة ولكن هذه الاكتشافات ليست في الواقع من عمل الفرد بل نتيجة عمل وتعاون جماعيين . صحيح أن رئيس البعثة هو الذي درس ونظم وقاد حملة الاكتشاف ، ولكن هذه الحملة ما كانت لتتحقق غايتها لولا روح الحماس والتضحية التي أبداها كل أفراد البعثة .

الاكتشافات الجغرافية حتى القرن الرابع عشر

أ - شهدت العصور التاريخية القديمة ازدهار حضارات بشرية متعددة ومع ذلك فإن البقعة التي عرقها حضارات البحر الأبيض المتوسط وأوروبا من سطح الأرض كانت محدودة ، وكانت الشعوب التي تعيش على أطراف حوض البحر الأبيض المتوسط أسبق شعوب العالم على ادراك حقيقة اساسية هي أن العالم لم يكن مقصوراً على البقاع التي يعرفونها ولذلك عمدت هذه الشعوب عن طريق البر والبحر الى التوسع تدفعها الى ذلك دوافع مختلفة أهمها الدافع التجاري .

آ - دور الفينيقيين في الاكتشافات الجغرافية :

كان الفينيقيون أول من عمد الى توسيع حدود وآفاق العالم المعروف آنئذ وكانوا أول من تجرأ على القيام برحلات بحرية واسعة المدى .

لقد دفعتهم طبيعة بلادهم الطبيعية ووجود الحواجز الجبلية بينهم وبين الداخل الى التوجه نحو التجارة البحرية ، وكانوا قد تعلموا مبادئ الفلك ومعرفة النجوم من الكلدانيين فكانوا يحسنون التوجه بالاعتماد على النجوم؛ وقد أطلق اسم نجم الفينيقيين على نجم القطب خلال زمن طويل .

وكانت غابات الارز في جبال لبنان مصدراً للاخشاب الضرورية لبناء السفن القوية الواسعة التي كانت تسير بالشرع والمجداف؛ وانطلقوا من مدنهم المشهورة صيدا وصور بحثاً عن طرق بحرية عبر البحر الأبيض المتوسط وكانوا يحرصون

على أن لا يتهج بهم أحد لذلك كانوا يكتفون من وصف الصعوبات والمخاوف التي بصادفونها في رحلاتهم ، وبقيت أسفارهم سرّاً من أسرار دولتهم . ولم يكن الفينيقيون يتوغلون في البر كثيراً بل كانوا في رحلاتهم البحرية يكتفون بالمناطق الساحلية حيث كانوا يؤسسون في كل مكان مراکز تجارية وكانت مراكزهم هذه مبعثرة في كل مكان من سواحل هذا البحر ، في قبرص ورودوس ومصر وصقلية وإيطاليا وإسبانيا وتونس .

وكان الفينيقيون قد أسسوا مستعمرة قرطاجنة المشهورة على الساحل التونسي وكان لها نفس دور مدينة صور على الساحل اللبناني . وأسسوا أيضاً مدينة مرسيليا وبعد أن اجتازوا مضيق جبل طارق دخلوا المحيط ووصلوا إلى السواحل الانكليزية بحثاً عن التصدير واستثمروا جزر كاستيريد (Scilly) ، كما وصلوا إلى بحر الباطيك بحثاً عن العنبر . وفي بحثهم عن الاحشاب الثمينة وصلوا إلى مكان يدعى Ophir ولم يحدد هذا الموقع بالضبط بعد ويظن أنه في شرقي افريقية أو في الجزيرة العربية .

ويذكر هيرودرت أن الملاحين الفينيقيين هم الذين قادوا حملة نخاو الاكتشافية التي استغرقت مدة ثلاث سنوات والتي دارت حول القارة الافريقية مبتدئة من البحر الأحمر وعادت عن طريق جبل طارق . ومن الرحلة الفينيقيين المشهورين هانون Hannon الذي بدأ رحلته على رأس اسطول حقيقي انطلق من جزيرة مالطا وسائر شواطئ مراکش على المحيط الأطلسي ووصل إلى السنغال والكاميرون ويبدو أنه اضطر للعودة بسبب الحرارة الشديدة .

ب - دور الاغريق في الاكتشافات الجغرافية :

كانت طبيعة بلاد الاغريق ذات السواحل المتعرجة الطويلة هي التي دفعت هذا الشعب نحو ممارسة الملاحة البحرية . وقد قلد الاغريق الفينيقيين في بداية الامر ثم ما لبثوا أن نافسوهم في مضمار الرحلات ولكن الاغريق لم يتقصداوا اخفاء المعلومات المتعلقة بمكتشفاتهم ، كما فعل الفينيقيون ، بل حاولوا اعطاء تفسير لكل الظواهر والحوادث التي اكتشفوها فكان طبيعياً أن تتقدم المعرفة الجغرافية على أيديهم .

ومنذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد كان الاغريق يمارسون الملاحة في بحر ايجه ، ثم امتد نشاطهم الى البحر الاسود والبحر الأبيض المتوسط فالحيط الأطلسي . وفي القرن الرابع قبل الميلاد أبحر اغريقي يدعى Pythéas من مرسيليا فوصل الى انكلترا وبحر البaltic وبلغ في رحلته بلاداً أطلق عليها اسم Thulé يعتقد أنها ايسلندا أو النرويج او جزر شتلاند .

وكان الاسكندر الكبير المكديوني أول ملك اهتم بالتعرف على البلاد التي فتحها جيوشه ، وكان العلماء الذين يرافقونها يرسمون له الخطط فيرسل البعثات لاكتشاف أطراف البلاد التي استولى عليها ، وامتدت امبراطوريته كما هو معروف ، حتى ايران وأفغانستان وتركستان وبلوجستان . وكان الاعتقاد السائد آنذاك هو أن بحراً كبيراً يحيط باليابسة فأراد الوصول الى هذا البحر عن طريق نهر الهندوس بينما سائر قائد Néarque سواحل البحر .

ج - دور الرومان في الاكتشافات الجغرافية :

كانت عقلية الرومان تختلف عن عقلية الأغريق لذلك كان من الطبيعي أن لا يكون عمل الشعبين متشابهاً . لقد اهتم الرومان بالسياسة والخطط الحربية والقانون بشكل خاص ولم يكونوا يهتمون أبداً بالفرضيات والمسائل المشتبه بها كما فعل الاغريق . وكانت خبرة الرومان بالملاحة محدودة لذلك كثيراً ما استخدموا ملاحين أجانب . كان همهم منصرفاً للفتوحات واخضاع الشعوب واكتفى جغرافيوهم بترديد ما سبق إليه جغرافيو الاغريق . ومع ذلك فقد وسعوا حدود العالم المعروف آنذاك عن طريق الفتوحات، ومن الأمور المعروفة أن الامبراطور Néron كان أرسل حملة للتعرف على منابع النيل ، وقد أخفقت الحملة ولكنها وصلت على أي حال إلى الحبشة . وامتدت رقعة الامبراطورية الرومانية إلى واحة فزان وموريتانيا « شنقيط » وشمال أفريقيا وبلاد الغالين Gaule وألمانيا وبلاد حوض نهر الدانوب .

وعلى هذا فإن حدود العالم الذي كان معروفاً في القرن الثاني الميلادي تبدأ من منطقة غلاسكو في ايكوسيا وتحاذي سواحل بحر البaltic الشمالية وخليج فنلندا ، قهر النيمن Niemen وجبال الأورال فنطقة كانتون في الصين فاليزيا، أما الحدود الجنوبية فلم تكن معروفة تماماً .

د - العرب والاكتشافات الجغرافية :

بعد زوال الامبراطورية الرومانية خيم الجهل من جديد على العالم خلال عدة قرون وعادت فكرة انبساط الكرة الأرضية إلى الأذهان وكانت الظواهرات

الطبيعة تفسر تفسيرات غريبة . في هذه الفترة بالذات ظهر الاسلام في جزيرة العرب وبدأت الفتوحات تمتد وتسمع بسرعة باللغة فامتدت الامبراطورية الاسلامية من السند حتى المحيط الأطلسي ، ووصل المسلمون إلى سورية وبلاد فارس وتركيا وأرمينيا والقوقاز ومصر وأفريقية الشمالية وقبرص ورووس واسبانيا بل وأواسط القارة الافريقية وجزر اندونوسيا .

لقد استلم الرحالة العرب زمام المبادرة آنذاك وقاموا برحلات واكتشافات هامة وكان لهم الفضل في اكتشاف كثير من البقاع المجهولة آنذاك وخاصة : بلاد الصين ، والسودان والجزيرة العربية وإيران .

وقد انتقلت المعلومات والمعارف الجديدة التي توصلوا إليها إلى الأوروبيين عندما احتك المسيحيون بالمسلمين أثناء الحروب الصليبية . وكان للعرب أيضاً الفضل الاكبر في الأمور التالية :

- في نقل علوم الاغريق ، بعد ترجمتها ، إلى الأوروبيين .
 - في نقل البوصلة من الصين إلى أوروبا .
 - في نقل الأرقام العربية التي تستخدمها شعوب أوروبا حالياً .
 - في نقل مزروعات جديدة كالرز والقطن وقصب السكر .
- وقد وصل الملاحون العرب إلى منطقة الشرق الأقصى وكانوا قد أسسوا فيها مراكز تجارية دائمة ، وامتد نشاطهم على طول الساحل الشرقي من أفريقية حتى جزيرة مدغشقر .

وقد اشتهر من العرب عدد من الرحالة الكبار كتبوا مشاهداتهم وملاحظاتهم بشكل علمي دقيق . وقد اشرنا في تمهيد الكتاب إلى أشهر الرحالة العرب كما اسلفنا

هـ - النورمانديون (اسكندنافيون) والاكتشافات الجغرافية :

لقد عاصر النورمانديون العرب ، واشتهروا بمهارة وصلابة ملاحيتهم وجودة
مراكبهم البحرية . ولقد دفع ضيق الأراضي الزراعية ، وطبيعة البلاد ، كما
دفع حق الولد البكر سكان الدانمارك والنرويج الحاليين إلى مغادرة بلادهم بحثاً
عن أراضي جديدة .

وأشهر المكتشفين الاسكندنافيين إيريك الأحمر النرويجي Eric le Rouge
الذي حكم عليه بتهمة القتل فهرب إلى ايسلنده وطرده من هذه الجزيرة لأنه
ارتكب جريمة أخرى . لقد قام إيريك برحلته فوصل إلى شواطئ غروثلنده
وأطلق عليها اسم الأرض الخضراء Greenland ، وكان ابنه المسما ليف
السعيد Lief L'heureux يرافقه في رحلته هذه . ومن المحتمل أن إيريك
وإبنه وصلا إلى أمريكا من جهة الشمال .

غير أن الاسكيمو قضوا على ما يبدو على المستعمرة التي كان أسسها
النورمانديون واقتطعت أخبارها عن العالم ، ولم يعثر الأوروبيون عندما
اكتشفوا أمريكا في القرن الخامس عشر على أي أثر للنورمانديين فيها .

وبينا كان النورمانديون يكتشفون البقاع الشمالية ، كان الأوروبيون يسعون إلى
إيجاد علاقات دينية وتجارية مع آسيا لأن البحر الأبيض المتوسط كان قد غدا
بحيرة عربية إسلامية بالرغم من الجهود التي بذلها الصليبيون .

ومنذ بداية القرن الثالث عشر أوجدت بعض العلاقات المباشرة بين أوروبا

وبلاد المغول ، لأن الباباوات كانوا قد أرسلوا برسلهم إلى كبير المغول في وقت كان فيه هؤلاء في نزاع مع العرب المسلمين ، وعند عودة الرسل ذكروا حقائق كثيرة كانت تبدو غريبة آنذاك . ومن أشهر الرحلات التي قام بها الأوربيون رحلة ماركو بولو Marco polo الذي كان قد دخل في خدمة المغول وزار بلاد الشرق الأقصى خلال أكثر من سبعة عشر عاماً ثم عاد إلى إيطاليا بعد غياب أربعة وعشرين عاماً ونشر كتابه المعروف «كتاب العجائب» .

٢- الاكتشافات الجغرافية بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر :

حدث في القرن الخامس عشر أكبر اكتشاف جغرافي في تاريخ البشرية وهو اكتشاف أمريكا ، وبعد أن تم هذا الاكتشاف المدعش بقيت سفن الملاحين والمغامرين تجوب البحار والمحيطات بدون هوادة حتى القرن الثامن عشر . وكان لهذه الرحلات والاكتشافات أسباب مباشرة منها البحث عن طرق جديدة ومباشرة للوصول إلى الهند . وتقدم فن الطباعة وصناعة الخرائط واستخدام البوصلة والاصطراب العربي وتقدم صناعة السفن .

١- اكتشاف سواحل القارة الأفريقية :

منذ القرن الرابع عشر كان الملاحون الأوروبيون قد بدأوا بالتوجه نحو الجنوب ، ووصل ملاحون من شربورغ إلى جزر كناريا ولكنهم اضطروا للتقهقر أمام مقاومة سكان الجزر الأصليين . وقد أمّ البرتغاليون اكتشاف السواحل الأفريقية بتشجيع من أميرهم هنري الملاح ، فقد وصل ملاحوه إلى جزيرة ماديرا في عام ١٤٢٠ وإلى جزر

أصور في ١٤٣١ والرأس الاخضر في عام ١٤٤٤ والى موريتانيا في ١٤٤٥ .
وفي عام ١٤٨٧ دار Barthelemy Diaz حول القارة الافريقية وأطلق اسم
رأس العواصف على الرأس الموجود في أقصى الجنوب. وفي عام ١٤٩٧ خرج « فاسكودو
غامبا » باسطوله من لشبونه واجتاز رأس الرجاء الصالح وسائر ساحل موزامبيك
ووصل الى الهند بمساعدة الملاحين العرب .

ب - اكتشاف امريكا ورحلات الاسبان :

تم اكتشاف امريكا على يد كريستوف كولومب وهو من أصل ايطالي
تزوج في البرتغال واشتغل لحساب اسبانيا . ونتيجة دراساته الشخصية
اعتقد بأن الطريق المباشر للهند يجب أن يكون باتجاه الغرب طالما أن الارض
كروية . وبمدا اتصالات كثيرة ومتاعب كبيرة كلفته « ايزابيللا » ملكة اسبانيا
باكتشاف أمراض جديدة وأعطته لقب أميرال ووعدته بعشر الثروة
التي سيكتشفها .

وبدأ كولومب رحلته الاولى في شهر آب ١٤٩٢ ، وبعد صعوبات كثيرة
وأس وتمرد من قبل ملاحيه . وصلت الرحلة في ١١ تشرين الاول لأول مرة
بالتاريخ الى الأرض الامريكية فظن أنه وصل الى بعض مناطق الهند وأطلق
خطأ على الجزر التي اكتشفها اسم جزر الهند الغربية ، وبالرغم من أنه كان
يعتقد بأن الهند قريبة من هذه الجزر فإنه لم يحاول الذهاب اليها بل عاد في عام
١٤٩٢ الى اسبانيا بعد ان ترك بعض رجاله في جزيرة هيسبانيولا . وقد جلب

مع بعض المحصولات الجديدة كالقطن والرز والبطاطا ولكن ما حصل عليه من الذهب كان قليلا .

واكتشف كولومب خلال رحلته الثانية التي بدأها في عام ١٤٩٣ جزر غوايلوب guadeloupe والمارتينيك والجامايك ولكنه لم يجد أي أثر للصين واليابان . وقام هذا الملاح الكبير برحلة ثالثة في عام ١٤٩٨ وصل خلالها الى جزيرة ترينيداد Trinidad ومصب نهر الاوريتوك واعتقد أن سواحل امريكا الجنوبية التي وصل اليها هي سواحل آسيا . وأثناء عودته الى اسبانيا أوقف وكبل بالحديد ثم اطلق سراحه . ثم بدأ كولومب رحلته الرابعة في عام ١٥٠٢ ووصل فيها الى سواحل الهندوراس غير أن كولومب كان قد أصبح عجوزاً مريضاً فاضطر للعودة ولم يجد في اسبانيا من ينصره ويهتم به فمات مهملًا مغموراً في عام ١٥٠٦ .

د - البعثات الاخرى نحو امريكا :

اكتشف كولومب سواحل امريكا ، ومات وهو يجهل أنه اكتشف قارة جديدة ، وكان قلب هذه القارة الكبيرة مجهولا ولكن سرعان ما تدفق المغامرون والمكتشفون نحوها فتعرفوا على ما في داخلها وكانوا يبحثون عن الذهب بشكل خاص . لقد استولى Cortez على المكسيك في عام ١٥١٩ واحتل Pizarre و Almagro بلاد البيرو والشيلي لحساب اسبانيا ، ثم اكتشفت كولومبيا وفنزويلا واليوكوتان وفلوريدا وكولورادو وكاليفورنيا . ووصل « Cabral » الى البرازيل لأول مرة عام ١٥٠٠ .

إن الذي أعطى للقارة الجديدة اسم أمريكا هو Amerigo Vespucci الذي أدرك أن الأرض الجديدة لم تكن آسيا . وقد وصل أمريكا هذا الى ساحل الهوندوراس وزار خليج المكسيك ثم سائر سواحل أمريكا الجنوبية الشرقية الى أن وصل الى خليج ريو دولا بلاتا Rio de la plata .

ظل البحث مستمراً للوصول الى ممر نحو الهند ، وفي عام ١٥١٣ اجتاز « بلباو Balbao » الاسباني برزخ بناما ووصل الى ساحل المحيط الهندي . وفي عام ١٥٢٠ دار ماجلان حول أمريكا الجنوبية وأعطى اسمه للمضيق الموجود بين نهاية أمريكا الجنوبية وجزيرة أرض النار . واجتاز المحيط الكبير في وقت كان الطقس فيه جميلاً والبحر هادئاً فأطلق عليه اسم المحيط الهادي . وعندما وصل الى الفيليبين قتل في حرب مع أهل هذه الجزر . وتابع رفاقه الرحلة فعادوا في عام ١٥٢٢ عن طريق رأس الرجاء الصالح الى اسبانيا وبرهنت رحلة ماجلان على كروية الارض لأول مرة . وكان المكتشفون يبحثون عن ممر بحري في شمال أمريكا ، فاكتشفوا جزيرة الأرض الجديدة ولابرادور وخليج هدسون وأرض بافان . . . الخ .

د - اكتشاف البحار الجنوبية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر :

كان بطليموس قد وقع في الخطأ عندما رسم خريطة العالم وذلك لأنه كان قد وضع عليها قارة جنوبية تقع في جنوب المحيط الهندي وتصل بين افريقية وآسيا الشرقية ، فبقيت هذه الفكرة الخاطئة في أذهان الناس حتى بعد رحلة

«فاسكودوغاما» حول القارة الافريقية ووصوله الى الهند . أضيف الى ذلك أن الناس كانوا يعتقدون آنذاك بأنه لا بد من أن توجد أراض واسعة في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية مقابل القارات المتجمعة في النصف الشمالي وذلك حفظاً للتوازن . وكان الأمل في اكتشاف هذه القارة الجنوبية وما قد يكون فيها من ثروات جديدة دافعاً لقيام رحلات عديدة خلال الفترة التي امتدت من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر .

في بداية القرن السابع عشر انطلق الملاحون الهولنديون من جزر الصوند فتعرفوا على السواحل الشمالية الغربية من استراليا ، وكان من أشهر أولئك الهولنديين Abel Tasman الذي اكتشف في عام ١٦٤٢ جزر تاسمانيا وزيلندا الجديدة ثم اكتشف وهو في طريقه إلى أوروبا منطقة باتافيا وجزر فيجي وسالمون .

وبعد فترة من التوقف استؤنفت الرحلات في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، فاكشف الفرنسي Bougainville جزر Tahiti وجزر الصاموا Samoa وهبريد الجديدة واكتشف فرنسي آخر اسمه Laperouse جزر المحيط الهادي الواقعة شمال اليابان (١٧٩١ - ١٧٨٥) .

واشتهر إنكليزي اسمه James COOK برحلاته البحرية . واكتشف خلال رحلاته الثلاث التي استمرت من ١٧٦٨ إلى ١٧٧٩ كل سواحل زيلندا الجديدة وساحل استراليا الشرقي وتقدم نحو المحيط القطبي الجنوبي حتى المنطقة التي يسودها الجليد واكتشف جزر هاواي حيث قتله فيها أحد السكان . وقضت

رحلة كوك الثانية ورحلات James Ross و Dumont D'urville — قضت
هذه الرحلات نهائياً على فرضية وجود قارة جنوبية .

٣ — الاكتشافات الجغرافية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

أهم الاكتشافات التي حصلت خلال هذين القرنين تمت داخل القارات للتعرف
على بعض البقاع التي كانت لانزال مجهولة أو شبه مجهولة .

آسيا : بالرغم من كل الصعوبات قام الروس برحلات في منغوليا والتركستان
وقام عالم ألماني بدراسة الصين الشمالية ومنشوريا . ووصل رجلا الدين الفرنسيان
Huc و Gabeه بعد أن اجتازا الصين، إلى التبت ومدينة Lahassa لاهاسا .
وفي الهند الصينية تتبع الرحالة نهر الميكونغ بحثاً عن طريق سهل للوصول إلى
الصين . وتوغلت بعثة ستروين بعيداً إلى قلب آسيا .

أفريقية : بالرغم من قرب القارة الأفريقية من أوروبا فإن أواسطها لم
تكتشف إلا في وقت متأخر وذلك بسبب العقبات الكثيرة التي تعترض
المكتشفين فيها ، تلك العقبات التي تتألف من أنهارها الكبرى التي تقطعها
الشلالات والمساحات الواسعة التي تغطيها الغابات العذراء المخيفة أو الصحاري
المقفرة وبسبب عداء سكانها وتمصبهم تجاه البيض .

ومن المكتشفين الذين عملوا في أفريقيا René Caillé الذي استطاع أن
يصل إلى تومبوكتو^(١) بوسائله الخاصة رغم الفقر والمرض . والبروتستانت
الايكوسى Livingstone الذي اكتشف خلال رحلاته الثلاث التي دامت من

(١) وصل ابن بطوطة الى مدينة تومبوكتو منذ القرن الرابع عشر

١٨٤٢ إلى ١٨٨٣ نهر الزامبيز Zambèzo والبحيرات الكبرى في أفريقية الشرقية وحوض الكونغو الأعلى وقد مات أثناء رحلته الأخيرة .

وقد عمل كل من Brazza الفرنسي الجنسية و Stanley الصحفي الأمريكي على اكتشاف حوض الكونغو وقد نجح كل منهما في مهمته والتقى معاً في حوض الكونغو الأدنى . ونجحت بعثة Marchand في عام ١٨٩٨ في اجتياز أفريقية من الغرب إلى الشرق عن طريق الكونغو والنيل الأعلى والحبشة وقد صادف صعوبات كبيرة جداً ، أما Stanley فقد اجتاز أفريقية في الاتجاه المعاكس أي من الشرق إلى الغرب عن طريق أفريقية الشرقية والكونغو .

وعملت بعثات عسكرية عديدة على اكتشاف الصحراء الكبرى ، فقامت بعثة الكولونيل الفرنسي Flatters سنة ١٨٨٠ لاجتياز الصحراء ولربط أفريقية الشمالية بأفريقية الغربية ولكن الطوارق قضوا على هذه البعثة . وتم اجتياز الصحراء لأول مرة عام ١٨٩٨ ونجحت حملة Foureau - Lmay في هذه المهمة .

وقد عمل الضابط الفرنسي Charles de Foucauld على التعرف على بعض بقاع مرا كش منذ سنة ١٨٨٣ متخفياً بشكل يهودي متسول .

ولم يكن قد بقي في القرن العشرين إلا مناطق قليلة للإكتشاف إذا استثنينا حوض الأمازون . غير أن عدداً كبيراً من المناطق التي وصل إليها المكتشفون كانت لا تزال شبه مجهولة وتحتاج إلى مزيد من الدراسة . وقد ساعد استخدام الطائرة على الوصول إلى البقاع النائية أو التي يصعب التوغل فيها ، وقد ساعدت الطائرة على التصوير الجوي ورسم الخرائط . لذلك كان الباحثون قد حلّوا خلال هذا القرن الأخير محل المكتشفين

٤ - البعثات الاستكشافية العلمية الى الأراضي القطبية :

تمثل البعثات التي انجحت نحو أراضي القطبين آخر الجهود التي بذلها الانسان للتعرف على كل أجزاء الكرة الأرضية . وإذا كانت البعثات الأولى قد ذهبت للتعرف على أراضي القطبين واكتشاف ما كان فيها مجهولاً فإن البعثات العلمية الخاصة بدراسة هذه المناطق الباردة لاتزال مستمرة حتى الآن . وقد أصبح للأراضي القطبية أهمية كبرى في الحرب العالمية الثانية وخاصة من الناحية الاستراتيجية فأقصر طريق من الاتحاد السوفياتي إلى الولايات المتحدة يمر من القطب الشمالي ، كما يمر من القطب الجنوبي أقصر طريق يصل بين أمريكا الجنوبية وأستراليا . وبعد أن انتهت مرحلة الاكتشاف بدأت مرحلة الدراسة والاستثمار .

١ - خصائص وميزات الرحلات والبعثات القطبية :

إن الفوائد التي يمكن للإنسان أن يجنيها من معرفة واستغلال المناطق القطبية الباردة عديدة ومع ذلك فإن هذه الأراضي لما تعرف بعد معرفة كاملة واستغلال مواردها لأيزال في دور البداية .

- ولقد كان الدافع الأول الذي دفع الملاحين والمكتشفين نحو الأراضي القطبية دافعاً اقتصادياً ، فقد كان بعضهم يود اصطياد الحيتان البالين Baleine بعد أن اختفت تقريباً من البحار الشمالية ذات العروض المعتدلة . وكان بعضهم الآخر يطمع في الحصول على ثروات معدنية جديدة .

أما مكتشفو القرن التاسع عشر فقد كان لهم حوافز أخرى ؛ فقد ذهب بعضهم لغاية رياضية وكانوا يهدفون إلى تسجيل رقم قياسي جديد .

وكانت الغاية العلمية هي التي دفعت عدداً من العلماء نحو تلك الأراضي المقفرة الباردة ، وعندما تتجلى الاسرار المحيطة بتلك البقاع أمام التقدم العلمي والفني فإن كثيراً من المسائل الغامضة اليوم سوف تحل ، كمسائل آلية التيارات البحرية وخصائص التجلد وأصل منشأ بعض الظواهر الجوية ، والمغناطيسية الارضية وتأثيرها على الظواهر المناخية .

وبالرغم من أهمية البقاع القطبية فإن اكتشافها قد تأخر والسبب في ذلك الصعوبات الهائلة التي يصادفها الانسان هناك ، وهي في الواقع صعوبات تفوق بكثير كل ما يمكن أن يصادف في بقية البقاع الأخرى من العالم . وتبدو هذه الصعوبات في نواحي كثيرة أهمها :

أ - قسوة المناخ: هذا المناخ صحي من حيث خلو الجو من الجراثيم ولكنه شديد البرودة ، والثلج يهطل بغزارة على شكل زوابع شديدة .

ب - يصعب احتمال الليل القطبي الطويل الذي يسبب قلقاً نفسياً واضطراباً عصبياً ، وخاصة عندما يمتد عدة أسابيع بل وعدة أشهر . ويصاب الانسان بالهزال مع مرور الزمن .

ج - قلة الغذاء : إن التربة لا تعطي أي غذاء نباتي ، أما الحيوانات فنادرة بل معدومة تماماً في بعض الأحيان ، لذلك يضطر المكتشفون للتغذي بالمعلبات المحفوظة ويؤدي هذا إلى إصابتهم بأمراض مؤلمة .

د - صعوبة المواصلات : إن التنقل صعب وخطر ، ففي البحار تتعرض

السفن لأخطار متنوعة إذ تجد نفسها فوق أعماق مجهولة من جهة ولأن تجلد المياه السطحية يمنعها عن الحركة وان قطع الجليد العائمة تهددها بصورة دائمة من جهة أخرى .

أضف إلى ذلك أن السير فوق الجليد لا يتخلو من أخطار كبيرة ، فان قطع الجليد تتراكم فوق بعضها أحياناً فتشكل عثرات لا يمكن اجتيازها وقد يتشقق الجليد مؤلفاً حواجز قائمة تفصلها هوات مسحية تستر أحياناً بطبقة رقيقة من الثلج تنهار بمجرد السير فوقها .

إن إكتشاف البقاع القطبية الظليلة قد تطلب كثيراً من الصبر وقوة الارادة والصلابة والتضحية والبطولة . لقد تغلب الانسان في نهاية الأمر على الجليد ولكن تاريخ إكتشاف هذه البقاع الباردة حافل بحوادث مؤلمة لا تحصى تمت في عزلة وصمت . ولم تقف هذه الحوادث الرهيبه حائلاً تجاه الانسان يثنيه عن عزيمته وقد ساعده التقدم العلمي واختراع الطائرة والمذياع بشكل خاص في التغلب على مختلف الصعوبات .

٢ - إكتشاف الأراضي القطبية الشمالية :

كانت أراضي القطب الشمالي هي أولى البقاع الباردة التي توجه إليها المكتشفون ويرجع سبب ذلك إلى أن معظم الدول المتقدمة في مضار الحضارة تقع أراضيها في النصف الشمالي من الكرة الأرضية .

وقد أشرنا سابقاً إلى بعض النورمانديين الذين كانوا قد وصلوا منذ العصور الوسطى إلى سواحل غروثلندا وربما إلى سواحل سبيتسبرغ Spitzberg .

وابتداً مع بداية القرن السادس عشر ما سمي بحملة التفتيش عن الممرات . وقد تطلب إكتشاف الممر الشمالي الغربي جهود ما يقرب من ثلاثة قرون . وبنتيجة البحث عن هذا الممر إكتشف Davis و Cabot البقاع القطبية الواقعة شمال سواحل أمريكا الشمالية مباشرة وذلك في القرن السادس عشر وتلا ذلك الاكتشافات التي قام بها كل من Baffin و hudson . وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر بذل Ross و perry و Franklin .. وآخرون غيرهم جهوداً كبيرة كانت حصيلتها من المآسي تفوق حصيلتها العلمية . وفي عام ١٩٥٠ فقط إستطاع الانكليزي Mac clure أن يصل إلى هذا الممر بواسطة الزحافة التي تسير على الجليد . وكان النرويجي Amundsen أول إنسان يعبر هذا الممر بواسطة المراكب البحرية وذلك بين ١٩٠٣ و ١٩٠٦ .

وفي أثناء البحث عن الممر الشمالي الغربي تعرف Barentz عام ١٥٩٦ على جزيرة Spitzberg وزمبيليا الجديدة وبحر كارا . وفي سنة ١٧٢٨ إجتاز الدانماركي Bering لأول مرة المضيق الذي يحمل إسمه أما الممر الشمالي الشرقي^(١) فقد قطعه تماماً السويدي Nordensjold وذلك بين عامي ١٨٧٨ - ١٨٧٩ .

أما إكتشاف القطب الشمالي نفسه فقد تطلب جهود قرن ونصف ، وقد بدأت أولى المحاولات في القرن الثامن عشر وقد انطلقت من سيبيريا غولكنها فشلت بسبب تصدع البانكيز الجليدي وبسبب أفتية المياه والمرتفعات الجليدية

(١) الممر الشمالي الغربي يحاذي السواحل القطبية لأمريكا الشمالية الشرقي يحاذي السواحل القطبية للاتحاد السوفياتي .

التي كانت تغطي سطح البانكينز .

وقد حاولت بعثات عديدة من غير جدوى أن تصل إلى بحر غير متجمد كانوا يعتقدون بوجوده في الجهتين الشرفية والغربية من غروثنلاندا .
واعتباراً من ١٨٨٢-١٨٨٣ ، وهو العام القطبي الأول ، إتصفت البعثات بالصفة العلمية ، ومن أشهر الذين تقدموا نحو القطب Nansen النرويجي وباخرته المشهورة Fram ، ولكنه لم يستطع أن يتجاوز درجة عرض ٨٦° و ١٣° .
ومنذ ١٨٩٨ كان الأمريكي R. Peary يحاول بعناد الوصول إلى القطب وقد وصل إلى القطب فعلا في عام ١٩٠٩ بفضل صبره وبفضل إستخدامه للاسكيمو ولتقوافل منظمة من الزحافات .

ومنذ ذلك التاريخ تعددت الرحلات نحو القطب وقد ساعد على ذلك إستخدام زحافات تسير بقوة المحرك ، ومراكب لكسح الجليد وطائرات مناطيد واستخدم Amundsen الطائرة لأول مرة عام ١٩٢٢ ولكنه لم ينجح .
وكان الأمريكي Byrd أكثر حظاً من سابقه فقد استطاع الطيران فوق القطب الشمالي في عام ١٩٢٦ ، أما Wilkins ، وهو أمريكي أيضاً فقد اجتاز بطائرته دفعة واحدة كل المنطقة من آلاسكا حتى سينزبرغ وذلك في عام ١٩٢٨ .
وكان Amundsen و Nobile قد قطعوا نفس المسافة بالمنطاد ولكن بالاتجاه المعاكس وذلك في عام ١٩٢٦ .

وفي عام ١٩٣٢ - ١٩٣٣ أنشئت محطة لدراسة الأراضي القطبية بناء على إتفاق دولي . ومنذ سنة ١٩٣٧ أنشأ السوفيات المحطة المتنقلة رقم واحد تحت إشراف Popanine كما أنشأوا مطاراً على البانكينز فانتقل الجليد مع المطار مدة

٢٧٤ يوماً حتى وصل إلى القرب من إسلاندا .

٣ - اكتشاف الأراضي القطبية الجنوبية :

لقد جاء اكتشاف هذه الأراضي متأخراً بالنسبة لاكتشاف الأراضي القطبية الشمالية وذلك لأن الأراضي الجنوبية أكثر بعداً عن المناطق المسكونة وشروطها الطبيعية أكثر قسوة منها في الأراضي القطبية الجنوبية . وكان « كوك » قد وصل أطراف الدائرة القطبية الجنوبية خلال رحلته الثانية في القرن الثامن عشر ، وكان قد صادف في تلك البحار صعوبات كبيرة بسبب القطع الجليدية العائمة وبسبب البانكيز والعواصف لذلك تراجع كوك عن هذه المناطق وهو مقتنع بأنه من المقدر لها أن تبقى إلى الأبد مدفونة تحت الجليد والثلوج الدائمة . وارتاد هذه البقاع فيما بعد صيادون أشداء من الانكليز والأميركيين كانوا يبحثون عن الحيتان و الفقميات ، واقتربوا من القارة القطبية الجنوبية ومن الجزر القريبة منها .

وخلال الفترة الواقعة بين ١٨١٩ و ١٨٢١ تعرفت بعثة Belbingshausen الروسية على أراضي بطرس الأول واسكندر الأول . وبين عامي ١٨٤٠ - ١٩٣٥ جهزت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بدون أي اتفاق سابق فيما بينها ، ثلاث بعثات قطبية ، فاكشف الفرنسي dumont d'urville أرض Louis-Philipp وأرض Adélie وساحل Clarie ووصل الأمريكي Wiekcs إلى شرق أرض بطرس الأول واكتشف الانكليزي Ross أرض فيكتوريا والبركانين الكبيرين Erebus و Terror وتقدم حتى درجة عرض ١٥ و ٨٢° .

وتوقفت الرحلات القطبية بعد ذلك فترة من الزمن لتستأنف من جديد في نهاية القرن التاسع عشر . لقد اكتشف البلجيكي gerlache أرخبيل الجزر الواقعة في شرق أرض graham في عام ١٨٩٨ . وتتالت بعد ذلك بعثات جديدة ألمانية وانكليزية ، وايسوسية . وسويدية ، وفرنسية وامتازت هذه البعثات بما قامت به من أعمال طبوغرافية وبما حصلت عليه من مجموعات جديدة تخص التاريخ الطبيعي . وكان الدكتور charcot هو الذي قاد البعثة الفرنسية في ١٩٠٤ - ١٩٠٥ - وقاد Scott البعثة الانكليزية خلال ١٩٠٢ - ١٩٠٣ ووصل الى درجة عرض ٨٢° و ١٧° .

وكان الوصول إلى القطب الجنوبي قد أصبح سهلاً نسبياً ، لأن نقطة اقطب تقع في القارة على عكس القطب الشمالي الذي يقع في وسط البحر . وكانت أولى محاولات الوصول إلى القطب الجنوبي هي محاولة الانكليزي Shackelton بين ١٩٠٨ - ١٩٠٩ ولكنه أخفق بسبب قلة المؤن بعد أن وصل إلى درجة عرض ٨٨° و ٢٣° . وفي صيف ١٩١١ - ١٩١٢ استؤنفت الرحلات وانطلق Ross من الغرب ، من الجزيرة التي تحمل اسمه وانطلق النرويجي Amundsen من أقصى غرب الحاجز الكبير . وبفضل التنظيم الدقيق للاستراحة والتغذية ، وبفصل كلاب الاسكيمو التي استخدمها ، استطاع Amundsen أن يصل إلى القطب الجنوبي بتاريخ ١٤ كانون الاول من سنة ١٩١١ ، وقد تبعه اليه الانكليزي Scott بعد عدة أسابيع أي بتاريخ ١٧ كانون الثاني من سنة ١٩١٢ وقد توفي سكوت ورفاقه أثناء عودتهم ونجح بعد ذلك الاميريكي Byrd في التحليق بطائرته فوق القطب الجنوبي في شهر تشرين الثاني من سنة ١٩٢٩ .

ومنذ بداية القرن العشرين بدأ الاهتمام بالأراضي القريبة من القطب الجنوبي بغية إتمام التعرف عليها ، وقد قام بهذه المهمة الفرنسي Charcot من عام ١٩٠٨ إلى ١٩١٠ والامريكيان Manson و Wild بين ١٩١٢ و ١٩١٤ والانكليزي Shackelton بين ١٩١٤ و ١٩٢٢ . وبعد ١٩١٤ أحرز المكتشفون تقدماً كبيراً بفضل استخدام الطائرة . ففي ١٩٢٦ حلق R, Byrd الاميركي فوق القطب الجنوبي والتقط عدداً كبيراً من الصور ، وبعد ثلاثة أعوام عاد Byrd إلى القطب الجنوبي على رأس حملة كبيرة وأمس في نهاية خليج البالينات baie des baleines مدينة حقيقية تنار بالكهرباء . وقد عاد هذا الاميركي إلى القطب الجنوبي خلال عام ١٩٣٣ ، وفي عام ١٩٤٧ قاد حملة مؤلفة من ثلاثة عشر مركباً وأربعة آلاف رجل وكان بين سفنه غواصة وحاملة طائرات ، وكاسحتنا جليد ، وفي عام ١٩٥٠ قاد الفرنسي Liotard André حملة جديدة لدراسة أرض Adélie ولا تزال البعثات والمحطات العلمية التي أنشأها مستمرة في الدراسة والبحث بغية التعرف على هذه البقاع النائية التي يسودها البرد معرفة صحيحة .

نتائج الاكتشافات الجغرافية وما از معرفتنا الحاضرة بالككرة الارضية

كان للاكتشافات الجغرافية التي درسناها نتائج جغرافية هامة وعديدة

نذكر منها مايلي :

١ - إتساع البقعة المسكونة : .. كانت توجد على سطح الأرض حتى القرن الخامس عشر بقاع واسعة خالية من السكان أو شبه خالية كاستراليا وأمريكا، فالقارة الأميركية التي تبلغ مساحتها ٤٢ مليون كم^٢ كانت شبه خالية عندما اكتشفها

كولومب إذ لم يكن فيها أكثر من عشر ملايين نسمة من الهنود الحمر وكانوا يتركزون في الجبال الواقعة على السواحل الغربية بشكل خاص . أما اليوم فان أمريكا مسكونة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب . وقد سكنت معظم أجزاء استراليا ، أضف إلى ذلك كل البقاع التي اكتشفت إعتباراً من القرن الخامس عشر فقد اتخذت كلها مواطن للشعوب البيضاء بالرغم من قسوة شروطها الطبيعية في كثير من الأحيان .

٢ - حدوث تغيير في توزيع مراكز الكثافات البشرية : كان من الطبيعي أن يحدث تغيير في توزيع السكان على الارض بعد أن بدأ الناس بالهجرة إلى البقاع الجديدة وخاصة في أمريكا واستراليا ، فأمریکا تضم اليوم حوالي ٤٠٠ مليون نسمة وفيها عدد من أكبر مدن العالم .

٣ - رافق هذه التنقلات البشرية وقيام مراكز الكثافة الجديدة - رافقها ظهور حضارات جديدة ، فالحضارة الامريكية (الولايات المتحدة) تختلف عن أمها الحضارة الغربية ولا تشبه في شيء الحضارات القديمة التي كانت موجودة في أمريكا قبل وصول كولومب إليها كحضارات الانكا والمايا والأزتيك . هذا ولم تكن التنقلات البشرية إلى هذه البلاد الجديدة طوعية دائماً فانزوح مثلاً قد نقلوا قسراً من أفريقية إلى الولايات المتحدة ونجم عن ذلك المشكلة العنصرية السوداء التي لم تزل قائمة حتى اليوم وقد قتل المهاجرون في سبيل تأمين اقامتهم عدداً كبيراً من أفراد القبائل الاصلية التي كانت تسكن في البقاع المكتشفة فالسلالة التسمانية مثلاً أبيت عن آخرها ، ولم يبق من سكان استراليا الاصليين وسكان أمريكا الاصليين إلا النذر اليسير .

٤ - الاستعمار : كانت الدول تتسابق إلى استعمار المناطق الجديدة التي

يصل اليها المكتشفون . فقد تنافس الفرنسيون والهولنديون والانكليز على استعمار أمريكا الشمالية ، كما تنافس البرتغاليون والاسبان على استعمار أمريكا الوسطى والجنوبية .. وحدث نفس الامر بالنسبة لجزر المحيط الهادي . كان الهولنديون قد استولوا على المنطقة الشرقية من الولايات المتحدة وأسسوا مدينة امستردام الجديدة ولكنهم أخرجوا منها وتحولت امستردام الجديدة إلى يورك الجديدة أي نيويورك New York الحالية وقعد الفرنسيون مستعمراتهم وأملاكهم في كندا وفي لويزيانا .

٥ - النتيجة العلمية : كانت النتيجة العلمية الهامة للاكتشافات الجغرافية ان تم التعرف على مختلف اجزاء الكرة الارضية وأمكنت دراسة مختلف الظاهرات الطبيعية والبشرية التي تتوزع على سطحها، ولم يبق في الوقت الحاضر أي جزء من الارض لم يصل إليه الانسان ، ولكننا لانعرف كل أجزاء الكرة الارضية بدرجة واحدة . ويمكن القول بأن :

- أ - ربع اليابسة من سطح الارض معروف تماماً وممثل بخرائط دقيقة .
- ب - الربع الثاني معروف تماماً ولكنه لم يمثل بعد بخرائط دقيقة .
- ج - الباقي اكتشف ولكنه لم يعرف بعد بشكل دقيق .

الفصل الثاني

١ - الانسان والطبيعة

يتطلب الانسان ليعيش شروطاً مناخية خاصة كما أنه بحاجة أيضاً الى ما تنتج الأرض ليحصل على حوائجه الضرورية من غذاء وملبس ومسكن. ومعنى ذلك ان الانسان البدائي بذكائه المحدود ووسائله الأولية كان يعيش خاضعاً لوسطه الطبيعي . ومن المعروف ان هنالك مناطق عديدة على سطح الأرض لا تتوفر فيها الشروط الضرورية للحياة ولذا لم يستطع الانسان ان يقيم فيها إلا بصعوبة كبيرة .

غير أن البشر بفضل معرفته وتجاربه التي اكتسبها خلال أزمان طويلة والتي ما تزال تزداد اتساعاً وكثلاً كلما توارثتها الاجيال ؛ كذلك بفضل اختراعاته واكتشافاته المتعددة ووسائله الآلية التي تزداد عدداً واحكاماً اصبح يستطيع أن يؤثر بعض التأثير على الشروط الطبيعية في الوسط الذي يعيش فيه . وهكذا كلما ارتقى الانسان درجة في سلم الحضارة كلما ازداد سيطرة على الطبيعة يخضعها حسب حاجاته ورغباته . فدرجة حضارة امة من الامم اذن لا تختلف عن غيرها الا بعدد الاختراعات التي اوجدتها هذه الامة وبعدد الانتصارات التي اكتسبتها على الطبيعة .

تأثير الطبيعة على الانسان .-

رغم جميع الاختراعات والاكتشافات لم يزل الانسان يتأثر بعناصر الطبيعة بطريقة مباشرة او غير مباشرة فالمنامح مثلاً يستطيع ان يزيد او يحد من عدد السكان ومن نشاطهم ، والحرارة والتعرض للشمس يظهر أن لهما أكبر الأثر على طبيعة البشر .

وقد برهن بعض العلماء على أثر هذين العنصرين في تكوين الشعب الاميركي وجعله عرقاً واحداً رغم الهجرة التي جلبت عناصر جد متباينة من جميع أنحاء العالم . هذا ويعتقد أن تقدم بعض الجماعات البشرية او انحطاطها وتأخرها لها علاقة مع ازدياد درجة البرودة او الحرارة او مع استمرارهما .

كذلك ثبت أن للضغط الجوي ، الذي يختلف حسب الارتفاع، تأثيراً هاماً في احداث بعض الاضطرابات الفيزيولوجية ولكن يمكن التغلب عليها بالتطبيع . وأخيراً لكمية الرطوبة تأثير بالغ على توزيع البشر ؛ الا أن ازدياد كمية الامطار عن الحد المرغوب فيه له مفعول معاكس ومشابه لقلتها وندرتهما وكلاهما لا يصلحان لوجود كثافات بشرية كبرى . ومن المعلوم ان انتشار الكثافات البشرية في حده الاقصى ينطبق على المناطق الواقعة بين هاتين النهايتين للرطوبة .

هذا وليس من السهل ان نجد علاقة سببية مطلقة ودائمة في تأثير المناخ على الانسان بصورة مباشرة . غير ان هذه العلاقة تظهر جلية واضحة اذا ما نظرنا الى التأثير غير المباشر للمناخ على الانسان بواسطة الحياة النباتية التي هي شرط اساسي للحياة البشرية . وذلك لان جميع أنواع التغذية البشرية تستند على

أساس نباتي ، فهي اما أن تكون مؤلفة من نباتات تستهلك مباشرة ، واما من حيوانات تقتات بالنباتات واما من حيوانات لاحمة تنغذى نفسها بحيوانات تقتات بالنباتات . بالاضافة الى ذلك نلاحظ أن قسماً كبيراً من أدوات الانسان مستمدة من عالم النبات كمواد البناء والادوات المنزلية والمواد النسيجية ووسائل النقل . وهكذا فالانسان بحاجة الى النبات ليعيش والحياة النباتية بدورها تتعلق بالامطار والحرارة والنور والرياح ...

ينتج عن ذلك ان للمناطق المناخية الكبرى أعظم الأثر في توجيه الانسان نحو نوع من أنواع الحياة المختلفة على سطح الأرض وللشروط المناخية والنباتية في بعض المناطق من القسوة ما يجعل الطبيعة تنقلب على الانسان تغلباً مطلقاً لا يستطيع معها أن يعيش إلا بمجدد وصعوبة كبيرتين ، كما هي الحال في المناطق الحارة الجافة (الصحراوية) أو الباردة الجافة كمنطقة « التوندرا » أو الحارة الكشيرة الرطوبة ، كمنطقة الغابة الاستوائية العذراء. الى جانب هذه المناطق القاسية توجد مقاطعات أخرى يتكاثر فيها البشر كمنطقة البحر الابيض المتوسط والسهول الزراعية الخصبة وغابات المنطقة المعتدلة .

ولا يتأثر الانسان بالمناخ والحياة النباتية والحيوانية فقط إنما يتأثر أيضاً بالتضاريس ونوع التربة والمياه . فالتضاريس تعيق المواصلات أو تسهلها ، والتربة حسب طبيعتها وتركيبها ودرجة نفوذها قد تصلح أو لا تصلح لنمو بعض أنواع النباتات . وليست الانهار والبحار مستودعات للاغذية (الاممك) فقط وإنما هي وسيلة من وسائل المواصلات ايضاً .

منذ تألفت الجماعات البدائية حتى الحضارات الرفيعة اليوم ، اي منذ عصور ما قبل التاريخ حتى عصر « الذرة » ما فتىء الانسان يجهد في توسيع تأثيره على العالم الطبيعي واستثمار إمكاناته بشكل يزداد مع الزمن إحصائياً وإتقاناً .

وكان الانسان ، في عمله هذا ، يعتمد على ذكائه و ارادته . وبفضل عبقريته وتضافر جهوده وصل الى هذه النتائج التي ندهش لها اليوم .

وأول الوسائل التي استخدمها وأقدمها هي الجهد العضلي البشري . ولكن أهمية هذا الجهد اليوم أقل بكثير مما كان عليه في الازمنة البدائية غير أنه لم يزل ضرورياً ؛ لان العمل الآلي مهما بلغ من الدقة والقوة لا يمكنه أن يستغني عن تدخل الانسان . ثم فتش الانسان في وسطه الطبيعي عن المواد الاولية للوسائل والادوات التي اخترعها لتدليل الطبيعة نفسها . فاستخدم الجهد الحيواني لوكوب والجو واستعمل من المواد الاولية الخشب والحجر والمعادن (النحاس والقصدير والحديد بالدرجة الاولى) . وللانتفاع من هذه المواد الاولية اخذ الانسان ، بفضل ذكائه وفطنته ، يستخدم بعض قوى الطبيعة للتأثير على بعضها الآخر . فاستخدم قوة الثقل (المطرقة) لصنع الادوات المعدنية وقوة الرياح لدفع المراكب وقوة المياه لتحريك الطواحين ، واستخدم النار التي كانت من اكبر أعوان الانسان . وأخيراً ظهرت في بدء العصور الحديثة وخاصة منذ أوائل القرن التاسع عشر ، سلسلة اختراعات احدثت ثورة في العالم لما سميت في نطاق تأثير الانسان على محيطه الطبيعي . ولندكر من هذه الاختراعات بصورة خاصة المحركات

البخارية والمحركات الانفجارية والمحركات الكهربائية. لان اكتشاف قوة جديدة مثل «الكهرباء» واستعمالها أدخل عنصراً جديداً هاماً في القوة المحركة والصناعة المعدنية والكيمياء والتنوير والتدفئة حتى والمعالجة الطبية. أما المسافات الشاسعة فقد ذلكت بعد اختراع القطارات والسيارات والبواخر والطائرات. وهذا ما كان أيضاً في شأن انتقال الأفكار بعد اختراع البرق والهاتف والمذياع وهكذا بفضل استخدام القوى الطبيعية المتزايدة وبفضل انتشار المحركات الآلية واخيراً بفضل تنظيم العمل والاختصاص لم يعد الانسان خاضعاً كما كان في الماضي لشروط الوسط الطبيعي.

هذا وليس صحيحاً ان يقال بان الانسان «استعبد الطبيعة» لان ليس له من القوة مايساعده على تحقيق ذلك مباشرة. وكل ما يستطيع عمله هو تسخير بعض قوى الطبيعة للتغلب على بعضها الآخر. وهكذا فالشلالات تولد الكهرباء وبواسطة الكهرباء استطاع تفريق المادة في الافران الكهربائية، وحفر الانفاق في الجبال العالية وتغلب على الظلمة والبرد وبذلك غدا الانسان عاملاً جغرافياً حقيقياً يؤثر في عناصر الطبيعة فيغير معالمها وينميتها لمشيئته وفائدته. ولنضرب مثلاً هلى ذلك في.

١ - تأثير الانسان على التربة. - لطبيعة الطبقة السطحية من التربة أكبر الاثر في الحياة الزراعية. فالتربة السليسية مثلاً لاتصلح الا للزراعات الفقيرة كالشوفان والقمح الاسود، والتربة الغضارية الرطبة تصلح للمراعي فقط. أما الحبوب فتنبت في التربة الكلسية. ولكي يحصل الانسان على أنواع مختلفة من الزراعات ويزيد في الانتاج عمد الى تغيير تركيب التربة السطحية، فحسن

خواصها الطبيعية بما اضافه اليها من الكلس أو الرمل أو الرماد ، كما استطاع
تحسين خواصها الكيماوية بما يضيفه اليها من الاسمدة الطبيعية او الكيماوية كالفوسفات
والبوتاس و نترات الصودة الخ ...

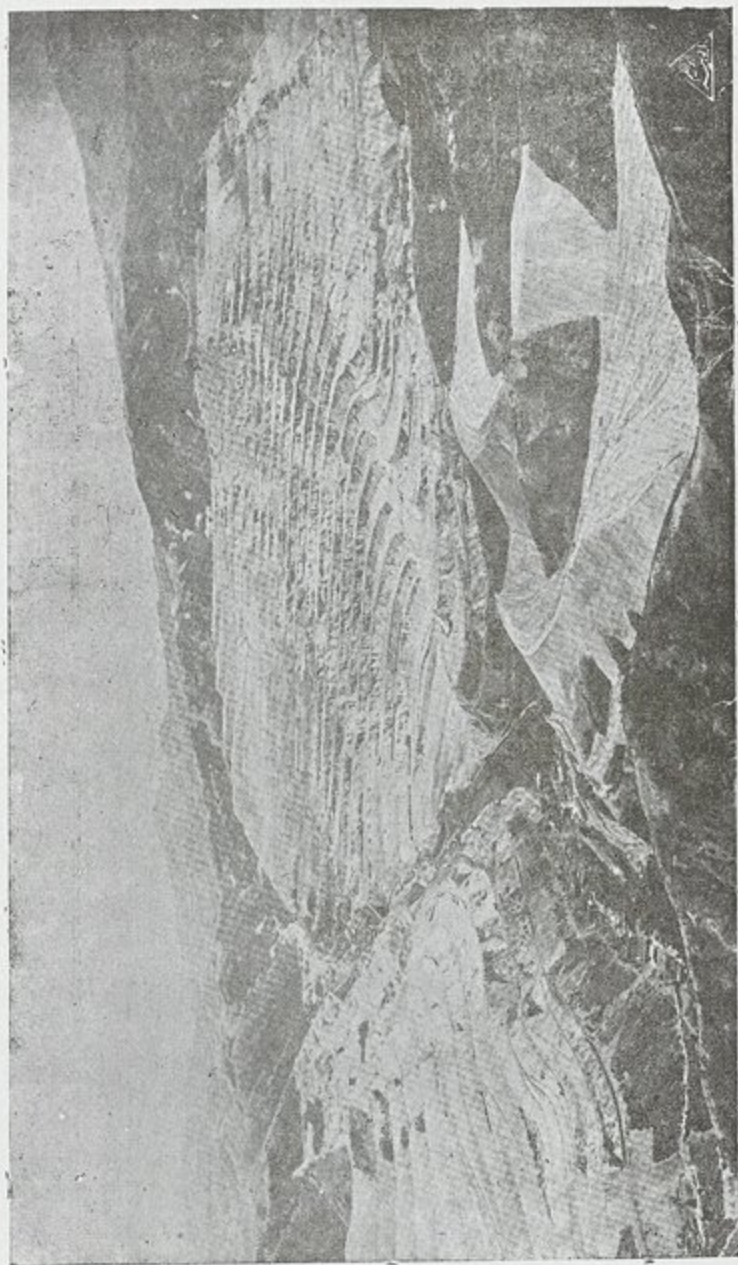
٢- تأثير الانسان على التضاريس . - ان تأثير الانسان المباشر على
التضاريس محدود اذ لا يستطيع مثلاً ان يقيم جبالا أو يزيلها من أما كنها ،
غير انه اليوم بفضل الادوات الآلية الحديثة وباستعمال المتفجرات استطاع ان
يقوم باعمال هائلة لاسيا في المناجم وفي المناطق المجاورة لها . ففي جوار مناجم
الفحم مثلاً قامت أكمات حقيقية وهضاب يزيد ارتفاع بعضها على (٧٠) متراً
تشكلت من تراكم فضلات الفحم وشوائبه .

كذلك استطاع أن يتغلب على العثرات العديدة التي يلاقيها في مواصلاته
ففتح مثلاً الترعة البحرية في البرازخ التي تفصل البحر عن بعضها كترعة
باناما (٨١) كم وازال في سبيل ذلك (١٣٠) مليون متراً مكعباً من الاحجار
والآتربة ، وترعة السويس (١٦٩) كم . وحفر الاقنية النهرية لربط الانهار مع
بعضها ، وبنى الجسور الكبيرة فوق الاودية السحيقة ، وتقب الانفاق في باطن
الجبال لتسلكلها الطرق او الخطوط الحديدية او مجاري المياه ، كذلك عمد
الانسان الى سفوح الجبال المنحدرة في بعض المناطق فبنى فيها جدراناً مدرجة
لوقاية التربة من الانجراف وليتمكن من زراعتها ، كماهي الحال في بلاد البحر الابيض
المتوسط ، واخيراً يستطيع الانسان باكتساحه للغابات في المناطق الجبلية أن
يزيد في عمل الحت والانجراف وتخريب السفوح مما يعود عليه بافدح الخسائر
والاضرار .

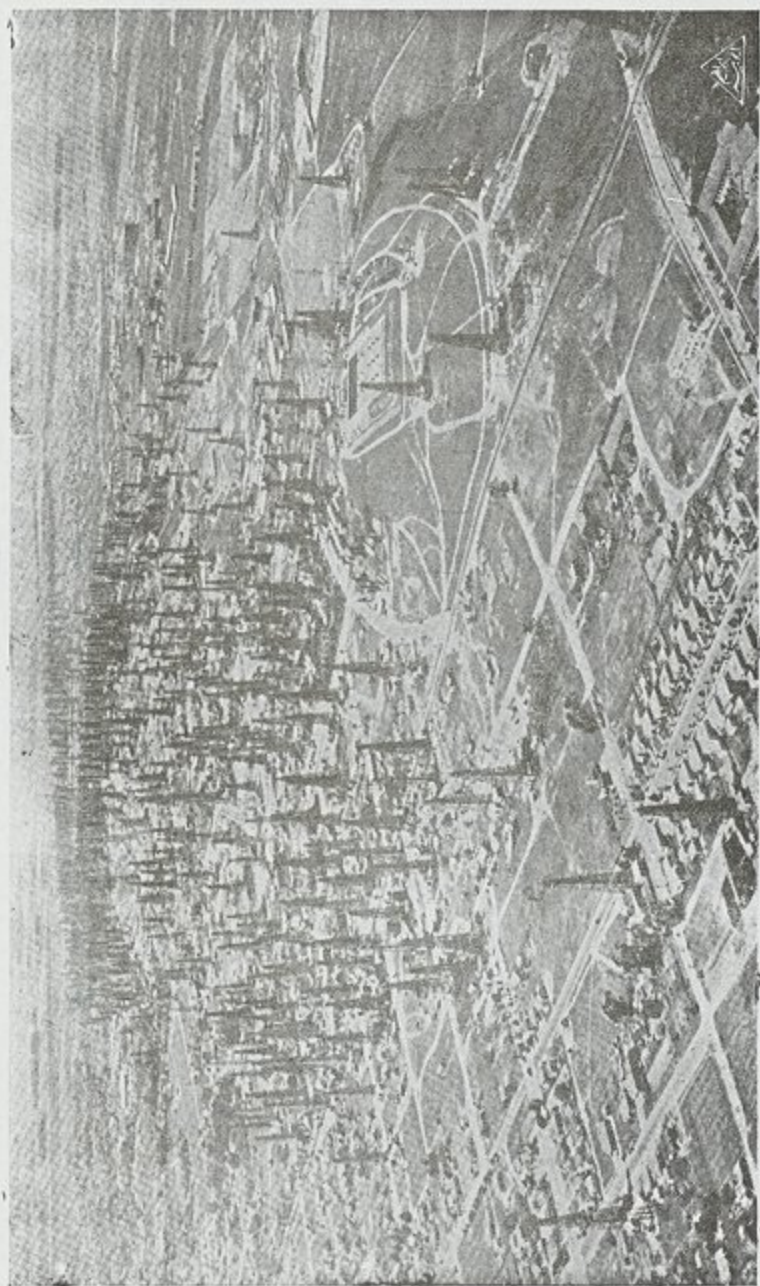
٣ - تأثير الانسان على المناخ . - لم نزل عناصر المناخ من حرارة وامطار ورياح بعيدة عن تأثير الانسان المباشر ، غير أن الانسان يستطيع بطريقة غير مباشرة ان يؤثر على نظام الامطار فيقلل من كميتها باكتساحه للغابات مثلاً . ومن المعلوم ان مياه الامطار تترشح في الارض الجرداء او تسيل على سطحها باسرع مما لو كانت مكسوة بغابات كثيفة فيقل بذلك التبخر ، واذ قل تكاثف بخار الماء في منطقة واسعة بسبب انعدام غاباتها قلت امطارها كما هي الحال في القسم الاكبر من تونس حيث يتقرب مناخها من المناخ الصحراوي بمقدار ما تفقد من حلتها النباتية . كذلك يساعد الدخان العالق في أجواء المدن الصناعية الكبرى مثل « لندن » على تكثيف الرطوبة الجوية وأحياناً على حدوث الضباب .

وقد يعتمد المزارعون في مناطق زراعة الخضر والازهار الى احداث ضباب اصطناعي لوقاية المزروعات لفحة الشمس في الربيع ولفحة الصقيع في ليالي الشتاء . ويلاحظ المسافر المار من سهل الرون الاسفل صفوفاً من شجر السرو وحواجز مصنوعة من القصب مغروسة على شكل مربعات كبيرة على أطراف المزارع وفي وسطها لوقاية المزروعات من رياح « الميسترال » الباردة . وأخيراً تقول ان المسكن والثياب وأوائل التدفئة أو التبريد من شأنها ان تخلق جواً موضعياً معتدلاً بالنسبة للوسط الخارجي القاسي .

٤ - تأثير الانسان على المياه الجارية . - لقد تغلب الانسان على الانهار فنظم مجراها وحدد كمية مياهها وذلك لتحسين شروط الملاحة فيها ومنع طوفانها ، ولذابني أحواضاً واسعة تمتليء وقت الفيضان وازدياد المياه ثم تعود



منجم النعاس في ولاية « اوتاه » في الولايات المتحدة ويرى فيه الحفرة المائتة التي أحدثها الانسان
لاستخراج فترات النعاس



آبار البترول بالقرب من ولاية مس الخوس . ويرى في هذا الشكل تأثير الانسان في تدمير معالم الطبيعة حتى كأن الآبار رغبة كثيفة) في وسط السهل الفسيح

فتمد النهر في أيام الشح ، واستطاع كذلك ان يغير نظام المياه والرطوبة في المناطق بتجفيف المستنقعات كما جرى في فرنسا « منطقة الصولونيا » وايطاليا « منطقة البونتان Marais Pontins » وري المناطق الجافة بواسطة الافنية والآبار العادية او الاروازية .

ولمآء في البلاد ذات المناخ الجاف أهمية كبرى لانه يعتبر بحق من اهم الثروات الطبيعية ، وقد ثبت بالتجربة ان التربة في هذه البلاد اكثر خصباً من تربة البلاد ذات المناخ الرطب ، لان هذه الاخيرة تفقد قسماً كبيراً من أملاحها المخصصة بسبب كثرة الامطار ، بينما تحتفظ تربة المناخ الجاف باملاحها فاذا ما سقيت اصطناعياً ، اعطت مردوداً رائعاً . وقد حسب العلماء ان الري الاصطناعي ضاعف تقريباً مساحة الارض المزروعة في العالم وأهم البلاد التي تستعمل الري الاصطناعي هي بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط ثم بلاد ما بين النهرين وتركستان والبنجاب ، كذلك استراليا وافريقية الشمالية والجنوبية . والسهول الغربية في الولايات المتحدة وكاليفورنيا والارجنتين والشيلي ، الى جانب محاصيل القمح والارز والذرة التي انتشرت في هذه البلاد بواسطة الري الاصطناعي ازدادت كميات الحضار والفواكه واقطن .

هـ - تأثير الانسان على البحر . - لم يعد البحر ، كما كان في الماضي ، عائقاً أو خطراً على الانسان ، فقد تغلب عليه أولاً بالملاحة وقد بلغ تقدم الحضارة من هذه الناحية حدّاً فيعاً يتم عنه حجم البواخر الضخم وسرعتها الكبيرة . والطرق البحرية الكبرى اليوم مطروقة كأ كبر الطرق البرية وأهمها . وأوجد الانسان ممرات بحرية جديدة كترعة السويس وباناما وكيل وكورانت أما على الشواطئ ،

في بعض شواطئ هولندا ، كما أوقف تقدم الكشبان الرملية الشاطئية نحو الداخل وذلك بغرسها بأشجار الصنوبر تارة أو بقصب « الأويا Oyats » تارة أخرى (منطقة الفلاندر) . ثم شن الهجوم على البحر ليستعيد الأرض التي طغى الماء عليها كما هي الحال في زويدرزه ^(١) Zuyderzée .

٦ تأثير الانسان على النبات . - للانسان تأثير كبير على النباتات وبما أنه يستطيع تغيير تركيب التربة السطحية ونظام المياه لمنطقة من المناطق فلا يصعب عليه تغيير نباتاتها ولهذا نرى النباتات الخاصة بالتربة الحوارية تنبت في التربة السيليسية بعد مزج هذه الأخيرة بالكلس . كذلك غدت سهوب أمريكا الغربية الجرداء بواسطة الري الاصطناعي منطقة غابات وزراعة . هذا وتندثر بعض النباتات المضرة بفعل الانسان وإرادته ، ويذهب بعضها الآخر لسوء استئثارها .

كذلك ينقل الانسان بعض النباتات من موطنها أثناء هجرته وتنقلاته إلى مناطق أخرى . ويقدر علماء النبات ان أكثر من نصف النباتات المزروعة في العالم اليوم إنما هي في غير موطنها الاصيلي . ويطلق تعبير « الزراعة » على مختلف الطرق التي يعتمد عليها الانسان ليحصل على أحسن انواع النباتات واكثرها مردوداً وذلك بتأمين الشروط الطبيعية الاكثر ملاءمة لحياتها .

٧ - تأثير الانسان على الحيوان . - ما انفك الانسان منذ القديم يعتمد

(١) اكتسب الهولنديون من البحر بين عام ١٥٠٠ - ١٩٠٠ ما ينوف على ٢٠٠ كم^٢

من الاراضي .

في صيد الحيوانات حتى أن أنواعاً كثيرة منها اندثرت من بعض المناطق .
 فقد صيد عام ١٦٢٠م آخر ثور في اوروبا من النوع المسمى «اوروكس Aurochs»
 وهو ثور على كتفيه لبدة كثيفة . وتقص عدد الثيران الاميركية المسماة
 « بيزون Bisons » تقصاً مريعاً منذ القرن السابع عشر . كما أن الفيل أصبح
 نادر الوجود في افريقية . كذلك اوشك الحوت « البالينا » على الانقراض
 في البحار المتجمدة الشمالية . كذلك الامر في الحيوانات المفترسة والمضرة
 كالاسد والذئب والافعى التي هي في طريق الاضمحلال شأنها في ذلك
 شأن بعض الحشرات مثل البعوض والذباب والجراد التي يلاحقها الانسان من
 من غير هوادة . هذا بينما يزداد عدد الحيوانات الاهلية وتتسع مناطق انتشارها .

٨ - هل من حد لتأثير الانسان على الطبيعة ؟ .

يقول « رانزل » « إن الوسط ينظم مقدرات الشعوب بقسوة عمياء » ومعنى
 ذلك ان تأثير الانسان على وسطه تأثير محدود . فالترربة مثلاً يمكن تحسينها
 بما يضاف اليها من مواد غير ان تركيبها العام يبقى على ما هو عليه . كما ان
 المعادن في باطن الارض لا تخضع لتأثير الانسان في تركيبها وكمياتها .
 والعناصر الاساسية للمناخ تخضع لشروط ليس لنا عليها من قوة وبالتالي
 تخرج المياه والنباتات والحيوانات عن سلطة الانسان . واذا ما علمنا أن البشر
 عنى بتأهيل (٤٠٠) نوع من النباتات من اصل (١٥٠٠٠٠٠) نوع معروف حتى
 اليوم كما عنى بتربية (٢٠٠) نوع من الحيوانات فقط من اصل (٣) ملايين نوع
 ادركنا مدى تأثيره الضيق . وماذا نقول عن المصائب الكبرى التي تدمي

الانسانية كالزلازل والبراكين وانزلاق الجبال حيث يقف الانسان حيالها ضعيفاً مكتوف الايدي .

هذا وليس من وظائف الجغرافيا البشرية ان تبرهن ان الانسان خاضع للطبيعة او ان الطبيعة خاضعة لارادة الانسان ، وانما هي تكتفي بدراسة علاقات الجماعات البشرية بالوسط الجغرافي .

والحضارة انما هي استثمار جميع موارد الطبيعة ، حتى الخبث منها ، بذكاء ومهارة ، والطبيعة واحدة للانسان المتوحش والانسان المتمدن لكن هذا الاخير يستطيع ان يستثمر موارد لا يعرفها المتوحش بعد

نستنتج من كل ذلك ان الانسان مخلوق مرن يتلاءم مع كل البيئات ويستطيع بذكائه وعلمه واختراعه ان يعيش في جميع المناطق على سطح الارض .

لناخذ خريطة تمثل توزيع سكان العالم على سطح الارض ولننمّن النظر فيها

فاذى نرى ؟

ان اول ما يلفت النظر هو توزيع السكان بشكل غير متساو ووجود فروق كبيرة بين منطقة واخرى من حيث درجة الكثافة ، وذلك تبعاً للشروط الطبيعية التي تسود في هذه المناطق والتي لاتناسب حياة الانسان بدرجة واحدة ، ولكن الشيء المهم هو اننا نلاحظ أيضاً ان الانسان كأبن يعيش في كل بقاع الارض ويمتد موطنه من خط الاستواء حتى الاراضي القطبية . تعيش الجماعات البشرية في المناطق الاستوائية حيث تكون درجة الحرارة مرتفعة ودرجة الرطوبة النسبية عالية أيضاً لذلك يكون الهواء الساخن الرطب خافقاً ، ويصعب على الجسم ان يفقد الحرارة عن طريق التعرق ذلك لأن

الهواء مشبع بالرطوبة فعلا ولا يستطيع أن يمنص من الرطوبة أكثر مما فيه .
ولذا فإن ارتفاع درجة الحرارة يؤدي الى التعرق المستمر فيتسبب العرق من جميع
اطراف الجسم ويبلل الملابس ، واذا حدث ان انخفضت درجة الحرارة اثناء
ذلك فان الانسان يشعر بضيق كبير ، لان تحمل انخفاض الحرارة في الجو الجاف
اسهل بكثير من تحمله في الجو الرطب . وبالرغم من قسوة الشروط المناخية
وسيطرة الغابة وكثرة الأمراض في البقاع الاستوائية فان جماعات بشرية كثيرة
تعيش فيها وتكاثر .

وتعيش الجماعات البشرية أيضاً في المناطق القطبية التي يسودها المناخ البارد
وهي أقل أنواع المناخ ملاءمة لحياة الانسان فالحرارة تنخفض كثيراً في فصل
الشتاء ولكنها لا ترتفع كثيراً حتى في فصل الصيف وقد لوحظ أن درجة
الحرارة تهبط في بعض البقاع القطبية وخاصة في القطب الجنوبي الى -71° .
أضف إلى ذلك أن التربة تبقى متجلدة حتى أعماق ١٠٠ م أحياناً ولا يستطيع
حرارة الصيف الضعيفة أن تذيب منها الا الطبقات السطحية . وتهب في هذه
البقاع عواصف ثلجية شديدة Le Blizzard تبلغ سرعتها ٢٠٠ كم في الساعة،
ومع ذلك فان الانسان يتحمل هذه الشروط القاسية وتعيش فيها جماعات بشرية
محلية متلاممة كما يعيش فيها أفراد من المكتشفين .

وتسود البقاع الصحراوية شروط طبيعية قاسية . فالامطار قليلة والمياه بالنالي
نادرة أيضاً ويرافق الجفاف اشتداد الحرارة في الصحاري الحارة والبرد في
الصحاري الباردة ، وتكون البقاع الصحراوية عادة فقيرة بالمواد الغذائية ومع
ذلك فان جماعات بشرية تسكن فيها منذ القدم .

وتسكون الجبال بيئة خاصة تسود فيها شروط قاسية كالبرد والجفاف وانخفاض الضغط الجوي وتناقص كمية الاوكسجين في الهواء ومع ذلك فان جماعات بشرية سكنت منذ القديم ولا تزال تعيش في المرتفعات العالية . ومن الحضارات المشهورة التي قامت في جبال الأند مثلاً حضارة شعب الانكا . وهناك مدن كثيرة تقع على مرتفعات كبيرة مثل Lhasa و Shigatzé في التبت ويبلغ ارتفاع الاولى ١١٨٠٠ قدماً ويسكنها حوالي عشرين الفاً من السكان أما الثانية فتقع على ارتفاع ١٢٠٠٠ قدماً وبها ١٤٠٠٠ نسمة . وتقع كثير من مراكز التعدين في جبال الأند على ارتفاعات تفوق الارتفاعات المذكورة . فعمال منجم الكبريت في Aucanquilea في الشيلي يسكنون على ارتفاع ١٧٥٠٠ قدم بينما يوجد المنجم نفسه على ارتفاع ١٨٨٠٠ قدم . ويبدأ العمال عملهم اليومي بالصعود ١٣٠٠ قدم فوق الرمال المستورة بمسحوق الكبريت ويستطيع هؤلاء العمال أن يقوموا في المنجم بعمل يساوي مايقوم به الرجل العادي عند مستوى سطح البحر ، وبعد العمل اليومي الشاق يقضون امسياتهم في ممارسة رياضة كرة القدم على ارتفاع ١٧٠٠٠ قدم .

وأول سؤال يرد الى خاطرنا بعد رؤية الجماعات البشرية التي تعيش في بيئات مختلفة ذات شروط مناخية متباينة تماماً هو السؤال التالي :

كيف يتحمل نوع بشري واحد شروطاً طبيعية متباينة كل التباين كالشروط التي تسود المناطق الاستوائية والبقاع القطبية مثلاً .

والجواب على ذلك أن الانسان كأن مرهن يستطيع جسمه أن يقوم بعمليات فيزيولوجية معينة لتحمل شروط مختلفة كإفراز العرق عند اشتداد الحرارة

واسراع أو توقيف عملية الاستقلاب (métabolisme) تبعاً لدرجة الحرارة ،
عدا عن الغدد الصماء التي تلعب دوراً كبيراً في هذا الصدد .
أضف الى ذلك أن عقله يساعده على تكيف غذائه وملبسه ومسكنه
تبعاً للظروف التي تحيط به . فغذاء وملبس ومسكن الزنجي في البقاع الاستوائية
يختلف عن غذاء وملبس ومسكن سكان الصحاري الجافة كما يختلف عن مسكن
وملبس وغذاء سكان المناطق الباردة .

إن الانسان نوع من الكائنات الحية ويصف M. S. Anderson الانسان
في كتابه جغرافية الكائنات الحية geography of living things بقوله :
« الانسان مخلوق يستطيع أن يعيش في انواع مختلفة من الشروط الطبيعية
أكثر مما يستطيع أي مخلوق آخر ، ويعينه في ذلك عدم تخصص جسمه من
جهة وعقله الممتاز من جهة أخرى ، ذلك العقل الذي يحنل بطرق شتى ليجعل
من البيئة القاسية بيئة أخرى اصطناعية تسهل فيها الحياة الى حد كبير .
ولكي يقوم الدماغ بوظيفته خير قيام يجب أن تكون بيئته الداخلية ، الطبيعية
منها والكيماوية ، ثابتة مستقرة ، فاذا هدد هذا الاستقرار الداخلي ظروف
خارجية شديدة التطرف ، استعان الجسم عليها بمختلف انواع الاستجابات
الفيزيولوجية الوقائية أولاً ، فاذا ما استمرت تلك الظروف في تطرفها فان
الجسم يلائم نفسه معها عندئذ عن طريق تغييرات اكثر بقاء واستمراراً تحدث
في بقية الجسم بل وفي فيزيولوجيته .

إلا أن هذه المقدرة القيمة على التلاؤم تفقد بعض مرونتها اذا ظلت تعمل
زمناً طويلاً لذلك فان الناس الذين تلاءموا مع الحياة في ظروف معينة

لا يحسون بالسعادة في غيرها وعندما لا يتمكن الانسان من التلاؤم الفيزيولوجي مع مناخ ما فانه يخترع من الوسائل ما يمكنه من تحسين ظروف معيشته ، وما الملابس والمدافئ والمراوح الكهربائية ومكيفات الهواء والثلاجات الكهربائية وغير ذلك من المخترعات الا نتيجة لصراعه المتواصل ضد المتاعب التي يتعرض لها جسمه .

وهكذا فان الانسان ينشئ مناخاً مصغراً micro climate داخل مسكنه ، واذا ما اضطر الى الانتقال الى مكان جديد لا يوافق مناخه فانه يستطيع أن يتبع الوسائل التي يتبعها المواطنون الذين ولدوا وعاشوا في ذلك المناخ طيلة حياتهم وذلك يخفف عنه الشعور بالضيق .

* * *

الفصل الثالث

ظهور الانسان على سطح الارض

وبشرية ما قبل التاريخ

لا تقتصر دراسة البشرية في عصور ما قبل التاريخ على علم التاريخ فقط وإنما هي تتبع أيضاً علم الجغرافيا البشرية . وذلك لأن البشر لم يكن قط في دور من الادوار خاضعاً لشروط الوسط الطبيعي كما كان في حقبة ما قبل التاريخ حيث كان الصراع عنيفاً بينه وبين عناصر الطبيعة من جهة وبينه وبين نباتها وحيوانها من جهة ثانية . وقد استطاع الانسان القديم بفضل جهوده الجبارة أن يتطبع تدريجياً بمختلف الاوساط الطبيعية على وجه الارض وأن يتغلب على الحيوان والنبات واستفاد منها ومن وسطه الطبيعي في تأمين مقومات حياته المادية . ولنتساءل الآن في أي زمن من الأزمان الجيولوجية ظهر الانسان وعلى أية صورة ظهر ??

لقد ثبت أخيراً أن ذوات الثدي وذوات الفقرات ظهرت في الزمن الثالث؛ ولكن هل كان الانسان في عدادها؟ زعم بعض العلماء ذلك مستندين على بعض المكتشفات :

أولاً . — وجود بعض الاخايد والنقوش على عظام حيوانات من الزمن الثالث اكتشفت حديثاً . ويعتقد هؤلاء العلماء أن هذه الاخايد والنقوش إنما حفرت على عظام كانت بعد في حالة غضة طرية .

ثانياً . — اكتشاف عظام بشرية في طبقات من أراضي الزمن الثالث ووجود بعض الاحجار التي أصابها ، كما يظهر ، شيء من التسوية من قبل الانسان القديم لجعلها صالحة لبعض الاستعمالات . لكن هذه المكتشفات كانت واسطة جدل بين العلماء لما يفتنه بعد . والتفسير الذي أعطي لها من قبل بعضهم هو من قبيل الفرض أكثر مما هو من الدليل العلمي القاطع .

غير أن وجود الانسان في الزمن الرابع أصبح اليوم أمراً لا يقبل الشك وذلك بعد أن اكتشف في الاراضي الرباعية كثير من العظام البشرية ومن الادوات المصنوعة بيد الانسان .

هذا وقد سعى عدد من علماء الجولوجيا وعلماء المستحاثات وعلماء الفلك لتقدير عدد القرون التي مرت منذ بدء الزمن الرابع ، فأدى ذلك الى تقدير متفاوت إذ قدر بعضهم هذا الزمن بمائة وخمسين الف سنة كحد أدنى ؛ بينما لم يستطع بعضهم الآخر وضع رقم يحدد فيه بدء هذا الزمن .

أما الصورة التي ظهر عليها الانسان الاول فقد اختلف العلماء أيضاً في تقريرها وتعود مجمل الفرضيات التي تتعلق بأصل الانسان الى اثنتين :

الفرضية الأولى تقول بان الانسان ظهر على وجه الأرض على ما هو عليه الآن من الصفات التي تميزه عن بقية ذوات الثدي .

ويقول أصحاب الفرضية الثانية ان الانسان انحدر من شكل سابق وبعد

تطور بطيء اكتسب الصفات الخاصة به الآن
(نظرية التطور لدارون ولامارك) .



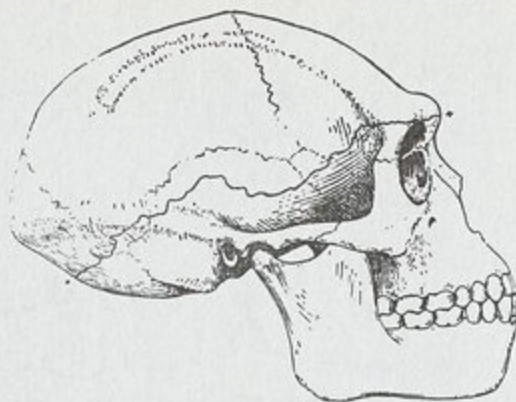
ويعتقد أصحاب نظرية التطور أن هناك بعض
أواصر القربى بين الانسان الأول البدائي وبين
بعض القرود التي لها هيئة الانسان لتشابه
التشكل في الجمجمة وتقارب الصفات بين بعض
أقسام الهيكل العظمى عند الطرفين . ويدعمون
نظريتهم ببعض المكتشفات التي وجدت في جزيرة
جاوا عام ١٨٩١ والتي تكاد تثبت وجود شكل
متوسط بين هذا النوع من القرود وبين الانسان ،
غير أن حلقة الاتصال المباشر بين هذين النوعين
البدائيين لم تثبت بعد . زد على ذلك أن
الباحثين من العلماء لم يستطيعوا حتى الآن أن يتفقوا
على تحديد عمر هذه البقايا من العظام ولكل واحد
منهم رأي ونظرية تخالف الآخر .

شكل (١) مقارنة بين مجموعة
من الفكوك السفلية لبعض
القرود وللانسان في مختلف
الادوار الجيولوجية .

(١) شامبانزي (٢) انسان
بيلدوان (٣) انسان هايدلبرغ
(٤) و (٥) انسان نياندرتال
(٦) انسان كرومانيون

رغم هذا كله فقد أدى البحث والتنقيب الى
العثور على عدة أشكال من الجمجم والهيكل
العظمية البشرية يظن أنها تدل على تطور الانسان
منذ وجد حتى الحال التي هو عليها اليوم ، ولا نعرف
في حدود معلوماتنا اليوم عن الانسان الأول إلا

شكل - ٢
 جمجمة بنزيرة للإنسان القرد
 Pithecanthrope ويظهر فيها
 امتداد الجمجمة المتطاولة إلى
 الخلف و بروز الفكين وتنظم
 الحاجب .



شكل - ٣

مقارنة بين الهيكل العظمي لإنسان « نياندرتال » وللإنسان العادي في العصر الحاضر

الشيء ايسير . وقد اكتشف أحد العلماء في « موير Mauer » في الغرب
من « هايدلبرغ » عام ١٩٠٧ عظام الفك الأسفل لمجموعة بشرية يظن



شكل (:) ثلاث نماذج من العروق البشرية التي اندثرت في العصور القديمة . النموذج
الاول العلوي يمثل انسان حاوا او الانسان . الفرد Pithecantrope والنموذج الثاني
الايسر يمثل انسان « نياندرتال » والنموذج الثالث انسان كرو - مانيون

أنها ترجع الى أوائل الزمن الرابع لما يرافقها من مستحاثات هذا الزمن .
غير أن عظام الحنك المفرطة في عرضها وانعدام الذقن يخيل للناظر كذلك
الى هذا الفك أنه فك قرد الا أن الاسنان العالقة به هي أسنان بشرية صرفه .
اكتشفت في « بروكن هيل » في روديزيا البريطانية عام ١٩٢١ جمجمة
بشرية تغلب عليها الصفات الحيوانية . كما اكتشفت عام ١٩٢٩ في مغارة
قرب مدينة « بكين » في الصين عشرة هياكل عظمية بشرية متحجرة ،
الفك الأسفل في كل منها يشابه الفك الأسفل للانسان القرد الذي اكتشف في
جاوا عام ١٨٩١ . ويعتبر العلماء هذه الهياكل العشر كأنها أقدم عظام بشرية
اكتشفت حتى اليوم .

هذا واذا عدنا الى تاريخ اكتشافات الجمجم والهياكل العظمية البشرية
القديمة وتصنيف العروق البشرية حسب هذه المكتشفات نجد أول اكتشاف
حدث عام ١٨٥٦ في مغارة تدعى « نياندرتال ^(١) » حيث وجدوا جمجمة بشرية
ذات صفات خاصة . ومنذ ذلك الحين حصلت عدة مكتشفات في بلجيكا
واسبانيا وفرنسا لجمجم بشرية لها نفس الصفات الاساسية ولذا اطلق على
عصور ما قبل التاريخ اسم عرق نياندرتال Néanderthal على الانسان الذي
تتوفر فيه الصفات الآتية : قامة قصيرة ومستقيمة تقريباً ، ورأس منحني قليلاً
الى الامام ، اما الجمجمة فمتطاولة مع جبين مائل ينتهي بعظم الحاجب وهو غليظ
وبارز ، كذلك الفم واسع وبارز الى الامام .

ويعتقد الاستاذ « بول Boule » ان لانسان نياندرتال بعض الصفات

(١) في وادي نهر الدوسيل Dussél أحد روافد نهر الرين .

الحيوانية وله عقلية بدائية ارفع من عقلية انسان « جاوا » لكنها احط من عقلية اي عرق بشري على سطح الارض في الزمن الحاضر . واعقب ذلك عام ١٩٠١ اكتشاف هيكلين عظميين لعرق بشري ارقى من عرق نياندرتال في غريمالدي Grimaldi قرب مدينة مانتون على الحدود الافرنسية الايطالية . اذ نجد القامة هنا اطول والجبين محدباً وعظم الحاجب اقل بروزاً وغلظة . كذلك اكتشف هيكل عظمي لعرق بشري آخر اكثر تطوراً من انسان غريمالدي يسمى باسم المغاره التي اكتشف فيها عام ١٨٦٨ « كرو - مانيون Cro-Magnon » في مقاطعة الدوردونيا في فرنسا . يمتاز هذا العرق بطول القامة وقوة الجسم . له جبين مرتفع ومحدب ، اما الفم وعظام الفك فلم تزل بارزة ك انسان نياندرتال . ولكن لا توجد فيه تلك الصفات الحيوانية الموجودة في انسان نياندرتال .

٣ - عصور حياة ما قبل التاريخ

لقد تطورت البشرية ببطء وتطبعت بشروط الوسط الطبيعي كما رأينا تطورها من حيث تركيبها الجسماني . ويمكن ان يميز في غضون هذا التطور عدة عصور تختلف عن بعضها بحسب اهلية انسان ما قبل التاريخ على استئثار موارد الطبيعة . ولكن يصعب تحديد هذه العصور بدقة ووضوح رغم مرور الشعوب البدائية بمراحل متشابهة وذلك تماثل حاجاتها ومواردها . لم يكن السير نحو الحضارة واحداً بين الشعوب اذ بينها من حفظه الطبيعية ذكاء فطرياً ومناخاً معتدلاً وارضاً طيبة فسار شوطاً بعيداً في معارج الحضارة بينما لا يزال بعضها يعيش حتى اليوم حياة بدائية . لهذا لا يمكن ان نتكلم عن العصر الحجري

او عن عصر النحاس فنحدده ونطلقه على جميع شعوب الارض . ففي العصر الذي انتشرت فيه الحضارة في بلاد الشرق وأخذت مصر في استعمال المعادن الثمينة والمفيدة كانت بلاد « الغول » أي فرنسا اليوم تعيش بعد حياة العصر الحجري . كذلك اليوم ، الى جانب مابلغته الشعوب الاوروبية والاميركية من الحضارة الرفيعة نجد شعوباً لم تزل تعيش حياة بدائية وحشية كأنها لم تزل في عصور ما قبل التاريخ . لذا فان تقسيم وتحديد عصور ما قبل التاريخ من قبل علماء الغرب كان بالنسبة لشعوب اور وبالفورية لا بالنسبة للبشرية بمجموعها . والاسس التي بنى عليها هؤلاء المؤرخون تقسيم عصور ما قبل التاريخ تستند أولاً على اختلاف مادة الادوات التي استعملتها الشعوب البدائية . ثانياً تستند على الترتيب الذي وجدت فيه هذه الادوات في طبقات الاراضي المتوضعة فوق بعضها . وقد احتفظ علماء الجغرافيا بنفس التقسيم الذي وضعه علماء التاريخ غير انهم وجهوا اهتمامهم بصورة خاصة الى طراز حياة هذه الشعوب البدائية والى شكل سكنها . اما هذه الاقسام فتلاثة :

١ - عصر الحجر المنحوت

٢ - عصر الحجر المصقول

٣ - عصر المعادن

عصر الحجر المنحوت - ويقسم الى ثلاثة ادوار . يمتاز الدور الاول من هذا العصر بمناخ حار رطب وغابات كثيفة وحيوانات ضخمة الجثة . وكان يعتمد الانسان في هذا الدور لتأمين غذائه ، على الصيد في الغابات وعلى قطف الثمار وعلى بعض النباتات . ويظن انه كان يتسلق الاشجار يعيش عليها او يسكن

في اكواخ مصنوعة من الاغصان ، وكانت ادواته بسيطة محدودة مصنوعة من الحجر اهمها حجر من الصوان حاد الرأس ذو قبضة يستعمل كسلاح له أهميته من حيث كتلته ووزنه اذا كان في يد قوية مفتولة العضلات .

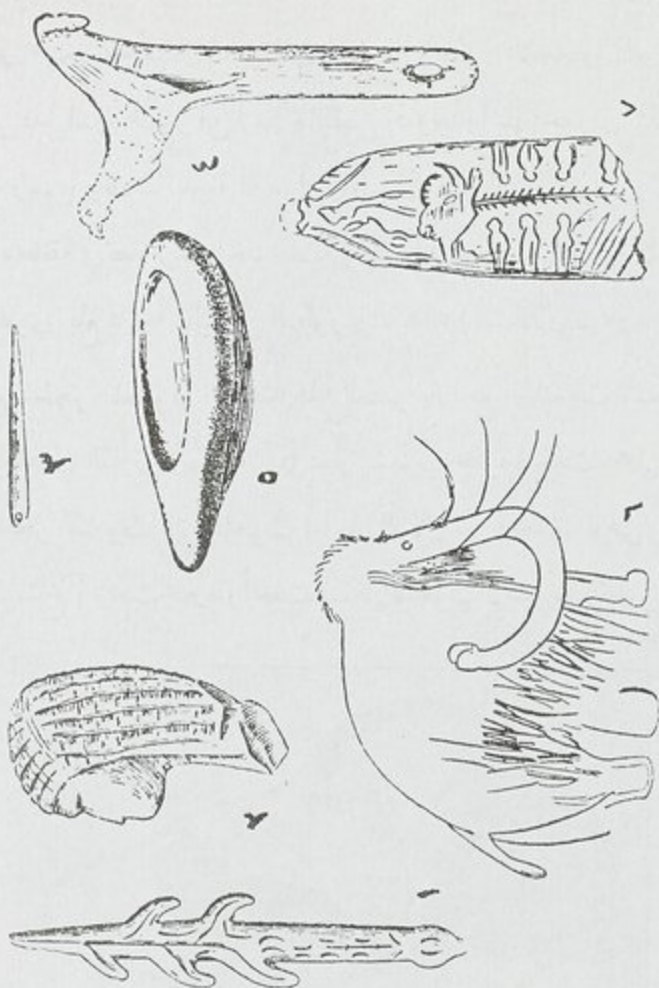


الشكل (هـ) ادوات العصر الحجري المتقدم

في الاعلى أدوات صوانية ذات شفرات حادة وهي عبارة عن حريات وقواطع .
في الاسفل أدوات عظمية وفيها الابرة والمخرز والحربة وصنارة صيد السمك .

اما الدور الثاني فكان المناخ فيه بارداً ورطباً تشكلت فيه الجليديات ؛
فهاجرت حيوانات الدور الاول المدارية واقرض القسم الاكبر منها وظهر
بدلاً عنها الماموت وبعض انواع من الثيران ، كما بقيت الغابات غير أن أجناس
أشجارها تغيرت . أما الانسان من عرق نياندرتال فقد انقلب من نباتي الى
لاحم يتغذى بالحيوانات التي يصطادها ويستعمل النار في تحضيرها وذلك استناداً
الى ما اكتشف في مدينة « موستيه » Moustier في فرنسا « دوردونيا » الى
جانب الهياكل العظمية من ادوات الصيد واثار المواقد . وكان انسان هذا الدور
يعيش متنقلاً يرئاد امكنة الصيد والقنص ويأوي بسبب البرد الشديد الى السفوح
المعرضة للشمس والى المغاور والكهوف . ويرتدي جلود الحيوانات . اما
أدواته فكانت اخف وزناً من ادوات انسان الدور الاول لكن شفراتها أحد
وأقطع . كما اخترع في هذا الدور الحربة الحجرية المثلثة الرأس .

بقي المناخ في الدور الثالث كما كان في الدور الثاني من حيث برودته الا انه
أصبح جافاً كمناخ القطب . فاندثرت الغابات وانقلبت الى سهوب ذات شجيرات
قصيرة وأعشاب ترعاها الوعول والماعز البري وانواع من الثيران . أما العرق
البشري في هذا الدور فهو الذي وجد في « كرو - مانيون » وهو عرق يشبه
الاسكيمو . وقد أضاف انسان هذا الدور الى الصيد البري الصيد البحري الذي
كان يزاوله بواسطة الرمح ذي الحربة المثلثة ؛ وبقي يقيم في المغاور والكهوف في
الفصل البارد ، وفي الأكواخ في الفصل الدافئ ، وكثرت أدواته في هذا الدور
وتنوعت موادها فكانت تصنع من حجر وعظم وعاج ومن قرون الحيوانات
واخترع السكين والخنجر والسهم والرمح والمنشار والابرة (الشكل - ٦) ،

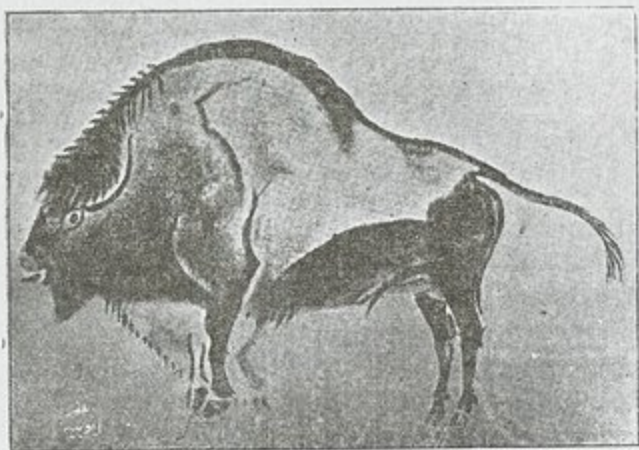


شكل (٦) فن ومهن في العصر الحجري المتأخر

(١) حربة لصيد السمك (٢) رأس امرأة منحوت من العاج (٣) ابرة من العظم (٤) آلة للقرظ تستعمل في الصيد مصنوعة من قرن الوعل (٥) سراج حجري وجد في فرنسا (٦) ماموت منقوش على جدار أحد الكهوف في فرنسا (٧) قطعة من عظم ينقش عليها الصياد عدد الحيوانات التي اصطادها وانواعها .

فخاط جلود الحيوانات وجعل لنفسه منها ثياباً ، كما اخترع أدوات الزينة من الأصداف البحرية وأسنان الحيوانات المفترسة وبعض الاحجار الملونة . ومن خصائص هذا الدور ظهور فن الرسم والنقش إذ وجدوا على جدران المغاور التي سكنت رسوماً ونقوشاً بديعة للوعول والخيول والثيران والماموت وكلها تدل على براعة فائقة في تصوير هذه الحيوانات وإظهارها في أوضاعها المختلفة كما تدل على حسٍ فطري بلغ درجة عالية من التطور والابداع (الشكلان - ٨٥٧) .

عصر الحجر المصقول . - يمتاز هذا العصر بتراجع الجليديات الكبرى في اوروبا وبجفاف القارة الآسيوية ، كما يمتاز بشعوب جديدة حلت محل شعوب عصر الحجر المنحوت التي هاجرت إما الى الشمال مع قطعان الوعل على أثر اختلاف المناخ أو نزحت مجبرة وأخلت المكان للشعوب الآسيوية الآتية من الشرق .



شكل (٧) من مخلفات الفن البشري في عصر الوعل
صورة الثور الوحشي كما رسمها الانسان في عصر الوعل على جدار احدى
المغائر في اسبانيا ، الصورة ممتدة الالوان (عن بول ويفتو)

وقد أدخلت هذه الشعوب الجديدة الى أوروبا طراز حياة جديدة فاستألفت الحيوان واستخدمته كالكلب والماعز والغنم والبقر والحصان كما بدأت زراعة الأرض بالقمح والشعير وغرس بعض الأشجار المثمرة ، ولكنها لم تترك قطف الأثمار البرية وصيد الحيوان والاسماك . ولا بد أن نذكر ما وصلت اليه هذه الشعوب من اتقان في فن تحضير الطعام إذ كانت تطحن القمح بالرحى وتستعمل الدقيق لصنع الخبز . ولما أقام الانسان على قطعة من الأرض واستقر عليها وتملكها تجمع للدفاع عن أرضه وتشكلت القرى مؤلفه من أكواخ متجمعة تارة على رأس أكمة صخرية وتارة في وسط بحيرة تنصل بالبر بواسطة جسر متحرك كما كانت الحال في السافوا وسويسرة .



شكل (٨) رؤوس وعول منقوشة على قطعة من العاج من عصر الوعل

أما أدوات انسان هذا العصر فكثيرة منها ما كان من الحجر المنحوت ومنها ما كان من الحجر المصقول بواسطة الحك والدلك بالرمل والماء . كذلك كان يعرف صناعة الأوعية الفخارية ونسج الكتان وصنع القوارب وشباك الصيد . هذا وقد دشن انسان هذا العصر الصناعة الكبرى في سبيل التصدير والتجارة .

وكانت له عبادات دينية يستدل عليها من تلك الأحجار الضخمة المغروسة في
أماكن كثيرة من أنحاء العالم القديم لا سيما في أوروبا الغربية .

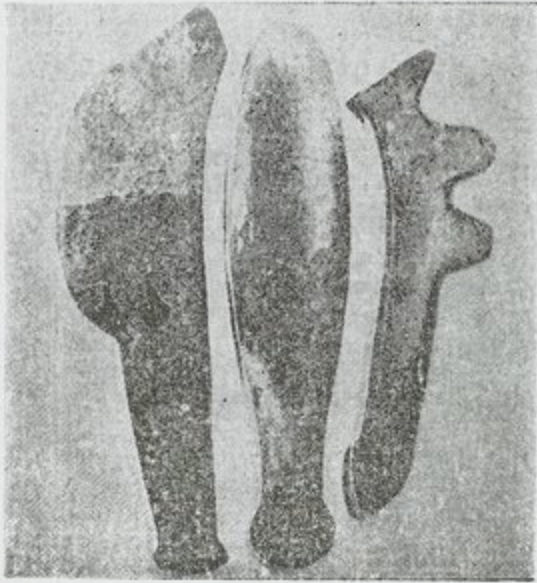
عصر المعادن . - ابتداءً هذا العصر الحضاري الأول في بلاد الشرق وأول
معدن استعمل هو النحاس وذلك لتساوته النسبية وسهولة ارجاعه . وإذا ما
سُخِّن وطرق صلح لصنع أدوات كثيرة كالقؤوس والخناجر والحلي . غير أن
هذه الأدوات النحاسية لم تبطل الأدوات الحجرية فجأة أو الأدوات المصنوعة
من العظام أو العاج وإنما ادخلت عليها تعديلاً ولم تبطلها الا شيئاً فشيئاً، ثم اكتشف



شكل (٩) قرية مؤلفة من عدد من الأكواخ بنيت على أخشاب في
وسط البحيرة إتماماً لخطر الزواحف والحوش والأعداء

إنسان هذا العصر أن خلط معدن النحاس مع معدن القصدير يعطيه معدناً
جديداً أسهل صنفاً وأكثر صلابة ، وهكذا انتشرت الأدوات المصنوعة من
« البرونز » وشاع استعمالها .

وأخيراً وصل معدن الحديد الى اوروبا من بلاد الشرق وكان يصنع في بلاد
حوض البحر الأبيض المتوسط عام ١٢٠٠ قبل ميلاد المسيح، ثم دخلت صناعته الى
ايطاليا فأوروبا الوسطي والغربية حيث كانت تصنع منه السيوف الطويلة والسهام
والخنجر والأدوات المنزلية .



شكل (١٠) فؤوس حجرية من الصوان مصقولة
بواسطة دلكها بالرمل والماء

وقد رافق انتشار صناعة المعادن تقدم الصناعات النسيجية والخزفية التي
زادت في رفاه الحياة البشرية . وفي هذه الاثناء ظهرت الكتابة في بلاد الشرق
وبظهورها انتهت حياة ما قبل التاريخ .



الشكل (١١) أحجار ضخمة
غرسها الانسان في الارض في
أماكن العبادة لاسيا في منطقة
«بروتانيا في فرنسا» .

الفصل الرابع

أنماط الحياة

يعمد الانسان لتأمين حياته المادية الى طرق مختلفة لاستثمار موارد الطبيعة وتختلف طرق هذا الاستثمار ويختلف عددها بالنسبة الى امكانيات الوسط الاجتماعي والطبيعي وبالنسبة الى مؤهلات الانسان الشخصية وعاداته . وقد أطلق العلماء اسم نمط المعيشة أو الحياة على شكل الحضارة الناتج من هذا التعاون بين الانسان والوسط الطبيعي . وهذا ما أشار اليه فيدال دولا بلاش عندما قال « استطاع الانسان ، بعد محاولات عديدة وتجارب كثيرة ومعرفة قديمة ورثها منذ مئات الاجيال وما زالت تتجدد وتتسع كل يوم بما يضاف اليها من اكتشافات ومخترعات ، وبفضل الأشياء والمواد المختلفة التي وجدها في الطبيعة المحيطة به ، أن يوجد لنفسه نظاماً يؤمن له حياته ، ويكون له وسطاً خاصاً » . وقد عمل علماء الاقتصاد على تصنيف مختلف الحضارات مقتصرين في ذلك على الشكل الذي يعمد اليه الانسان لتأمين غذائه بما يستطيع أن يحصل عليه من المواد الاولية الموجودة في الطبيعة . ففرقوا بذلك بين الشعوب التي تعيش من قطف الأثمار البرية وبين التي تعيش من ممارسة الصيد البري أو الصيد

البحري والنهري كذلك ميزوا بين الشعوب الرعاة والشعوب الزراعية والصناعية وقد احتفظ علماء الجغرافيا بهذا التصنيف مع التحفظات الآتية :

١ - ان لا يوجب هذا التصنيف تتابعاً تاريخياً حتمياً في تطور الحضارات . إذ ليس هنالك انتقال حتمي من مرحلة أولى الى مرحلة ثانية . وإنما حسب الظروف والمناطق قد يكون الصيد أو تربية المواشي أو الزراعة هي المرحلة الاولى من مراحل الحضارة . فتأهيل الحيوان وتربيته ليست ناشئة حتماً عن الصيد البري ، مرحلة سابقة لها ، إنما قد يوجد عند الشعوب البدائية الزراعية فاليابان مثلاً لم تمر بمرحلة الشعوب الرعاة ، والمهاجرون الفرنسيون الذين ذهبوا الى كندا في القرن السابع عشر عاشوا في بادئ الامر كصيادين متنقلين رغم أنهم كانوا في بلادهم الأصلية يعملون في الزراعة .

٢ - أن لا يجعل هذا التصنيف درجة الحضارة تابعة لنوع من انواع الحياة ومعنى ذلك أن الشعوب الزراعية المتأخرة قد لا تكون أرفع حضارة من الشعوب التي تزاوّل الصيد البري أو البحري . كما ليس من الضروري ان تكون الشعوب الرعاة أدنى حضارة من كل الشعوب الزراعية .

٣ - أن لا يكون لهذا التصنيف صفة مطلقة . إذ يمكن تقسيم كل شكل من أشكال الحضارات الى درجات . ومن السهل أن نميز بين الشعوب الزراعية المتأخرة كما هي الحال في أواسط افريقية وبين الشعوب التي تمارس الزراعة على شكل البستنة وتوليها الكثير من العناية كما في الصين واليابان وبين الشعوب الزراعية الراقية التي تستخدم في عملها الآلة والأسمدة الكيماوية والادوية المبيدة

للحشرات وتسلق كل الطرق الفنية لتحصل على أكبر مردود ممكن كما هي الحال في أمريكا وكندا وفي بعض الدول الأوروبية .

٤ - يعتبر علماء الجغرافيا أن نوع الحياة لشعب من الشعوب ليس فقط نتيجة ضرورية لشكل التغذية التي يتبعها هذا الشعب وإنما هو أيضا نتيجة العادة والذوق مما يدفعه لتفضيل نوع من الغذاء على نوع آخر. قبائل « البيكه » مثلاً تعيش من الصيد البري بينما قبائل « البانتو » تعيش من الزراعة وتربية المواشي وذلك رغم تجاورهم في المكان . ويعيشون منعزلين عن بعضهم بسبب التنافر بين أذواقهم وعاداتهم ومؤهلاتهم .

٥ - أن يضاف الى انماط المعيشة المعروفة نوع جديد ظهر في العالم الحديث هو نمط الحياة الصناعية .

ولنتعرض الآن أنماط الحياة المختلفة مع بيان ميزات كل منها :

أولاً - حياة الصيد البري والبحري وقطف الأثمار :

كان قطف الأثمار والتغذي بالنباتات أول شكل من أشكال التموين عند الشعوب البدائية . ونجد حتى اليوم عند الاقوام المتمدنة التي تعمل في الزراعة وتربية المواشي . ولكن من الصعب أن نجزم بوجود شعوب عاشت فقط من قطف الأثمار والتغذي بالنباتات البرية من غير أن يكون لديها وسائل لصيد الاسماك أو الحيوانات البرية . على اننا نجد حتى اليوم شعوباً بدائية تعيش فقط من موارد الصيد البري والبحري . ولندكر بين هذه الشعوب غير الاسكيمو وسكان استراليا الاصليين وأقزام الغابة العذراء ، التي مر ذكرها قبائل « البوشمان Boschimens » في أفريقية الجنوبية وزنوج جزر الهند

الشرقية . تجهل هذه القبائل ملكية الارض ولا يعتبرون إلا حق الصيد على قطعة الارض . يشتركون ويتعاونون في مواسم الصيد الكبرى ويقومون بطقوس من العبادات خاصة يعتقدون أنها تسهل لهم صيد الحيوان والفتك به . أما الشعوب التي تعيش من صيد الاسماك ، رغم قلتها بالنسبة للاولى ، فهي متعلقة بالارض التي تعيش عليها ، يستدل على ذلك من كثرة بقايا الأصداف وأوائل الطهي التي وجدت بالقرب من بعض الشواطئ والتي يعود تاريخها الى أزمنة ما قبل التاريخ . ولا نجد اليوم مثل هذه الشعوب إلا قرب الانهار الكبرى والبحيرات في افريقية الوسطى وفي بعض جزر المحيط الهادي . على اننا نجد على بعض أنهار الصين الكبرى قوى كاملة من القوارب تنتقل من مكان الى آخر حسب ضرورات الصيد .

يعتبر الصيد البري والبحري بالنسبة لهذه الأقوام البدائية أساس في التغذية بينما هو بالنسبة للأقوام المتقدمة غذاء متمم لوفرة الانواع المختلفة التي يمكن أن تقوم مقام الصيد .

وقد نجد بين الشعوب البدائية من يجمع بين الصيد البري والبحري مثل الاسكيمو وزنوج جزر « أندامان » وهنود كولومبيا البريطانية ، او يجمع بين حياة الصيد وحياة الرعي كقبائل الطوارق وعرب السودان في افريقية أو بين قطف الأثمار والصيد البحري كسكان الجزر الاوقيانوسية .

أما الصيد عند الأقوام المتطورة فيقتصر على أنواع الحيوانات البرية ويستعمل الانسان المتمدن في سبيل ذلك سلاحاً أشد فتكاً حتى ان بعض أصناف الحيوان أوشكت على الانقراض كالحيوانات ذات الفراء في غابات روسيا الأوروبية

والقبيلة الافريقية التي يقل عددها عاماً بعد عام حتى ان محصول العاج في منطقة
السكونغو في هبوط مستمر .

كذلك الأمر في صيد الحوت « البالينا » حتى ان الدول عقدت بينها اتفاقات
وسنت قوانين خاصة لهذا النوع من الصيد .

ثانياً - حياة الرعي

عرّف أحد علماء الجغرافيا حياة الرعي بقوله « هي نوع من الحياة قام على
الاستثمار الواسع للمراعي حيث تنتقل المواشي ، في فصول خاصة ، من منطقة
الى منطقة مستصحبة معها القبيلة بأسرها تارة وتارة وعاتها وحراسها فقط» .
أما تربية المواشي في الحظائر كما هي الحال في هولندا والدانيمرك فليست من
حياة الرعي في شيء . كما ان الاستثمار الواسع للمراعي لا يتطلب حتماً من السكان
أن يعيشوا حياة الرعي كما هي الحال في استراليا وأمريكا حيث أدخل الاستعمار
تربية المواشي كالبقر والاعنام وحيث يجهل السكان هذا التنقل الفصلي المنتظم
الذي هو من خصائص حياة الرعي . ويلاحظ هذا التنقل خاصة في بلاد العالم
القديم . فاذا اشتركت فيه القبيلة بأسرها سمي بالترحل Nomadisme أما اذا
كانت الرعاة فقط ترافق قطعان الماشية في تنقلها سمي بالتنقل Transhumance .
ويقوم الرحل في السهوب والبادي ينتقلون فيها طلباً للكلاء ، وهذا التنقل
فصلي سببه اختلاف المناخ بين أقسام المنطقة الواحدة المتباينة بارتفاعاتها وبعرضها
الجغرافي ، والأرض المخصصة لرعي المواشي تعتبر بعوف القبائل الرحل ملكاً لهم .
والغذاء الأساسي لهؤلاء الرحل هو اللبن واللحم يحصلون عليه من مواشيهم
التي تؤمن لهم أيضاً الموارد الأولية للمبسهم كالجلود والاقمشة المنسوجة من شعر

الماعز ومن وبر الاغنام والابل ولسكنهم كالحيام الصوفية وخيام الشعر .
ومن أشهر الشعوب الرحل في العالم القديم الكبير غيظ والسكالموك على
شواطئ بحر الخزر وبدو البلاد العربية في آسيا وافريقية . ولا يقنع الرحل دائماً
بنتاج انعامهم فيعمدون تارة الى زراعة بعض أنواع الحبوب السريعة النمو ، وتارة
الى مبادلة قسم من انتاجهم بمحاصيل المناطق المجاورة الزراعية في أسواق ممتشرة
على حدود مناطق الرعي .

أما التنقل فهو حركة سنوية منتظمة تحصل عادة بين منطقتين متممتين
لبعضهما من حيث الانتاج ، تفصل بينهما منطقة ثالثة تستثمر من نواحي اقتصادية
مختلفة . ولا يرافق المواشي في تنقلها الا الرعاة لتكون الحركة سريعة ولاجتنب
المنازعات مع أصحاب الأراضي التي ترعى فيها الماشية .

وبلاد حوض البحر الابيض المتوسط تصلح بصورة خاصة لهذا النوع من
التنقل لتباين المناخ الظاهر في فصل الصيف بين السهوب الداخلية الجافة المحرقة
وبين المناطق الجبلية الرطبة القريبة منها . هذا ولحياة الرعي أنواع كثيرة مختلفة
حسبما تكون تربية المواشي مرتبطة بمواسم الصيد البري أو الصيد البحري أو بالزراعة .
وبصورة عامة نلاحظ أن تقدم الحضارة يدفع اليوم الشعوب الرحل والمنتقلة
الى الاقامة والتحضر بمقدار ما تسمح به الموارد المحلية من استثمار حثيث .

ثالثاً الحياة الزراعية :

للحياة الزراعية أنواع مختلفة أيضاً ، إذ يوجد ، حتى اليوم ، أقوام تمارس
ضرباً من الزراعة البدائية الواسعة . وأهم صفات هذه الزراعة هي جهل التأمين
بها استخدام الحيوانات الأهلية وعدم معرفتهم استعمال السماد ، كما أن حراثة

الأرض عندهم تقتصر على تجريح سطح التربة بأدوات بسيطة للغاية . وذلك كما هي الحال عند زنوج افريقية الوسطى وقبائل « الازتيك » في المكسيك . فاذا ما هبط المردود في المنطقة المزروعة انتقلوا الى غيرها فحرقوا اشجارها أو اقتلعوها ثم أبادوا أعشابها وزرعوها ، وتدعى هذه المرحلة من الزراعة بمرحلة الزراعة المتنقلة .

أما النوع الثاني فهو الزراعة المقيمة . وهي تابعة لظهور الأسمدة والحراثة العميقة ولاتباع الدورة الزراعية والعمل المنظم ؛ كما هي الحال في بلاد الصين حيث آود البساتين الصغيرة المساحة ، وبستيعض المزارع الصيني عن سعة المساحة بوفرة استخدام الاسمدة البشرية التي تقوم مقام الاسمدة الحيوانية . كما يستعاض عن الآلات الزراعية الحديثة بمهارة عمله اليدوي .

النوع الثالث هو الزراعة الحديثة التي قامت أسسها على توفير الجهد الانساني بالاستعانة بالحيوان لو بالآلات الزراعية الحديثة . وباستعمال الأسمدة الحيوانية والكيميائية . ويظهر أن السبب الدافع لهذه الزراعة الحديثة هو غرس الاشجار المثمرة والري وهما سببان يجبران المزارع على الإقامة ، ويكون هذا النوع من الحضارة الزراعية مصحوباً دائماً بتربية المواشي .

رابعا - الحياة الصناعية :

الى مختلف أنواع الحياة التي رأيناها نستطيع أن نضيف الحياة الصناعية التي تركز على تحويل المحاصيل النباتية والحيوانية الى مواد مصنوعة ، ولم تكن الصناعة تعتبر ، حتى زمن قريب ، الا عنصراً من عناصر فعالية الانسان الفردية فقط . وقد أخذت تزداد أهميتها بتطورها وانتقالها من دور الصناعة البتية الى

دور الصناعة الصغرى ثم الى ما بلغته اليوم من الصناعة الكبرى .
ففي استخراج فلذات المعادن مثلاً نجد الفارق عظيماً جداً بين عمل الاقوام
البداية وعمل الشعوب المتقدمة من حيث كمية الفلزات المستخرجة ومن حيث
عددتها وأنواعها . ولكن رغم وجود الصناعة الكبرى لم تزل بعض الصناعات
البيئية قائمة حتى اليوم في بعض المناطق الزراعية ، واستعمال المحركات الكهربائية
من شأنه ان يمد في حياتها الى زمن بعيد .
غير أن الصناعة الكبرى بدأت تمتد وتتسع ونشاهد ألوفاً من المعامل تبنى
في بعض المناطق ، حتى أن الحياة الصناعية أخذت تحتل بين أنواع الحياة التي
تزداد تعقيداً في المدن الحديثة ، المكانة الأولى ، كما أخذت طرقها تنفذ الى
جميع الأعمال التي يقوم بها الانسان وهذا ما دفع علماء الجغرافيا على التكلم
عن حضارة جديدة هي الحضارة الصناعية

* * *

الفصل الخامس

الحياة البدائية

رغم انتشار الحضارة في القرن العشرين لم تزل بعض الشعوب المنعزلة البعيدة عن طرق المواصلات العالمية تعيش حياة بدائية أو ما يقرب منها . تسكن هذه الشعوب المسماة بالمتوحشة الغابات المدارية الكثيفة او المناطق الشديدة البرودة او الكثيرة الجفاف كالصحارى والسهوب الجافة او المناطق القطبية حيث تصعب الزراعة او لا تعطي في اغلب الاحيان الامردوداً ضئيلاً نافعاً ، او انها تسكن بعض الجزر البعيدة في وسط المحيطات الكبرى . هذا ولا يغرب عن بالنا ان لبعض الاقاليم خاصة نشر الفعالية البشرية وتنشيطها كما ان قساوة بعضها الآخر يتطلب مقاومة تذهب بهذه الفعالية باجمعها . كذلك في وسع بعض الديانات والعادات او بعض الأنظمة الاجتماعية ان تسبغ على الشعوب أحياناً جموداً فكرياً وتعصباً يعيق كل تطوريّاتي به الزمن . لهذه العوامل المختلفة تأثير متفاوت ولكنها تفسر توقف بعض الشعوب عن التقدم الحضاري كالأقوام البدائية الاسترالية وأقزام حوض الكونغو وقبائل الاسكيمو .

البحر الأول

قبائل الاسكيمو

تقطن قبائل الاسكيمو منطقة فسيحة واسعة الارحاء تمتد في امريكا الشمالية من مضيق بهرنك حتى شبه جزيرة لابرادور على مسافة يزيد عرضها على (٧٠٠٠) من الكيلو مترات وتمتد نحو القطب الشمالي وعلى الساحل الغربي من غروئنلاند حتى تتجاوز دائرة عرض ٧٨° شمالاً . رغم هذه المساحة الشاسعة لا يربو عدد نفوس الاسكيمو على أربعين الف نسمة .

لم يزل أصل الاسكيمو غير معروف ، غير ان بعض الفرضيات ترجع بهم الى اصل واحد مع بقية الشعوب القطبية الاوروبية التي هاجرت الى الشمال في أواخر العصر الجليدي في عصر الحجر المنحوت عندما بدأت الجليديات بالتراجع نحو القطب الشمالي .

وحسب التحريات الحديثة لاسيما التي قام بها الرحالة كنود راسموسن Knud Rasmussen بين عام ١٩٢١ و ١٩٢٤ يظن ان موطن الاسكيمو الاصلي هو المنطقة الكندية المحصورة بين بحيرة الدب الكبرى وبحيرة اتاباسكا . وان منطقة انتشارهم تمتد من الشمال الغربي من خليج « هودسن » حتى ارض « بافان » كما تمتد على شواطئ بحر بهرنك . ويعتقد « راسموسن » ان هناك شبةاً في التركيب العضوي بين الاسكيمو القاطنين في الاسكا والعنصر المغولي ، بينما هم أقرب الى العنصر الهندي الاميركي في المنطقة الواقعة بين مصب نهر

الما كنزي غرباً وشبه جزيرة لابرادور شرقاً . غير ان هذين الفرعين يؤلفان وحدة عنصرية حقيقية ، اذ نجد في كليهما القامة قصيرة تتراوح بين ١٦٥٨ م و ١٦٦٣ م والاطراف السفلية قصيرة والصدر واسعاً اما الجمجمة فمتطاولة والوجنات بارزة والعيون صغيرة ومائلة قليلا . كذلك نجد فيهم الفك نامياً قوياً والشفاه غليظة أما البشرة فصافية قليلة الاصفرار .

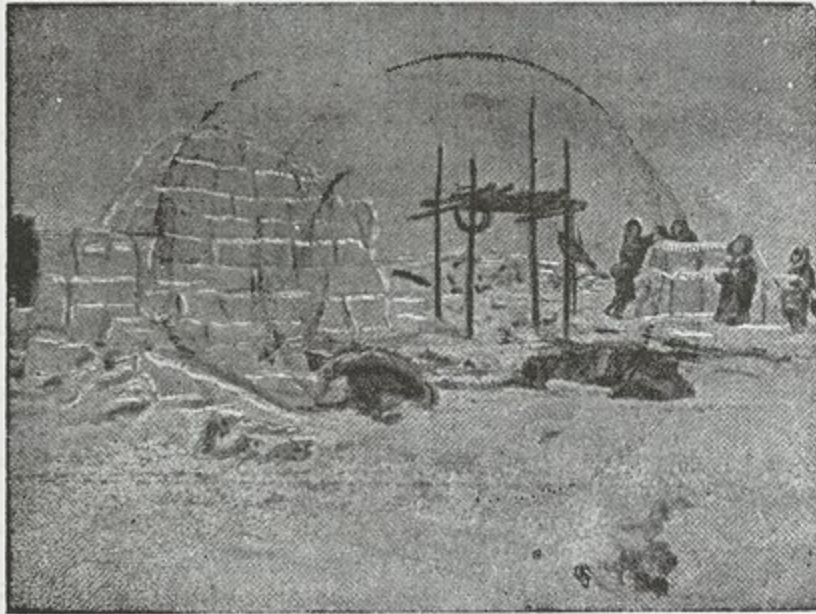
وقد تطبع هذا العنصر البشري بالوسط الطبيعي القطبي القاسي . فهو يستطيع ان يقتصر في غذائه على اللحم والشحم وان يصوم أياماً عديدة من غير طعام او انه يتناول في وجبة واحدة كمية كبيرة من الطعام ، كما انه يتحمل بصبر غريب البرد والتعب وقلة النوم .

وهكذا اقتضت جهود الاسكيمو بسبب قسوة المناخ القطبي على تأمين حاجاتهم الاولية الضرورية من غذاء ولباس من غير ان يتطلعوا الى شكل ارفع من اشكال الحضارة حتى قيل ان ذكاهم وقوة تفكيرهم وقدرتهم على الاختراع انصرفت بمجموعها لحل معضلة التغذية واللباس . وقد أبدوا حقيقة كثيراً من الذكاء والبراعة في التغلب على الشروط الطبيعية القاسية . واول هذه الشروط هو الوقاية من البرد الشديد بواسطة اللباس والمسكن . فلباسهم مصنوع غالباً من طبقتين من الفراء مغلقتين حتى لا يتخلل الهواء البارد بينهما . الطبقة الداخلية الملاصقة لبشرة الجسم مؤلفة من فراء لينة ناعمة بينما تترك الفراء الغليظة الخشنة الى الطبقة الخارجية . وتستخدم في صنع هذه الملابس جلود الفقمة والارانب والثعالب وجلود الذئاب والوعول والديبة . وذلك كما كان يفعل الانسان البدائي في أوائل الزمن الرابع . ويستعمل الاسكيمو نظارات

من الخشب او العظام لها في وسطها عوضاً عن الزجاج الشفاف الملون شقاً دقيقاً
اقبياً تقيه وهج الشمس على الثلج في فصل الصيف .

ويختلف شكل المسكن حسب الفصول. ففي الشتاء تسكن قبائل الاسكيمو
في الاسكا وغرويندلاندا في أكواخ مدفونة في الارض حتى وسطها بنيت
جدرانها من الحجر أو التورب أو من كتل من التراب متماسكة بجذور الحشائش؛
يدخل اليها بواسطة نفق تحت الارض ، وظيفة هذا النفق عزل الهواء
الخارجي البارد .

أما قبائل الاسكيمو في لابرادور وسواحل امريكا الشمالية فتبني لنفسها في



الشكل (١٢) الاسكيمو يبنون اكواخهم
المبناه « ايكلو Iglou » من قطع الثلج المتجمد

الشتاء ، بالقرب من الانهار والبحيرات ، اكواخاً من قطع الثلج المتجمدة تدعى « إيسكلو Iglous » . ويمكن لرجلين عادة بناء مثل هذا البيت الثلجي وتدفتنه وفرشه بأقل من ساعتين والبيت الثلجي على شكل قبة قطرها ثلاثة امتار على الاقل لها في اعلاها فتحة للهوية وفي جوانبها نوافذ مستديرة تنير داخل البيت ، يستعاض فيها عن الزجاج بطبقة رقيقة من جليد المياه العذبة او من جلد رقيق مطلي بالزيت . اما الباب فمبارة عن نفق يصل داخل البيت بمخارجة يغلّق بواسطة كتلة من الجليد أو لوح من الخشب . وتفرش ارض البيت بجلود الفوك والوعل . وتستخدم الأشنيات وشحم الفوك وزيت السمك



الشكل (١٣) منظر آخر للاسكيمو بينون اكواخهم الثلجية

في التدفئة والانهارة . ويخلع الاسكيمو ثيابه حينما يدخل البيت ويبقى فيه عارياً تقريباً لأن الحرارة في الداخل وإن كانت قريبة من الصفر تظهر مرتفعة جداً بالنسبة للحرارة الخارجية التي تتراوح بين - ٣٠° و - ٤٠° أحياناً . وينام الاسكيمو عارياً تماماً داخل كيس مصنوع من عدة طبقات لينة من جلد الوعل تحفظ في طياتها حرارة لطيفة.



وهو قدر لا يعرف لتواعد الصحة والنظافة أي معنى . ففي زاوية من البيت تنظف الاسماك والطرائد وفي زاوية ثانية يقضي كل فرد من أفراد الاسرة حاجته .



(الشكل - ١٤)

في الاعلى منظر خارجي « للايكو » على شكل قبة من الثلج المنجود . في الاسفل مقطعه الشاقولي وتظهر فيه المصاطب الثلجية المرتفعة

هذا في الشتاء أما في الصيف من شهر أيار حتى ايلول تسكن قبائل الاسكيمو في خيام شبيهة بخيام الهنود الاميركيين ، مصنوعة من طبقة من الجلد ، الطبقة الخارجية تتلقى زخات المطر القوية في هذا الفصل

والطبقة الداخلية تبقى جافة تماماً وبين هاتين الطبقتين طبقة عازلة من الهواء .

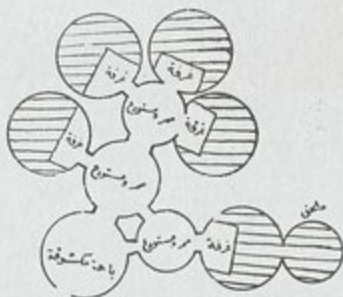
ومن خصائص المناخ في بلاد الاسكيمو أن السنة مشطورة الى شطرين حياة الشتاء وحياة الصيف . الاولى حياة إقامة وعزلة ، والثانية حياة تنقل وعمل

واسفار . ومن المعروف أن قبائل الاسكيمو تعيش من الصيد البري والبحري وتنقل الحيوانات البرية والبحرية والاسماك له عـ لاقته بالفصول . ففي الصيف تتفرق جماعات الفقمة متجهة داخل الخلجان العميقة « الفيوردات » فيصعب صيدها ، غير أن الاسماك تنكأ في الانهار الداخلية وتنتشر قطعان الوعول والابقار . فالصيف اذن هو فصل الصيد والقنص البري ، فصل صيد الاسماك لاسما صيد الحوت « بالينا » لهيئة مؤونة الشتاء .

أما في الشتاء فتأوي جماعات الفقمة الى مصبات الانهار والى البحيرات العذبة القريبة لتضع فيها صغارها ؛ ففي قرب هذه النقاط تقضي قبائل الاسكيمو فصل الشتاء .



(الشكل - ١٦)



(الشكل - ١٥)

الشكل (١٥) يمثل مجموعة من الاكواخ الناجية كل غرفة تخص أسرة بكاملها وبين الغرف ممرات ومساحات صغيرة تصل هذه الغرف ببعضها وتوضع بها المؤونة . تبنى هذه الاكواخ المتجمعة في الفصل البارد الذي يتد من كانون الثاني حتى نيسان وهو فصل الليل القطبي

الشكل (١٦) يمثل هذا الشكل مسكن الاسكيمو من شهر تشرين الثاني الى كانون الثاني وهو فصل الثلوج والعواصف

الصناعة . — للاسكيمو صناعة بدائية غير أنها على غاية من الدقة والبراعة. وهم يجولون حتى اليوم استعمال المعادن ويستخدمون الحجر أو العظام والعاج أو قرون الوعل لصنع أسلحتهم وأدوات صيدهم وزحافاتهم وقواربهم التي منها الكاياك Kayak وهو قارب لشخص واحد والامياك Umiak وهو قارب كبير يستوعب أسرة بكاملها . كلاهما مصنوع من جلد مشدود على هيكل من عظام الحوت « البالينا » . وأدواتهم الحجرية تشابه كل الشبه أدوات انسان ما قبل التاريخ في عصر الحجر المنحوت .



الشكل - ١٧

اسكيمو وابنته على كاياك في مياه خليج « هدسون »

ولم يتمكن ذكازهم الفطري أن ينمو ضمن شروط هذا الوسط الطبيعي القاسي وتحت تأثير هذا النمط من الحياة التي يعيشونها ، لذلك يستطيع الفرد منهم أن يعدّ حتى العشرين فقط مستعيناً بأصابع يديه وقدميه ، أما إذا تجاوز الرقم

العشرين فلا يستطيع ادراكه . ولا يعرفون الا شهر وأما يقسمون السنة الى فترات يستدلون عليها من وضع الشمس وعودة الطيور ويروض انواعها المختلفة. الحياة الاجتماعية . — أن توزع قبائل الاسكيمو في الصحارى القطبية الواسعة والنضال الدائم في سبيل الحياة ليس من شأنها إيجاد نظام اجتماعي متين. ولذا ليس للقبيلة من رئيس يقودها ، ونظام الاسرة هو السائد في فصل الصيف أما في فصل الشتاء فتتجمع بيوت الثلج وتضم أحياناً أسراً عديدة ينوف عدد أفرادها على الأربعين نفساً برأس الجماعة أكبر الرجال سنّاً أو والد أكثرهم مهارة في الصيد .

وهكذا يحل نظام العشيرة محل نظام الاسرة في فصل الشتاء . وترتبط الحياة الدينية نفسها بنظام الفصول . إذ ينما تقتصر في الصيف على الطقوس التي ترافق الولادة أو الموت ، نجدتها تتناول في فصل الشتاء جميع نواحي الحياة . واختلاف نمط الحياة بين الصيف والشتاء أدى الى اختلاف في مفاهيم الحياة وأمورها حسب هذين الفصلين فنظام التملك مثلا الذي هو نظام فردي في فصل الصيف يصبح مشاعاً في فصل الشتاء بين جميع أفراد العشيرة .

البحث الثاني

القبائل الأسترالية القديمة

يمتاز السكان الاصليون لآستراليا بصفات قريبة من صفات الانسان القديم وربما كان السبب في ذلك عزلة القارة الأسترالية وبمدها عن المؤثرات البشرية

الخارجية ، وحسب الاحصاء الذي جرى في استراليا عام ١٩٢١ و عام ١٩٢٦
بلغ عدد هؤلاء السكان الاصليين « ٦٠١٠٠٠٠ » نسمة تقريباً موزعين في منطقة
تربو مساحتها على $\frac{1}{3}$ مساحة أوروبا .

وقد اختلف في أصل سكان استراليا ، إذ ينما يرجعهم بعض العلماء الى
البشرية القديمة ، يقول بعضهم الآخر مستنداً في قوله الى أنظمتهم الاجتماعية
المعقدة ، أنهم ينحدرون من شعب قديم نصف متمدن ، أبعده الى منطقة فقيرة
لامورد فيها واجبر على التفكير قبل كل شيء في كيفية حفظ بقائه ثم انحط
وضعف بتأثير الجوع والعطش .

وليس لهم طابع خاص بهم وذلك بسبب شروط المعيشة القاسية وبسبب
اختلاطهم ببعض الشعوب الآسيوية كقبائل « البابو Papous » وسكان
« ماليزيا » وجزر الهند الشرقية . ويعتقد أنهم يمتون بصلة القرابي الى سكان
جزيرة « سيلان » والى بعض القبائل في الهند والهند الصينية وجزر المحيط الهادي .
ويظن بعض العلماء أن للكثيرين منهم نفس صفات العنصر البشري فيما قبل
التاريخ المسمى « نياندرتال » . وذلك لأن لهم بوجه الاجمال قامة دون الوسط
رغم أن أطرافهم السفلية طويلة وهزيلة . أما بطونهم فضخمة بارزة والجمجمة
صغيرة ومتطاولة الى الخلف مع جبين مائل . عيونهم الصغيرة ذات نظرات ثاقبة
تكاد تختفي تحت عظم الحاجب الغليظ البارز . أما الانف فافطس عريض
والفكان كبيران وبارزان الى الامام ومجهزان بأنياب طويلة كأنياب الحيوانات
اللاحمة . وأجسامهم ذات بشرة سمرء قاممة كلون « الشوكولاته » مستورة
بطبقة كثيفة من الشعر الاسود الفاحم .

يخضع هؤلاء السكان ، كقبائل الاسكيمو ، خضوعاً تاماً للوسط الطبيعي .
 ففي المناطق الحارة يعيشون عراة الاجسام بينما يضعون في المناطق المعتدلة ،
 على أوساطهم ستائر من جلود الحيوانات تنزل الى مافوق الركبة .
 ويضطر الاسترالي ، بسبب فقر المناطق ، أن يقضي حياته متنقلاً ولهذا قلما



الشكل (١٨) استرالي متوحش
 من قبائل الادغال الداخلية

يأوي الى مسكن ثابت وانما ينام على أغصان الاشجار أو يفتش الارض
 ويلتحف بأوراق النباتات اليابسة كما تفعل بعض الحيوانات، واذا اضطر للاقامة
 طويلاً يبي لنفسه كوخاً بسيطاً من أغصان الاشجار . وان هطل المطر آوى الى
 هذا الكوخ وبقي فيه ، ان أوجب الامر ، عدة أيام من غير طعام ولا شراب
 حتى لا يبتل جسمه بماء المطر .

ويقتصر تفكير هؤلاء الاستراليين المتوحشين بالفطرة ، كالوحوش تماماً ، على تأمين الطعام والشراب وحراسة أنفسهم من شر الاعداء . والحصول على قوتهم اليومي معضلة محزنة وكثيراً ما يتألمون ويتضورون من الجوع ؛ فيعمدون عندئذ الى أكل جيف الحيوانات وإن لم يجدها ذبحوا أطفالهم ونساءهم وتغذوا بهم . ولا يدخرون عادة مؤونة وليس لهم زراعة وإنما يعيشون من قطف الأثمار ومن الصيد . ووظيفة النساء عندهم التفتيش عن بيوض الطيور والنمل وجمع الديدان والجراد والحزون وبعض جذور النباتات والاثمار البرية . اما الرجال فيعملون في المناطق الساحلية على صيد الاسماك بواسطة الشباك أو بواسطة الرماح ذات الحربة الحجرية المثلثة . وفي المناطق الداخلية يقتنصون الاطعمي والحيوانات الكبيرة كالكنفر .

ويبدي الاسترالي في صيد الكنفر ضرباً من الحيل عجيبة ، تارة يزحف على بطنه وجسمه مستور بالحشائش والاعصان حتى يقترب من فريسته ، وتارة يلبس جلد الحيوان نفسه ويقلده في قفزاته حتى يقترب منه ويقتله . ويتغذون باللحوم بعد شوائبها ، وللحصول على النار يعمدون الى طرق بدائية صرفة . يحضر أحدهم قطعة خشب مبسطة يركز فوقها عصا من الخشب القاسي يفتلها بين يديه بسرعة فائقة فيحدث الاحتكاك حرارة توقد بالاستمرار نترات الخشب الدقيقة الناتجة عن الحك ثم تمتد النار الى أوراق الأشجار اليابسة على جوانب نقطة الاحتكاك فتشتعل .

الصناعة . - لم يزل الاستراليون الاصليون يعيشون في العصر الحجري إذ أن القسم الاكبر من أدواتهم وأسلحتهم مصنوع من الحجر المنحوت وأحياناً

من الحجر المصقول . والى جانب الحجر يستعملون العظام لصنع حربات الرماح والسكاكين . كما يصنعون من الخشب السيوف والتروس والرماح . وليس بينهم من يعرف استعمال القوس الا القبائل التي نالت قسطاً من التطور والقاطنة في المنطقة الشمالية الشرقية من القارة .

الحياة الاجتماعية . - حياة الاستراليين الاجتماعية أ كثر تمقيداً من حياة الاسكيمو . فالملكية الشخصية مثلاً معترف بها ولكل فرد منهم الحق في تملك ما يصطاد حتى أنه يملك أحياناً الارض التي يصطاد عليها . وتقسم القبيلة الاسترالية الى « جماعات طوطمية » لكل جماعة رمز أو طوطم خاص بها . ويكون الطوطم عادة حيواناً أو نباتاً يسمى باسمه جميع أفراد الجماعة حتى أنهم ليعتبرون أنفسهم من نسله وذريته . ويخلق الانتساب الى طوطم واحد علاقة نسب وقرى بين الافراد ينجم عنها واجبات عديدة كالتعاون والاخذ بالثأر والحداد الخ .. ويحرم الزواج بين رجل وامرأة من طوطم واحد، ويرث الطفل عادة طوطم أمه .

ويعتبر بعض الفلاسفة « كدور كهايم » مثلاً أن الطوطمية شكل بدائي للحياة الدينية . وتقتصر هذه الحياة الدينية على اعتقادات بسيطة غامضة . وهم يمتقدون بالسحر وتأثير الأرواح يصلون لها لترسل اليهم الغيث ويقدمون اليها الهبات والضحايا ابتغاء زيادة نوع من الحيوان الضروري لحياة السكان كالكنغر أو السمك أو أحد أنواع الطيور . والاعتقاد السائد هو أن الروح تفارق الجسد وقت النوم وتعود اليه وقت اليقظة ومن عادة قبائل وسط استراليا ختان الاطفال ويكون هذا اليوم يوم عيد مصحوب بتراتيل ورقص ديني .

والقبائل الأسترالية كثيرة العدد غير أن عدد أفرادها قليل ، ول بعضها
رئيس يقودها ويسوسها وبعضها الآخر مجلس يدير أمورها . أما النساء فليس
لهن نصيب في الحياة الدينية . والمرأة في هذا المجتمع أمة وظيفتها حمل الامتعة
وقت الاسفار .

والاستراليون محدودو الذكاء لا يستطيعون أن يعدوا لأكثر من خمس .



الشكل - ١٩

رأس امرأة من القبائل الأسترالية القديمة

نقوشهم ورسومهم بدائية غير أنهم أوجدوا طريقة للمرسلات بواسطة قطع من
الخشب أو عصي تنقش عليها بعض الرسوم . ويمتازون بمحنة الحواس إذ يكفونهم
أن يتشققوا كتلة من التراب حتى يفتقوا الاثر .
وحضارتهم جد متأخرة فهم يجهلون حتى اليوم صناعة الاوعية الفخارية
ويستعيضون عن هذه الاوعية بسلال من القصب او من قشور الاشجار يطلونها

بالغضار لتصبح كتيمة تحتفظ بالماء . وأدواتهم الموسيقية عبارة عن طبل مصنوع من جلد الكنغر و صفيحة من الخشب الرقيق الرنان يضربون عليها بالعصي فتخرج أصواتاً مختلفة الايقاع بحسب موقع الضربة من الصفيحة . واللغة عندهم متعددة اللهجات بسبب انعزال القبائل وبعدها عن بعضها . غير أن قواعد اللغة كثيرة التعقيد مما دفع بعض العلماء على الظن أن هذا العرق انحدر من حضارة قديمة كانت أرفع مما هي عليه (١) اليوم .

البحث الثالث

زئوج الغابة العذراء و قبائل البانتو

يعيش في منطقة نهر « الكونغو » الواسعة أقوام كثيرة مختلفة الاصل . غير أنها جميعها تنصف ببعض الصفات المشتركة واهم الصفات المشتركة لهذه الاقوام التي تعيش من الصيد البري أو البحري أو من الزراعة ورعي المواشي هي ضعف التفكير وعدم قدرتها على الاختراع . ولهذا نجدها تعيش اليوم كما كانت تعيش منذ آلاف السنين ، فالقرى تشابه في جميع الاصقاع وتتألف من عدد من الاكواخ مصنوعة من أغصان الأشجار أو من الطين المجفف ، لها شكل مستطيل أو مخروطي والحياة في جميع هذه القرى متشابهة في كنف طبيعة سمحة تجود بخيراتها من غير جهد أو تعب ، ولذا فالاعمال هينة بسيطة

(١) في لغتهم تمايز للدلالة على الثني كما أن فيها تمايز خاصة للدلالة على احترام

المخاطب وتمجيده .

تتألف من الصيد وقطف الأثمار ومن الرقص والكسل وبعض الاعمال الزراعية الصغيرة . هذا في الداخل أما على ضفاف الأنهار والبحيرات حيث يكثر صيد الأسماك نرى السكان في قواربهم الضيقة الطويلة « Pirogues » المصنوعة من جزوع الأشجار الضخمة، يتجولون بخفة ورشاقة مع مهارة في مهنة الصيد والتجديف . وتختلف هذه الاقوام من حيث تطورها الاجتماعي ومن حيث حضارتها . فأكثرها متأخرآ هم اقزام الغابة الاستوائية العذراء ، وأكثرها تقدماً وأحسنها تنظيمآ هي الاقوام الحامية أما أوفرها عدداً فهي قبائل « البانتو » التي تسود وتمتلك معظم المناطق الافريقية .

أ — أقزام الغابة العذراء

وأشهرهم قبائل « البيكمه Pygmées » ويظن أنهم من أقدم شعوب الارض ومن أول من هاجر من مناطق آسيا الجنوبية التي تعتبر مهد الانسانية الاول على أثر اقتحام أراضيهم من قبل عروق أسمي فساروا في اتجاهين متعاكسين . بعضهم اتجه نحو الشرق وسار حتى وصل الى جزر « الفيليبين » وجزر « اندمان » وشبه جزيرة « مالاكا » ، والبعض الآخر سار نحو الغرب وبعد ان اجتازوا البحر الاحمر انتشروا في جميع افريقية . ثم اقتحمت افريقية موجة ثانية من البشر ، مؤلفة من قبائل متعددة أهمها قبائل « البانتو » فالتجأت قبائل الاقزام تحت ضغط الاقوام المهاجرة ، الى قلب الغابة العذراء الاستوائية والى المناطق المستنقعية او الصعبة الوصول كالجبال العالية حيث لم تزل بقاياهم تعيش حتى اليوم حياة بدائية متوحشة .

وام الصفات الجسمية لهؤلاء الأقزام هي قصر القامة التي تتراوح دائماً بين (١٢٢٠ م و ١٢٥٠ م) وصغر الجمجمة ونحوب الجبين ، أما الشفاه فهي اقل غلظة من شفاه الزوج الكبار . واخيراً يتصفون بقصر الاطراف السفلية وطول الاطراف العلوية ويكسو الشعر الكثيف جميع الجسم والاطراف .



الشكل - ٢٠

افراد من « البيكمة » امام كوخ مصنوع من أغصان الاشجار
في غابة من غابات منطقة « الايتوزي » في الكونغو

يقنصر لباس هؤلاء الأقزام على حزام من اوراق النباتات مشدود الى وسطهم
وتتدلى اطرافه الى ما فوق الركبة . وللملم يكن لهم مكان اقامة ثابت فهم يسكنون

الاكواخ المصنوعة من الاغصان أو ينامون على جذوع الاشجار ، وهم يجولون
 الزراعة يتغذون من قطف الائمة البرية ومن الصيد البري وصيد السمك ،
 ولهم طريقة عجيبة في قطف الائمة اذ يعمدون الى الشجرة فيقطعونها



الشكل (١٨) رجلان من قبائل « البيكمه »
 من سكان الغابة العذراء ، يلاحظ فيها قصر الاطراف السفلية
 بالنسبة الى طول الجذع والاطراف العلوية

ليستولوا على جميع ثمارها من غير جهد وهذا ما سماه علماء الجغرافيا
« بالامتثال الوحشي » .

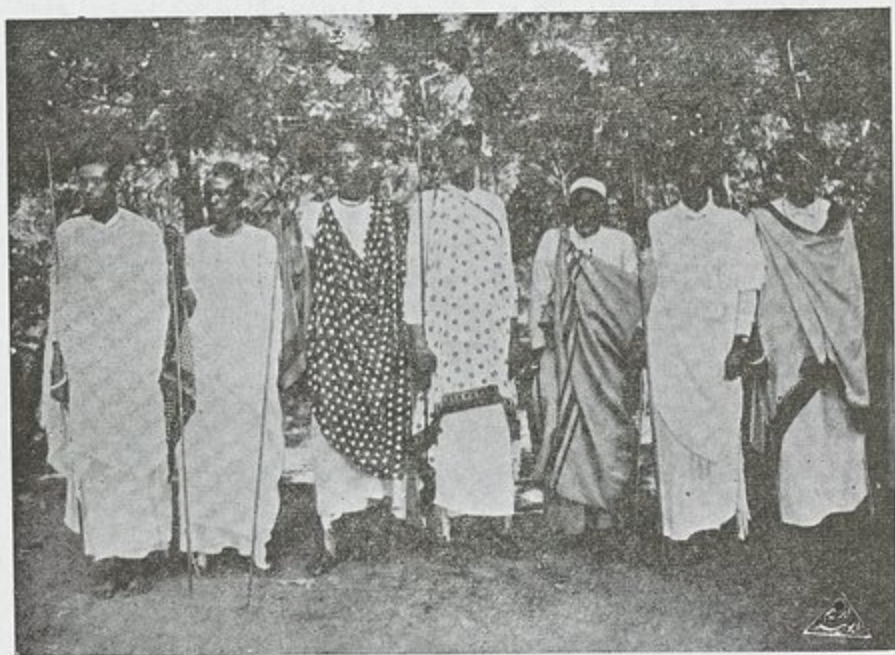
أما النساء فوظيقتهن التفتيش عن بعض الحشرات كاللزون والنمل وهي
من الاغذية العادية عندهم . وبقوا حتى زمن قريب يستعملون الفؤوس الحجرية
غير أن سلاحهم الاول هو القوس والنبال المسمومة . وهم يجهلون كيفية ايقاد
النار ، فان انطفأت نارهم انتظروا حدوث صاعقة تحرق بعض اشجار الغابة
فيوقدون النار من جديد . يتاجرون احياناً مع بعض القبائل القاطنة على اطراف
الغابة العذراء لاسيما قبائل « البانتو » وذلك بطريق المقايضة فاذا كان الصيد
وافراً جمعوا كمية من اللحم المقدد ووضعوه في مكان متفق عليه سابقاً ثم ذهبوا
وانتظروا في مكان قريب ، فيأتي رجال من « البانتو » ليأخذوا اللحم ويضعوا
بدلاً عنه كمية من الموز أو الاواني الفخارية أو الحربات الحديدية لاستعمالها في
الرماح أو السهام ، وبعد ذهابهم يأتي الاقزام فيأخذون هذه الامتعة والأدوات
ويعودون بها الى مقرهم ولم يزل قسم منهم من آكلي لحوم البشر .

نظامهم الاجتماعي بدائي بسيط ، يعيشون جماعات قليلة العدد تحت قيادة
رئيسهم الذي هو أمير صياد بينهم . أما لغتهم فقريبة من لغة « البانتو » الاولى.
واخطر الامراض المتفشية بينهم هو مرض « النوم » الذي تسببه الذبابة السامة
المسماة « تسي - تسي » والذي يذهب بعدد وافر منهم .

ب - الاقوام الخاصة

تقطن هذه الاقوام بكثرة في مقاطعات « رواندا Rouanda » و

« اورووندي Urundi » وهم قليلو العدد ، يظهر ان أصلهم من الحبشة واقدم القبائل التي هاجرت نحو الجنوب تدعى « اواهوما Ouahoma » ومعنى الكلمة « رجال الشمال » . يمتازون بطول القامة المفرط التي تبلغ عادة المترين . جلبوا معهم عادات وتقاليد جديدة كما أدخلوا تربية البقر ولم تكن معروفة في أفريقية الشرقية . ورغم تكلمهم لغة البانتو فقد احتفظوا بعبادتهم الخاصة ولم يختلطوا بهم ولا بأقزام الغابة العذراء . وكانوا يؤلفون طبقة حاكمة أرستقراطية يشتغلون برعي الماشية ، يستخدمون قبائل البانتو المجاورة لهم والتي تؤلف « الطبقة الشعبية » تلقاء حمايتهم لها .



شكل (١٩) رؤساء قبيلة « الواتوكي Ouatuki » وهي من القبائل الحامية القاطنة مقاطعة « رواندا »

ج - قبائل البانتو

هم أكثر عدداً من غيرهم من الاقوام القاطنة أفريقية الاستوائية وفي الجزء الاعظم من أفريقية الجنوبية، أقاموا في القديم على شواطئ أفريقية الشرقية وعلى نيجودها العالية، ثم زحفوا نحو الغرب في اتجاه جريان الانهار حتى وصلوا الى شواطئ المحيط الاطلسي، وهكذا تحتل قبائل «البانتو» اليوم أفريقية الاستوائية بمجموعها.

ويمتازون بقصر الاطراف السفلية، وبجبين مائل وشفاه غليظة وبيروز الفكين. شعرهم كثيف أجمع وبشرتهم سوداء فاحمة؛ تجمعهم بعض الصفات الخلقية رغم تعدد القبائل واختلاف المناطق، فهم بالاجمال متوسطو الذكاء والحس، قليلو الهمة تتغير طباعهم بسرعة عجيبة ولا يفهمون للنظام والتنظيم معنى. يعملون جميعهم في الزراعة وتربية المواشي والصيد البري وصيد الاسماك لكنهم يجهلون فائدة السماد في الزراعة. صانعون حاذق لاسيما في الحدادة، يصنع مختلف الاسلحة من رماح وأقواس ونبال ومدى، كما يصنع الادوات الزراعية البسيطة والفؤوس وأدوات الزينة للنساء كالتلائد والاساور والخللاخيل الخ.

الحياة الاجتماعية والدينية. - لم تزل الحياة الاجتماعية عند قبائل البانتو بدائية، والاسرة هي المجموعة المنظمة الوحيدة في هذا المجتمع. غير أن تنظيم الاسرة هذا هو تنظيم اقتصادي خالص. فالرجل يعمل على ادارة جميع شؤون الاسرة؛ يشتري ويبيع ويحكم كما يشاء على أفراد اسرته، أما النساء فهن ملك الرجل ومتاعه الخاص يتصرف بهن كما يشاء، يقمن بكل الاعمال الزراعية



الشكل (٢٠) قرية من قرى الباتو في منطقة الكونغو الاسفل

والصناعية وأعمال البيت . ويعتبر الولد عند بعض القبائل ملكا لايه وعند بعضها الآخر لاهه : والاسرة هي النواة الاساسية التي تتألف منها القرية ، غير أن حياة هذه القرية تتعلق بحياة رئيسها وسلطة الرئيس تأتي من قوته وذكائه ووفرة عدد اولاده ونسائه ؛ وهو مكلف بادارة شؤون قريته وحمايتها ، وهو القانون بحكم كما يريد ، وتعتبر أرض القرية وجميع سكانها ملكا له فاذا مات الرئيس أو فقد قوته ، لسبب ما ، ولم يكن هناك من يقوم مقامه انحلت القرية وتفرق افرادها والتحقوا بالقرى المجاورة :

أما المملكة المؤلفة من مجموع القرى تحت إمرة رئيس واحد فغير موجودة
وان وجدت فحالة استثنائية مؤقتة وسريعة الزوال .
أما الاعتقادات الدينية فتختلط بجميع نواحي الحياة الاجتماعية وتقدم
القرابين بكل مناسبة ويمتقدون بقدمية الطلامم والتأمم التي تدفع عنهم
الشر والاذى .

* * *

الفصل السادس

الحياة الرعوية

لم تعرف الحياة الرعوية إلا في صحارى وبوادي العالم القديم ؛ وعلى الرغم من أن شعوب أمريكا الجنوبية عرفت ، قبل اكتشاف كولومب لهذه القارة ، حيوانات عديدة فإنها مع ذلك لم تمارس حياة الرعي . ولم تعرف أمريكا رعاة حقيقيين إلا بعد أن اكتشفها الاسبان وأدخلوا إليها الضأن والحصان .

ولقد ظهرت الحياة الرعوية في العالم القديم في مناطق ذات نباتات طبيعية ملائمة لحيوان معين فمناطق السافانا المدارية تنبت فيها أعشاب عالية تصلح لرعي الابقار ، أما سهوب المناطق المعتدلة التي تنبت فيها الأعشاب القصيرة فتصلح لرعي الاغنام . ولا تصلح الغابات حياة الرعي لذلك لا نجد لها أثراً في أية غابة من الغابات سواء كانت في المنطقة الحارة أو المعتدلة أو الباردة باستثناء غابات التايغا الموجودة على أطراف التوندرا حيث يعيش رعاة الرنة الذين يلتجئون للغابة خلال فصل الشتاء فقط .

وتشترك مناطق الرعي كلها في صفة مناخية واحدة هامة هي سقوط الامطار خلال فصل معين ثم يسود الجفاف خلال الفصل الآخر الذي يمتد على القسم الأكبر

من العام ، لذلك تقل الينابيع وينكمش الغطاء النباتي ومن هنا كانت ضرورة تلائم الحياة الرعوية مع هذه البيئة الخاصة . وقد تم فعلا هذا التلائم بفضل



الشكل - (٢١) أحد السكان اللابون مع وعوله

حياة التنقل والترحال مع المواشي التي تربيها هذه الشعوب الرعاة ولذلك يعيشون في حركة دائمة بحثا عن الماء والكلاء .

هذا ويجب أن لا ننسى أبداً أن البداوة الرعوية ليست مرحلة حضارية يمر بها كل شعب بالضرورة أثناء تطوره وتحضيره . ويخطيء كذلك من يظن

أن الزراعة تمثل مرحلة حضارة أرقى من مرحلة الرعي . فلقد أثبتت الدراسات والأبحاث الأثرية أن الانسان مارس استئناس الحيوان وتربيته في نفس الوقت الذي اهتدى فيه إلى انتقاء نباتات معينة صالحة لممارسة الزراعة .

ان الحياة الرعوية المترحلة هي بدون شك ظاهرة بشرية اجتماعية . ولكنها ناجمة عن أوضاع جغرافية معينة ، لذلك لانستطيع أن نقول بأن حياة الرعي المتنقل من صفات أو من خصائص سلالة بشرية معينة أو شعب معين . فالى جانب البدو من العرب توجد شعوب وقبائل كثيرة تعتمد على الرعي والتنقل كالكبير غيظ والكالوك من شعوب الاتحاد السوفياتي

ان حياة الرعي المترحلة مرتبطة في كل مكان بالطبيعة بشكل واضح ، وقد جاءت هذه الحياة في الواقع متلائمة مع شروط البيئة الطبيعية ، فهي الشكل الوحيد الذي يمكن أن يقوم في البوادي - في درجة معينة من الحضارة - من بين كل اشكال المعيشة المختلفة . لقد تلائم هؤلاء الرعاة مع الوسط الجاف باسبط الطرق وبدون اي جهد ... انهم ينتقلون مع مواشيهم الى حيث تهطل الامطار ويتوفر الماء وينمو العشب . غير ان حياة هؤلاء الرعاة بائسة واقتصادهم فقير ومضطرب لا انتظام فيه لان الشروط الجوية هي التي تتحكم بحياتهم ، فاذا جادت عليهم السماء وهطلت الامطار نما العشب وعاشوا عيشة رضية وإلا ساءت أحوالهم وعاشوا حياة الفاقة والضيق وهلك قسم كبير من مواشيهم ، ومع ذلك فليست الزراعة أكثر ربحاً من الرعي بصورة دائمة وقد لوحظ بالفعل ان بعض الرعاة في شمال أفريقية ، أحسن حالاً من الزراع لأن الرعاة اختاروا حرفة أكثر ملاءمة للبيئة .

وفي جبال الألب والهالايا وفي كثير من المناطق الجبلية الأخرى لا يجد السكان مفرأ من ممارسة الرعي لأن التربة الزراعية لا تتشكل على المنحدرات الشديدة ، ولأن بناء المدرجات الضرورية لحفظ التربة من الانجراف يتطلب نفقات كبيرة . أضف الى ذلك أن تربية المواشي واستغلالها يعطيان دخلا اوفر مما يمكن أن تعطيه الزراعة في تلك المناطق الجبلية الفقيرة التربة . ويمكن تقسيم المجتمعات الرعوية حسب الحيوان الرئيسي الذي يسود قطعانهم ، وعلى هذا فهناك مربو الأبقار والاعنام والابل والخيل والرنه ... وسندرس من بينها مجتمعات معينة .

١ - رعاة البقر

الأبقار حيوانات كبيرة لا تكفي من أجل غذائها بالأعشاب القصيرة التي تنمو في السهوب التي ترعى فيها عادة قطعان الأغنام ، ولا تستطيع الأبقار أن تنمو وتتكاثر في المناطق الاستوائية ، رغم وفرة الغذاء فيها ، بسبب ذبابة تسه - تسه التي تقضي عليها . وعلى هذا فالأبقار تكثر عادة في المناطق المدارية وفي مراعي السافانا الموجودة على أطراف الغابة العذراء وخاصة في القارة الأفريقية . وعلى هذا فان الشعوب والقبائل التي تعيش في سهول السافانا تمارس مهنة رعي الأبقار ، غير أن الرعي لا يمثل دائماً فعاليتهم الوحيدة بل تكون مقرونة بزراعة بدائية في أغلب الأحيان .

لتربية الماشية ، أهمية اجتماعية كبرى الى جانب أهميتها الاقتصادية ، لذلك تختص بها الشعوب القوية مثل (الزولو والأكسوزا في جنوب افريقية)

ويترك هؤلاء الزراعة للجماعات المستضعفة التي تعمل خدماً وعبداً لديهم .
وتعتبر الحيوانات عند هذه الشعوب معيار الغنى والجاه لأن ملكية الأرض
لاشأن لها عندهم .

وتعتبر الأبقار بمثابة رأسمال حقيقي ، لذلك يرتبطون بها بعاطفة قوية تصل
الى حد التقديس أحياناً : فهم يرعونها بحنان وينتظرون ولادتها بشغف
ويسبب موتها لديهم حزناً بالغاً ، ويضعون الحيوانات المريضة في حظائر خاصة
ويعالجونها حتى تشفى أو تموت .

ومن الامور الغريبة عند معظم رعاة البقر في افريقية أنهم لا يطيقون أكل
لحما بالرغم من أنه لا توجد عندهم موانع دينية كما في الهند . وهناك شعوب
أخرى تأكل لحوم الأبقار ، فقبائل Gallas ، مثلاً في افريقية الشرقية لا يترددون
في تناول اللحم ، وينتقون المواشي المخصصة للذبح من مجموع القطيع ويعنون
بها عناية خاصة كعنايتهم بتلك المخصصة للملك أو رؤساء القبائل ، فيوفرون
لها المأوى وغذاء يومياً خاصاً ويعطونها قليلاً من الملح حتى تزداد شهيتها
ويتحسن لحما .

أما اللبن فهو الانتاج الرئيسي للابقار ويشكل الأساس الغذائي لكل
الشعوب التي تمارس الرعي ، لذا يضطر هؤلاء للحصول على كميات كافية من
اللبن الى تربية قطعان عديدة من البقر . ومن الطرف المعروفة أن الرجال
يقتصرون على تناول لبن البقر أما النساء فبماكنهن تناول لبن البقر والغنم
على حد سواء .

تعتبر الأبقار عند رعاتها بمثابة النقد ، فهم يستخدمونها للشراء ودفع الدية

أو المهر ، يحرصون كل الحرص على الاحتفاظ بأ أكبر عدد منها ، لذلك لا يتخلون عنها الا عند الضرورة القصوى ، وقد تغدو هذه الحيوانات عجفاء لاقيمة اقتصادية لها ومع ذلك لا تندبح بل تترك حتى تهرم وتموت .

ويتأثر نمط حياة رعاة الابقار بمهنتهم تأثراً واضحاً ، ويبدو ذلك الأثر خاصة في طراز مساكنهم وتنقلاتهم الفصلية . لسكل صاحب قطيع من الابقار مسكن يعرف باسم « كرال Kraal او Rougo وهو عبارة عن باحة واضحة مقسمة الى اجزاء عديدة يحيط بها سياج من النباتات الشوكية او اعمدة خشبية أو جدران مبنية من الاحجار وتخصص هذه الباحة لايواء الابقار ليلا بعد عودتها من المرعى وتتنظم حول الباحة أكواخ مستديرة مبنية من الاغصان على شكل قباب يخصص أكبرها لصاحب الماشية وتستخدم باقي الاكواخ لسكنى الخدم والرعاة أو لخزن المؤن . ويتناسب حسن بناء السكن وزينه مع غنى صاحب القطيع .

وتمتد حول « الكرال » أراضى الرعي ويمتلك أصحاب المواشي هذه المراعي التي تحيط « بالكرال » مباشرة ، أما المراعي البعيدة فليست مقسمة تنتقل اليها قطعان المالكين خلال فصل الجفاف تحت إشراف راعي مشترك وتقضي الحيوانات لياليها عندئذ في المراعي ، أما خلال الفصل الماطر وعندما ترجع الى حيث توجد المساكن فانها تأوي عادة الى « الكرال » كل مساء .

رغم هذه التنقلات الفصلية فان حياة رعاة البقر في افريقية ليست حياة رحل بكل معنى الكلمة ، فان المساكن ثابتة الى حد ما والابقار هي التي

تنتقل مع رعائها فقط ، وتفرض قبائل « الماساي » على شبانها مرافقة القطعان الى المراعي خلال فترة معينة من حياتهم فيعودن خلالها على التنقل والترحال والعيش بعيداً عن مساكن القبيلة. وبعد اداء هذه المهمة التي هي بمثابة الخدمة العسكرية عندهم يستطيع الشبان أن يقيموا في المساكن وينتقل واجب مرافقة القطعان لمن هم دونهم في السن .

يتعلق مدى التنقلات الفصلية بالظروف المناخية وبأحوال المراعي خلال الفصول المختلفة ولذلك فأشكال هذه التنقلات متنوعة جداً ، وتأخذ في الاماكن التي لا تهطل فيها الامطار بصورة منتظمة وكافية ، شكل التنقلات البدوية الحقيقية .

ويؤدي تنقل القطعان بحثاً عن المراعي الى التنافس وأحياناً كثيرة إلى النزاع بين أصحاب الابقار وخاصة خلال الفصل الجاف حين يفقد الكلاً ومن هنا جاءت ضرورة استعدادهم للحرب بصورة دائمة ، وان مجتمع الشعوب الرعوية قائم على نظام الطبقات يحتمل فيه المحاربون المدافعون عن القطعان أعلى الدرجات الاجتماعية والى جانب الرعاة المحاربين الذين يقودون القبيلة وقت الحرب ، يتمتع الشيوخ المسنون باحترام بالغ لان حرفة الراعي تعتمد قبل كل شيء على الخبرة المكتسبة خلال زمن طويل والتي تسمح بحسن معرفة وانتقاء المراعي المناسبة خلال فصول السنة .

٢ - رعاة الابل - الطوارق .

الطوارق قبائل بربرية تعيش في الصحراء الكبرى الافريقية ، وأفراد هذه

القبائل طوال القامة ، لهم بشرة صفراء ضاربة للحمرة وشعر ممشوج وعيون قاتمة . ويلبسون أردية قطنية فضفاضة ومصبوغة بالنيلة ، ويسترون وجوههم بلثام لا يتركونه حتى أثناء النوم وتصبغ النسوة أظافرهن بالحناء التي تنمو في الصحراء على شكل شجيرات .

ويعتمد الطوارق في حياتهم على تربية الابل بالدرجة الأولى ، وينتقلون في الصحراء الكبرى مع ابلهم السريعة السير Dromadaires . وتعيب هذه الجمال من الماء حوالي ٢٠ ليترأ دفعة واحدة وتأكل كميات كبيرة من الغذاء في العلفه الواحدة ، ولها مقابل ذلك صبر عظيم على العطش والجوع ؛ وخف الجمال الواسع يساعده على السير على رمال الصحراء .

والابل هي ثروة الطوارق الرئيسية . والجمال هو حيوان الحمل والجر ، ويتخذون من لبنه ولحمه غذاء ومن وبره ينسجون البرانس والخيام ومن جلده يصنعون النعال والأسرجه وقرب الماء ، ويستعملون روثه المجفف للوقود . ويمتلك الطوارق الى جانب قطعان الابل بعض الغنم والماعز .

ولما كانت هذه القبائل تعتمد على تربية الماشية في منطقة جافة وفقيرة فهي مضطرة للتنقل بحثاً عن الأماكن التي يتوافر فيها الماء والكلاء . ففي الشتاء تنزح القبائل جنوباً الى وديان منطقة الاحجار (Hohgar) في جنوب الصحراء حيث ترعى الجمال نباتات كثيرة على شكل شجيرات . ويصعدون صيفاً نحو الشمال حتى الواحات المزروعة .

وكان لهم مورد إضافي يأتي من السطو على القوافل العابرة للصحراء وكانوا يفرضون أتاوات على القوافل بحجة حمايتها . ولا يزال عرب الطوارق يسيطرون على

سكان الواحات يتعاون منهم اكثر منتوجاتهم من التمور والحبوب . وقد استخدمتهم السلطات الفرنسية الاستعمارية فجعلت منهم قوة مسلحة لحفظ الأمن في الصحراء .

وفي بادية الشام قبائل تعنى بالابل يطلق عليها اسم كبار البدو لأنهم يقطعون في رحلات الانتجاع مسافات تتراوح بين ٦٠٠ و ٧٠٠ كم . وكبار البدو هؤلاء لا يقصدون المعمورة الا نادراً وثروتهم الكبرى هي الابل وهي عندهم موضع فخر واعتزاز . وهم في قرارة نفوسهم يحتمرون رعاة الأغنام أي الشاوية ، ومع ذلك فبعضهم يملك قطعاناً كبيرة من الأغنام ، ومن أعظم العشائر الجمالة في سورية العنزة .

٣ - رعاة اليرغنام :

تمارس شير من القبائل العربية مثلاً في الشرق الأدنى والمغرب العربي رعي الأغنام أو الشاة لذلك يطلق عليهم أحياناً اسم الشوايا . وتكون رحلاتهم الانتجاعية محدودة المجال اذا ما قورنت برحلات كبار البدو أو رعاة الابل . إن رعاة الأغنام أو صغار البدو لا يعتمدون أكثر من ٣٠٠ - ٤٠٠ كم عن المعمورة ، ويبقى هؤلاء الرعاة على تماس دائم مع الحضر ، وكثيراً ما يوكل اليهم اهل الحضر رعي قطعانهم لقاء أجر معين متعارف عليه يشمل الصوف والسمن والخرفان . ويعيش هؤلاء البدو الصغار أو رعاة الأغنام في حركة مستمرة بحثاً عن الكلاء والماء ، وهذه التنقلات فصلية وشائمة في شمال افريقية بشكل خاص . ولكل قبيلة أرض معينة ترعى فيها أغنامها ، ويتم التنقل عادة بين الجبال

والسهول ، ففي فصل الصيف تنتقل القطعان نحو الجبال ثم تهبط إلى السهول
خلال الشتاء .



الشكل - (٢٢) قطيع من الاغنام مع الراعي في جبال اليونان

إن الأراضي التي تملكها القبيلة بصورة جماعية ليست واسعة حتى تستطيع
قطعان القبيلة أن نجد فيها مراعي كافية طيلة أيام السنة . إن رعاة السهوب
الموجودة على أطراف الصحراء ورعاة السهوب العليا كانوا ولا يزالون مضطرين
للبحث عن مراعي صيفية لأغنامهم، سواء في الجبال القريبة ، في الأطلس الأعلى
أو الأطلس الصحراوي أو الظهرة التونسية أو في منطقة التل ابتداء من شرقي

ثونس حتى المغرب . أما رعاة الجبال فيملكون المراعي الصيفية وعليهم أن يبحثوا عن مراعي شتوية في السهول المجاورة . ومهما كان تنوع هذه التنقلات فانها تتجاوز على أية حال حدود القبيلة ، لذلك يجب الاتفاق مع القبائل التي تسيطر على الأراضي والمراعي . ان الاتفاقيات متنوعة جداً بين هذه القبائل مما يسمح مثلاً لبعض القبائل بالتنقل والرعي مجاناً وبدون مقابل . ويلتزم هذه الاتفاقيات أحياناً أخرى تبادل في الخدمات أو تبادل في السماح بالرعي .

إن الرعاة الذين يقضون الصيف في منطقة « التل » يصلون اليها وقت الحصاد وبيع المحصولات فيساعدون المزارعين في عمليات الحصاد ونقل الغلال على جماهم وفي نفس الوقت تترك أغنامهم روثها المخصب في الأرض .

ويبادل الرعاة الأغنام والأصواف والسجاد والتمور الآتية من الجنوب بمحسوب ومصنوعات المزارعين القاطنين في الشمال، وفي كل الأحوال يستفيد أصحاب الأرض من روث الأغنام ومن الألبان إذا كان الرعاة هم وحدهم الذين يراقون القطعان .

وهناك مشكلة عامة يعاني منها رعاة الغنم في البلاد العربية خاصة ومنذ زمن ليس بالقصير هي توسع الزراعة الذي يتم في الواقع على حساب البدو وماشيتهم فالمراعي تضيق تدريجياً كلما تقدمت حدود المنطقة المزروعة وتم القضاء على البور ، إن هذه المشكلة شديدة الوطأة على البدو في شمال افريقية بصورة خاصة لأن المستعمرين امتولوا على المراعي القديمة والحديثة في الجهات الشمالية وأرغموا البدو على الحياة في البقاع الجافة المحدودة الموارد .

رعاة الخيل في التركستان :

المقصود برعاة الخيل في التركستان هم شعوب الكيرغيز والقالان الذين يعيشون في السهول والصحارى الممتدة بين بحر قزوين وبحر آرال وما جاورهما . تنتقل هذه الشعوب كغيرها من القبائل الرعوية الاخرى ، بحثاً عن الكلاء والماء او فراراً من البرد أو الحر . ففي الصيف يهربون من الحر اللافح في السهول الى الربى والسفوح حيث يجدون العشب ، وفي الشتاء تتجمد الأرض ويتجلد الماء في المرتفعات فينسحبون الى الوديان الدافئة .

والعمل في هذه البيئة القاسية موزع بين النساء والرجال من أفراد القبيلة ، فالفتيات يشتغلن بالغزل والنسيج داخل الخيمة والعجائز يطبخن اللحم ويحضرن الزبدة ، ويسرح الشباب مع قطعان الماشية وينصرف الشيوخ الى صنع الاواني والأدوات المنزلية ويصلحون سروج الخيل والاحذية . والحيوانات المألوفة عندهم هي الخيول بالدرجة الأولى وهم ماهرون جداً في امتطائها ، ثم الغنم والماعز .

ويعتقد الاستاذ Burkit أن هذه المنطقة من سهوب آسيا الوسطى هي اقدم مناطق الرعي في العالم ، وذلك منذ أن عرف الانسان استئناس الحيوان ، وفي رأيه أن هذه المنطقة هي احدى المناطق التي عرفت لأول مرة حياة الرعي والزراعة .

« ومشكلة الرعاة في هذه البيئة هي أيضاً الماء ^(١) - كما هي الحال في كل

(١) راجع كتاب « البيئة والمجتمع » للدكتور محمد سعيد غلاب .

اقليم جاف - وذلك في فصل الصيف ، أما في الربيع وأوائل الصيف فان السهوب ترصعها غدران متباعدة ، وقد تبقى بعض الغدران طول الفصل الجاف ، ولكن مياهها تزداد ملحوظة كلما توغلنا في فصل الصيف ، لذلك كان لابد من الرحيل بسرعة إلى مجاري الأنهار عندما يحل فصل الجفاف ، وتعرض المراعي أحياناً للفيضانات المرتفعة إذا كانت كمية الثلوج المتساقطة في الشتاء كبيرة ثم حل الدفء فجأة في فصل الربيع . يضطر الراعي في هذه البيئة الى دوام الحركة والارتحال معظم أيام السنة سعياً وراء المرعى والسكلاً من مكان لآخر ، فالحشائش لاتكفي القطعان الكبيرة في أية بقعة فترة طويلة من الزمن ولا بد من الظعن والارتحال . ولا يستقر الرعاة في أكواخ ثابتة الا في فصل الشتاء ومع تباشير الربيع تتسلل كل اسرة أو عشيرة إلى مرعى بعيد ، وكلما تقدم الصيف كلما ازدادت حركة التنقل من مكان لآخر ، ولكن هطول بعض الأمطار في أواخر الصيف وهبوط درجة الحرارة في شهري ايلول وتشيرين الأول يخفف من حمى الرحيل وتبدأ القبائل في لم شملها وتقام الموالد والأعياد العامة .

وأفراد شعوب الكيرغيز والقازان لا يملكون متاعاً كثيراً يعيق حركتهم السريعة ، فواحدهم لا يملك سوى خيمة خفيفة من الوبر (اليورت) من أجل الصيف وأثاثهم بسيط يسهل حمله . وتنحصر ثروتهم في قطعان الضأن والماشية والخيول ، والخيول عندهم أعلى قيمة وأعلى شأناً من غيرها من الحيوانات . وهم يتعلمون الفروسية منذ الصغر ، وكانهم يولدون على ظهور الخيل وطعامهم

الرئيسي هو الحليب يشربونه طازجاً أو يصنعون منه اللبن والزبدة ... الخ .
ويقتصر اغنياؤهم على شرب اللبن الحليص فقط وهو لبن الفرس ، أما عامتهم
فيشربون اللبن مخلوطاً بالماء ويقال أنه يخفف الظمأ . ولا يأكلون اللحم الا في
المواسم والمناسبات الاجتماعية .

ويتبادل الرعاة مع سكان الواحات المستقرين (سكان مدينة بخارى مثلا)
مالديهم من منتجات الماشية والمصنوعات الجلدية الثمينة والسجاد ويشترون
منهم الحبوب والأدوات والشاي والبن .

هذا ولم تعد المجتمعات الرعوية تعيش اليوم بمعزل عن المجتمعات الاخرى
المتقدمة في مضمار الحضارة ، وقد ادى احتكاكها بها الى تطور حياتها الرعوية
التقليدية ليس فقط من ناحية الأسلوب بل من حيث الغاية أيضاً . إن أحسن
مثل عن تطور المجتمعات الرعوية يمكن أن يؤخذ في آسيا الوسطى حيث تم
الاحتكاك بين القبائل الرعوية والنظم السوفياتية الجديدة . لقد دخل العلم الى
حرفة الرعي فبدأوا بتجهيز سلالات جديدة من الماشية والخيول والأغنام لها
ميزات اقتصادية خاصة وتم تربيتها باعداد كبيرة بغية تامين وسد حاجة
أسواق الاستهلاك الجديدة التي اقيمت هناك بسبب ظهور المراكز الصناعية
الجديدة .

إن راعي الأمس كان يحتفظ بحيواناته ويعنى بها من أجل تباها وتفاخر
وهمين ومن أجل الحصول على أود حياته .. أما راعي اليوم فانه يهدف الى
الربح التجاري قبل كل شيء آخر لذلك يدخل على مواشيه مامن شأنه
أن يزيد من قيمتها التجارية ومن أعدادها .

الفصل السابع

الحضارة الزراعية

الزراعة مجموعة اعمال يمارسها الانسان ليحصل على نباتات او فركمية وأجود نوعاً مما يجده في الطبيعة ، ويمكن ان نوجز مجموعة هذه الاعمال بناحيتين اساسيتين :

١ - انتخاب النبات المواد اكثاره دوت غيره ، فزراعة القمح مثلا تتطلب ان ينظف الحقل من النباتات والحشائش الغريبة ، ثم تبذر حبوب القمح وحده . ويجب ان يكون نوع النبات المنتخب موافقاً لطبيعة الارض ، فقربة المانيا الشمالية مثلا لا تصلح لزراعة القمح لكنها خير ارض لزراعة البطاطا لان هذه الزراعة تعطي مردودا كبيرا في الاراضي الرملية . ويسمى المزارع في البلاد المتقدمة لزراعة نوع واحد من النبات ثبت بالتجربة انه خير ما يزرع في هذه الارض ، فنحصل بذلك على ما يسمى بالزراعة الوحيدة Monoculture . ولا يمكن للزراعة الوحيدة ان تنجح الا في البلاد التجارية الراقية التي تستطيع تصدير الفائض من انتاجها الى الاسواق العالمية او تبادل به بما يعوزها من المواد الاولية . فسهول اللانغدوك في جنوب فرنسا لا تزرع فيها الا الكرمة كما ان حكومة سان باولو في البرازيل لا تزرع الا البن .

٢ - اتباع طرق خاصة لتحسين الانتاج وزيادة المردود . كأن يعتمد مثلاً الى الري في المناطق الجافة والى بناء الجدران (الجروف) في المناطق الجبلية ذات السفوح الشديدة الانحدار والى استعمال الاسمدة المتنوعة ليعيد الى الارض خصبها الذي استنفذته النباتات المزروعة ، واخيراً الى انتخاب اجود انواع البنود واستعمال الادوات الآلية .

والزراعة نوعان منها الزراعة الواسعة ، ويعتمدون فيها على سعة المساحة اكثر من اعتمادهم على المردود ، ومنها الزراعة الحثيثة والاعتماد هنا على ارتفاع المردود لاعلى المساحة .

بعد ان القينا نظرة عجيلى على ماهية الزراعة وانواعها الكبرى ، لندرس الآن ميزات الحضارة الزراعية ، وخير مثال لهذه الحضارة الصين لانها تعتبر بحق موطن المزارعين المقيمين الذين يمتنون نوعاً من الزراعة اشبه شيء بالبتنة ، غير ان نوع حياتهم هذا وصل الى درجة رفيعة من الكمال ثم توقف عند هذا الحد منذ الوف السنين حتى الثورة الاشتراكية الصينية . ويظن ان السبب في ذلك يعود الى الامطار الموسمية التي تروي الارض والمزروعات في فصل الصيف وتجلب الخير العميم ، فلم يعد المزارع الصيني بحاجة الى جهد وتفكير جديدين للتفتيش عن وسائل جديدة لتحسين زراعته ، ورغم التطور الحديث الذي بدأت طلائمه في الصين لم تزل هذه البلاد في طور الحضارة الزراعية التي لم تغيرها بعد الصناعة الحديثة .

وخلافاً لما يعتقد بعض المؤرخين ليست الحضارة الصينية القديمة في وادي النهر الاصفر Houang-Ho حضارة دخيلة اتى بها الغزاة الفاتحون . وأما

هي تطور موضعي للزراعة الصينية البدائية . وهي اقرب الى حضارة القسم الجنوبي الشرقي من آسيا منها الى حضارات آسيا الوسطى او الشمالية . وكانت تبدو مظاهر هذا التقارب في الناحية اللغوية والناحية الدينية المرتبطة بالزراعة وفي نوع الحياة الزراعية المقيمة واخيرا كانت تبدو واضحة في ناحية النظام السياسي الارستقراطي الذي قامت اسسه على الصفة الدينية المقدسة في امتلاك الارض . ومهد هذه هذه الحضارة هو السهل الكبير في القسم الشرقي من الصين في مقاطعتي هو - نان Ho-Nan وشان تونغ Chan-Tung ، حيث تتفرع اذرع النهر الاصفر المتعددة . ويعتبر هذا السهل من اخصب الارض الصينية لتلقيه الامطار الموسمية الصيفية ولتركيب تربته من اللوس ومن الطمي الذي يأتي به النهر الاصفر .

ويشتهر هذا السهل بزراعة الذرة البيضاء والارز والقمح ، وقد اصبح مركزاً للهجرة يؤمه سكان المناطق القريبة . وبما ان استعمار الارض واستثمارها محدودان نحو الشمال لوجود الصحراء فقد امتد استعمارها نحو الجنوب والجنوب الغربي ، وذلك منذ القرن الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد . وقد تم فتح الحوض المتوسط للنهر الاصفر ومدن مكانه في عصر الصين القديمة . اما تحضير القبائل في حوض النهر الازرق Yang-Tsé -Kiang وفي المقاطعات الجنوبية فيعود الى صين القرون الوسطى والقرون الحديثة .

الصفات الرئيسية للحضارة في الصين .

لم تختلف طرق الزراعة في الصين منذ العصور التاريخية حتى اليوم ،

ويستدل على ذلك من بعض الصور التي يرجع تاريخها الى (١٢١٠) سنوات قبل ميلاد المسيح ، ويرى في هذه الصور نفس المحراث المستعمل اليوم من قبل الفلاح الصيني يشده جاموس واحد ، كذلك ترى نفس الادوات الزراعية وادوات الري ، حتى ان الطرق التي يعمد اليها اليوم في زراعة الارز وشجر التوت وطرق الاعتناء بتربية دودة الحرير لم تزل جميعها على ما كانت منذ عشرات القرون . على ان كثيراً من الزراعات الهامة في الصين اتت من البلاد الاجنبية كزراعة القطن التي اتت من الهند وزراعة الارز التي اتت من الهند ومن الدول التي تتابع بين الهند والانام وقد انتشرت هذه الزراعات ببطء وازمنة متتابعة .

تمتاز الزراعة الصينية بعدم اعتناء المزارعين بتربية المواشي رغم صلاح اكثر المناطق للرعي ، وذلك لان الشعب الصيني اصبح شعباً زراعياً بخلاف الشعوب الرعاة المتنقلة المجاورة له ، كالو غول والتتر وسكان منشوريا على ان بعض المزارعين يملك عدداً ضئيلاً من الابقار في المناطق الشمالية ومن الجاموس في مناطق الوسط والجنوب ، غير ان استخدام هذه الحيوانات يقتصر على الجر فقط اما الحيوانات المخصصة للتغذية فهي الخنازير والدواجن .

كذلك من ميزات هذه الزراعة قلة الاشجار المغروسة اذ قضى تقريباً على غابات المناطق الجبلية العالية اما في السهول فلا ترى الا بعض الاشجار بالقرب من المنازل وفي المقابر وذلك للحاجة الى الارض لزراعتها بالارز والحبوب .

أما الملكية السائدة فقد كانت الملكية الصغرى للأرض فثلث الحقول مثلاً في

منطقة النهر الازرق لاتتجاوز مساحة الواحد منها (٤٠) آراً أي مساحة مربع ضلعه (٦٥) متراً . كما لاتتجاوز مساحة الحقل في الثلث الثاني (٨٠) آراً . و $\frac{1}{3}$ الارض فقط تتجاوز مساحة الحقل فيه الهكتار والنصف . ولا نجد سوى مزرعة واحدة على خمسمائة تروبو مساحتها على ثلاث هكتارات .

ولا تزرع قطعة الارض المخصصة للاسرة زراعة كاملة لان قبور الاجداد تحتل ما يقارب $\frac{1}{3}$ من مساحة الارض . وقلما يملك الفلاح الارض التي يزرعها وانما يستغلها كستاجر فقط ويدفع أجرها غالباً . إذا أضفنا الى ذلك ثقل الضرائب الكثيرة عرفنا لماذا كان يسعى الفلاح الصيني أن تنتج ارضه غاية ما يمكنها أن تعطي . ويستعيز عن الادوات الزراعية الحديثة بمهارته الفائقة وابعثائه بزراعته الاعتناء الدقيق المتواصل .

ويعني الصيني بسقاية الارض اكبر العناية أيضاً ، ويعمد لذلك الى طرق متعددة لرفع الماء من الانهار والآبار بواسطة المضخات او بواسطة النواعير المختلفة الاشكال وتوزع المياه بشبكة من الاقنية متراسة ومعقدة ، وللتوزيع قواعد وطرق خاصة قديمة تعود الى فجر التاريخ تقريباً .

أما الاسمدة الحيوانية أو الكيماوية فغير متوفرة ولا مستعملة ويستعاض عنها عادة بالسماد البشري وبمختلف الفضلات الحيوانية والنباتية ، حتى أن هذا السماد يباع ويشرى في المدن في الصباح الباكر من كل يوم ، كذلك يستفاد من الرمال والاتربة التي تستخرج من الاقنية عند تنظيفها فتحمل الى الارض لتسميدها .

إن هذا النوع من الزراعة المسمى بالبستنة الذي يمارسه الصينيون يتطلب
 أيد عاملة عديدة، وقد استطاعت الاسرة الصينية القيام به بسبب كثرة افرادها
 وتعطي الارض الصينية محصولاً وافراً ومتعدداً حتى أنها في المقاطعات الجنوبية
 تعطي ثلاثة محاصيل في السنة الواحدة . المحصول الاول للارز ويأتي في اواخر
 الصيف والمحصول الثاني للقمح أو الشعير أو الخضار والمحصول الثالث كان يخصص
 للافيون في فصل الربيع . ولو اتبع الصيني في زراعته الطرق الاوروبية في
 في الحراثة والتسميد لاستطاعت الارض ان تعطي محصولاً اوفر . لان المهكتار
 الواحد المزروع بالارز يعطي :

في الصين	١٨٦٩	كنتالا
في الولايات المتحدة	٢٢٦٧	«
في اليابان	٣٥٠٩	«
في ايطاليا	٤٦٦٧	«

ومن البديهي أن التربة الصينية ، رغم خصبها الطبيعي ، فقدت قسماً كبيراً
 من قوتها الالآتية لاستغلالها المتواصل منذ مئات الاجيال . فاذا لم تعدل فيها
 الطرق الزراعية ، ولم تسمد بالاسمدة المناسبة فلا شك انها ستراجع وتقهقر
 ويضعف مردودها .

وقد أدرك الفلاح الصيني هذا الخطر ، فعمد الى جانب زراعة حقوله الى ممارسة
 الصناعة البيئية وذلك ليستطيع ان يكفي نفسه واسرته . ويستخدم من اجل
 ذلك ادوات بسيطة ويتبع طرقاً بدائية كما هي الحال تماماً في الزراعة التي يعانها
 وهذه الطرق البدائية لا تقتصر على بعض الصناعات البسيطة الثانوية كصناعة

الصدف والفخار وإنما تمتد الى أكبر الصناعات وأوسعها .
 فنصف انتاج الفحم الحجري مثلاً كان يأتي من مناجم صغيرة حيث يجري
 استخراج الفحم ونقله بالأيدي ومن غير استخدام الآلات . كذلك نصف
 انتاج الحديد يأتي من افران تستخدم فحم الحطب عوضاً عن فحم الكوك .
 كما ان مجموع انتاج الصناعة الحريرية و $\frac{4}{5}$ المنسوجات القطنية كانت تصنع
 على أنوال يدوية .

لقد كانت نتيجة هذا الوضع في الزراعة والصناعة ان نسبة سكان الريف
 تزيد عن سكان المدن زيادة هائلة . اذ نجد ٨٨٪ من السكان يعيشون في القرى
 كما ان القسم الأكبر من المدن ليس في الحقيقة سوى قرى كبيرة . وتكثر
 القرى عادة في المناطق ذات الزراعة الحديثة . وتماط القرى في المناطق الشمالية
 بأشجار الحور والصفاف أما في المناطق الجنوبية فتحاط بأشجار الباهبو



الشكل (٢٣)

قرية صينية بالقرب من « كاتون » ترى بيوت القرية تحيط بها بعض الأشجار
 وحفرت الأرض المسقية لغرس اشغال الارز ،

والاشجار المثمرة . وتبنى القرى عادة في الاماكن المرتفعة ليسهل الدفاع عنها
ولتكون بأمن من الفيضان .

والمساكن في القرية متجمعة متراسة ويتناسب هذا الوضع مع فكرة الجماعة
الصينية التي تفضل الحياة التعاونية في كل شيء . فهم يتعاونون في حراثة
الارض وزراعتها ، وفي حراستها وإقامة الاسواق التجارية ويمتازون بحب
الاستعارة والاعارة .

وتتفرع من القرية طرق متعددة تربطها بالقرى المجاورة واكثر هذه
الطرق مهمل غير معبد ، وأهم صفاتها انها ضيقة لاتسع في اكثر تقاطعها لمرور



اكثر من عربة واحدة . وذلك لان
صاحب الارض لا يتنازل الا عن قسم
ضيق من ارضه يساوي نصف عرض
الطريق وعلى صاحب الارض المقابلة ان
يتنازل عن النصف الآخر .

ويستعمل الصينيون لغذائهم
ولباسهم ، في اغلب الاحيان ، المواد
الاولية النباتية اكثر من استعمالهم
للمواد الحيوانية . ويقتصرون في
الغذاء على الاسماك بالدرجة الاولى
وعلى الخنازير والدواجن ولا سيما

الشكل (٢٤)

فلاح صيني من منطقة « كيانغ - سو »
بجلبه الشتوية

البط . اما الاغذية الاساسية فهي الحبوب وياتي الارز بالدرجة الاولى ثم الشوفان والقمح وياتي بعد ذلك الحمص والفاصوليا (الصويا) ثم الخضار . أما الشراب الشعبي فهو الشاي غير أن اسرأصينية كثيرة تستعيب عنه بأنواع اخرى اقل ثمناً . اما لباسهم فيتألف في اغلب الاحيان من القطن والحريير .

لاشك بأنه كانت للحضارة الزراعية في الصين اشكالا كثيرة تختلف بحسب المناطق ولكنها ، بصورة عامة ، لم تتطور بعد بالنسبة لقدمها . وتظهر في العالم اليوم وكأنها بقية حضارة قديمة ولنوع من أنواع الحياة المنتشر في الهند وافريقية وبعض مناطق البحر الابيض المتوسط ، ولكن هذا النوع من الحياة في طريق الزوال لاسيما على شكله الاول الذي عرف به .

هذا ما كانت عليه الحياة الزراعية في الصين قبل الثورة الاشتراكية ، أما اليوم فقد تطورت الحياة في الصين تطوراً كبيراً اساسياً . والصين اليوم في طريق التصنيع حتى انها ارتفعت في انتاج الفحم الحجري مثلاً الى الدرجة الاولى بين الدول .

* * *

الفصل الثامن

الحضارة الصناعية

الصناعة هي تحويل المواد الأولية الطبيعية ، من حيوانية ونباتية ومعدنية الى مواد وادوات نافعة للانسان . كالاغذية والاقشة والادوات المعدنية والمحركات والمواد الكيماوية الخ ... وللصناعة اشكال مختلفة يمكن تصنيفها في ثلاث زمر .

١ - الصناعة البيئية ٢ - الصناعة الصغرى ٣ - الصناعة الكبرى

ففي الصناعة البيئية يعمل أفراد الاسرة على صنع ما هم بحاجة اليه فقط . وظهر هذا الشكل من الصناعة عند الأقوام البدائية منذ ان فكر الانسان بتحويل المواد الأولية . وبقيت الصناعة على هذا الشكل قروناً وأجيالاً عديدة ؛ وهي لم تزل حتى اليوم عند الأقوام غير المتقدمة وفي القرى النائية حيث يقوم الفرد بجميع المهن الضرورية لمقومات حياته فهو زراع وبناء وحداد وخباز وقصاب وحائك الخ . . ثم اخذ التخصص يدخل الصناعة وينمو شيئاً فشيئاً كما اخذت الجماعة تصنع كمية تفوق حاجتها فترسل الفائض عنها الى السوق لبيعه . ثم خصصت ضمن الدار مكاناً لصنع هذه الحوائج وبيعها غير انها لم تستخدم،

في بادىء الامر ، عمالا باجروانما كانت افراد الأسرة هم وخدمهم يقومون بالعمل مع بعض الأجراء الصغار .

بقيت هذه الصناعة الصغرى حتى يومنا هذا ، حتى اننا لنشاهد الآن انتعاش مثل هذه الصناعات بسبب استعمال الطاقة الكهربائية المحركة التي يمكن إبصارها الى ابعد المناطق .

ثم اخذت الصناعة الكبرى ، بفضل الآلة ، محل محل الصناعة الصغرى ، وتنتج بكميات هائلة أنواع المصنوعات بأمان زهيدة . وتعلق الصناعة الكبرى ، كالصناعة الصغرى ، بالشروط الطبيعية من حيث حاجتها الى المواد الأولية والمحروقات ؛ لكنها تتعلق من ناحية ثانية بشروط أخرى مستقلة عن الطبيعة ؛ مثلا تتعلق بشروط اليد العاملة لأنها بحاجة الى عدد وافر من العمال المتعلمين . تتعلق كذلك بشرط رأس المال لأن تأسيس المعامل الكبيرة يتطلب رؤوس أموال ضخمة . وكلما يستطيع الأفراد الانفاق على مثل هذه المشاريع . لذلك تتألف الشركات تدعمها المصارف الكبرى وتسلفها المال الملازم لقاء قسم من الارباح . كذلك تتعلق الصناعة الكبرى بشروط المواصلات ووسائل النقل الضرورية لجلب المواد الأولية والمحروقات الى المعمل ولتصدير المواد المصنوعة ، وأخيراً تتعلق بالتنظيم لتنسيق العمل وتأمين سيره وبالاختراع الآلي لأنها بحاجة دائماً الى آلات قوية ، سريعة الانتاج ودقيقه الصنع .

وللصناعة الكبرى اليوم ميزتان أساسيتان هما التكاليف الصناعي ونفوذ العلم الى الصناعة باستمرار متزايد .

فالتكاليف الصناعي يظهر في الطرق الفنية المستعملة وفي الناحيتين

الجغرافية والمالية. فقد اتسعت المعامل وأصبحت تجمع أوف العمال الاختصاصيين . كما تجتمعت في المناطق الملائمة اما بالقرب من المواد الاولية او بالقرب من القوة المحركة او اليد العاملة او طرق المواصلات الهامة أو أخيراً قرب الصناعات الاخرى لان الصناعة تجذب الصناعة . هذا من الناحية الجغرافية أما من الناحية المالية فالمعامل بحاجة الى آلات باهظة الثمن ولذا فهي بحاجة الى رروس أموال ضخمة . وأدى ذلك الى التكاثر المالي ، واتباع نظام الشركات الرأسمالية . ثم أخذت هذه الشركات نفسها تتحد وتتجمع تحت أسماء مختلفة كالنقابات او الكارتل او التروست او الكونسورسيوم . وقد تجاوزت حدودها القومية ودخلت نطاق التكاثف العالمي وتضم مجموعات من الصناعات المتماثلة او المتشابهة او المتممة

واشترك في العمل المخبر والمعمل معاً حتى ان المشاريع الكبرى انشأت الى جانبها مخاير خاصة وظيفتها ان تخرج الى عالم الوجود وعلى شكل صناعي عملي ما يكتشفه العلماء والباحثون في مخابرههم ونفوذ العلم الى المعمل لا يقتصر فقط على ناحية الاكتشافات والاختراعات انما تطرق أيضاً الى الناحية العملية ليخفف من جهد العامل ويزيد في مودوده وقد توصل العلم الى الاشياء الآتية :

اولا - الى توحيد نوع المصنوعات Standardisation

أي توحيد شكلها وصنعها بكيات كبيرة مع الاعتناء بدراستها من الناحيتين الفنية والعملية .

ثانياً - الى تنظيم العمل Organisation بانتقاء العمال وتدريبهم الصناعي

مع تحديد حركات العامل أحياناً بشكل يقلل من جهده ويزيد في إنتاجه
« طريقة تايلور »

ثالثاً — الى تنسيق مختلف المشاريع مع بعضها Coordination وذلك
لتوفير الزمن والمال والعمل .

رابعاً — تحديد الانتاج حسب قانون العرض والطلب :

ويعطى اليوم الى مجموع هذه الطرق العلمية في التنظيم الصناعي اسم
« الطريقة العقلية أو العقلانية ».

وقد نفذت الطريقة الصناعية الى أكثر اشكال استئثار المواد الطبيعية .
فصيد الاسماك مثلاً أصبح صناعة تزاوُل بواسطة قوارب مجهزة بأدوات
الصيد والتبريد . باستطاعة هذه السفن ان تصطاد مئات الاطنان من السمك
في اليوم الواحد . كذلك أصبح صيد الحيوانات ذات الفراء في المناطق القطبية
والباردة صناعة قائمة بذاتها يشترك فيها عدد ضخم من العمال تساعدهم
الطائرات . ومثل ذلك في قطع أشجار الغابات ونشر الاخشاب كما هي الحال
في كندا والبلاد السكندنافية وروسيا حيث يعمل في المنشرة عدة آلاف
من العمال . وهكذا فالزراعة وتربية المواشي تسيران على نفس الطريق وتستعمل
كل منهما الادوات الآلية وتتبع نفس الطرق العملية .

حضارة الولايات المتحدة حضارة صناعية

اما وقد رأينا تطور الصناعة بمراحلها المختلفة واطلعنا على قوانينها الكبرى الحديثة لا بد لنا الآن من دراسة الحياة في احدى الدول الصناعية الكبرى لنقارن بين الحضارة الزراعية، التي شاهدنا نموذجاً لها في الصين القديمة، والحضارة الصناعية . وسنختار نموذجاً لها الولايات المتحدة الاميركية على الشاطئ الثاني للمحيط الهادي . لقد اتبعت الولايات المتحدة طريقة جديدة في الانتاج انبعث عنها مفهوم جديد للحياة ، وهذه الطريقة الحديثة ، التي تركز اسمها على استخدام الآلة والتنظيم العقلي ، لم تعد وفقاً على الولايات المتحدة الاميركية وإنما هي المرحلة الحاضرة والعامّة للتطور العالمي الذي ترجع اصوله الى الثورة الصناعية في نهاية القرن الثامن عشر . وتتصف هذه المرحلة بالتقدم المادي وبانتصار الانسان على قوى الطبيعة بواسطة العلم والاستثمار الحديث لموارد الثروة الطبيعية على وجه الارض . غير ان الولايات المتحدة تمتاز عن غيرها من الامم بدرجة تميزها الصناعي الذي بلغ حداً رفيعاً من الكمال حتى غدا طريقة جديدة او نوعاً جديداً من انواع الحياة .

الوسط الطبيعي لهذه الحضارة :

تعتبر الولايات المتحدة بالنسبة لسعتها قارة قائمة بذاتها اذ تبلغ مساحتها $\frac{3}{5}$ مساحة اوروبا . وتربو المسافة بين ساحلها الشرقي وساحلها الغربي على (٥٠٠٠) كم.

لم تبدأ البشرية باستغلال هذه القارة الضخمة الا منذ امد قريب ولم يتم استعمارها الا في القرن التاسع عشر . وهي قليلة السكان اذ لا يتجاوز عدد سكانها اليوم ١٨١ مليون نسمة مما يجعل الكثافة فيها (١٩) نسمة في الكيلو متر المربع الواحد .

ولا نجد في الولايات المتحدة ، باستثناء الجبال الصخرية في قسمها الغربي ، غير سلسلة جبال الابالاش ، بعيدة عن الشاطئ الشرقي وقليلة الارتفاع فلا تشكل عثرة أمام المواصلات الداخلية التي تعد اليوم من أهم عوامل النشاط للامم الحديثة . في هذه البوتقة الواسعة عاشت جموع المهاجرين التي وفدت الى القارة الجديدة ، نوع حياة واحدة ، وبنيت مدنهما على طراز واحد ، كما لاقى المهاجرون صعوبات متشابهة واستفادوا من تسهيلات متشابهة أيضاً . ولذا فليس من المستغرب اذن ان تتوصل هذه الجماعات المختلفة بعقليتها وطبيعتها الى التكاتف والتآزر بالعمل .

أما الثروة الطبيعية في الولايات المتحدة فهائلة . التربة السطحية غنية وفيرة الخصب تمتد على مساحات شاسعة وتصلح لزراعات متعددة ، وهي غنية ايضاً بمعادنها المتنوعة ففيها الفحم والبتروول والحديد والنحاس والبوكسيت والرصاص بكميات كبيرة بالإضافة الى الذهب والفضة . وقد حسب علماء الاقتصاد ان الولايات المتحدة التي تضم $\frac{1}{17}$ من نفوس البشرية تستثمر ٣٠٪ من المواد الأولية المستعملة في العالم .

وعلينا أن نرى في هذه الثروة الضخمة العظيمة وفي اختلاف مواردها الأسباب الرئيسية في تفوق الولايات المتحدة :

المناهج المتبعة :

لقد اتبع هذا الشعب الجديد بعناصره البشرية وفي هذه البلاد الجديدة مجموعة من الطرائق العلمية والفنية اطلقنا عليها اسم الطريقة العقلية او العقلانية . فاستخدموا اليد العاملة ضمن شروط نستطيع معها ان تعطي اكبر مردود ممكن وذلك بتطبيق كل تقدم علمي ، مهما كانت قيمته ، على الصناعة ، وهذا ما جعل العمل على اتصال دائم بالخبر . وبتوسيع استعمال الآلة ، التي تخفف من جهد العامل وتقلل من عدد العمال ، قلوا بالتالي من كلفة المواد المصنوعة . وادخلوا طريقة تابلور على الصناعة ، وتتلخص هذه الطريقة بتحديد حركات العامل اثناء عمله وجعلها متناسقة مع الآلة وذلك بحذف كل الحركات التي من شأنها ضياع الوقت سدى . كذلك وحدوا نوع المادة المصنوعة وشكلها مما سمح للعمل ان يصنع كميات كبيرة من انموذج واحد او انموذجين . وكشفوا رؤوس الأموال مما زاد في تجهيز العامل بالآلات الضرورية وجعلوا لها ادارة موحدة تستطيع توجيه العمل حسب الحاجة والطلب وتمنع المنافسة التجارية التي قد تذهب أحياناً ببعض رؤوس الأموال .

الى هذه الصفات الرئيسية العامة للصناعة الاميركية يمكن أن نضيف بعض الميزات الخاصة . كارتفاع اجور العمال لدعم القوة الشرائية لأكثر عدد ممكن من المستهلكين . وانقاص ساعات العمل ليتركوا للعامل وقتاً كافياً من الفراغ يستهلك أثناءه اكبر كمية من الانتاج . وتسهيل البيع بالدين على أقساط . وأخيراً باشتراك العمال بربح المعمل مما يكفل تداخل مصالح جميع

العناصر الأساسية للانتاج وهي رأس المال واليد العاملة والمستهلك ويجعلها متضامنة متكاتفه .

الصفات الاساسية للحضارة الاميركية

نفذت هذه المناهج التي ذكرناها الى جميع نواحي الانتاج والحياة الاميركية لاسيما الى الصناعة التي تعد اليوم أقوى الصناعات في العالم . وتتبوأ اميركا الدرجة الأولى في العالم في انتاج الفحم والبتروول والحديد والصلب والنحاس والرصاص والتوتياء والحرير الاصطناعي . تصنع معاملها ٤٠٪ من الحرير الطبيعي في العالم . وفيها ٢١٪ من عدد الأنوال لغزل القطن في العالم . اما الصناعات الغذائية كالمطاحن ومعامل تعليب اللحوم والخضار والفواكه والأسمالك فقد اتسعت بشكل لم تعرفه بلد من بلاد العالم بعد . وانا لنجد نفس التوسع والتضخم في الصناعات الحديثة كصناعة الورق والكوا تشوك والجلود والصناعات الكيماوية والكهربائية والسينمائية الخ ..

وتختص اكثر المعامل بصنع مادة واحدة معينة تنتجها بكميات كبيرة . وفيها عدد كبير من « التروستات » اشهرها تروست الصلب والبتروول واللحوم، ولا تملك هذه الشركات الكبرى مواد الانتاج فقط وإنما تملك ايضاً الآبار والأنابيب وجميع وسائل النقل لتصدير هذه المواد أو لتوزيعها في الداخل كالخطوط الحديدية والبواخر والسيارات الخ .

الزراعة : تعتبر الزراعة في الولايات المتحدة صناعة كغيرها من الصناعات كانت قديماً من نوع الزراعة الواسعة بسبب المساحات الكبرى وضآلة عدد

السكان ثم اخذت تتطور شيئاً فشيئاً نحو الزراعة الحديثة . اذ نجدها تلجأ اليوم الى الطرائق العملية في اصطفاء الأنواع واتباع الدورة الزراعية واستعمال السماد الكيماوي ومكافحة الحشرات المضرّة بواسطة الطائرات أحياناً ، واتباع طرائق الزراعة في الأراضي الجافة والري الاصطناعي ، كذلك تستخدم أحدث الآلات الزراعية من محاريث وحصادات وبذارات وغراسات وقاطفات القطن الخ .

ولانجد في الولايات المتحدة ذلك الفلاح المتعلق بأرضه يجرّنها ويزرعها بحب ويعمل جهده لتحسينها وحفظها ورعايتها كالفلاح الصيني مثلاً أو كفلاح حوض البحر الأبيض المتوسط أو بعض البلاد الأوروبية . ووصف أحد الكتاب « هرمان دو كيسرلينغ Herman de Keserling » الفلاح الاميركي بقوله :
كلما تقدمت نحو الشرق (شرق الولايات المتحدة) كلما صارت الزراعة حديثة وكلما بدا الانسان مستقلاً غير خاضع للوسط الطبيعي ، حتى ليخيل للتمائل انه هو الذي يحدث الأشياء عوضاً من أن يتأثر بها . تجده يستعيز عن قلة الأمطار بما بناه من اقية وسدود وبما يستعمل من اسمدة . واحتاط لنفسه ضد مصائب الطبيعة بواسطة شركات التأمين ؛ حتى أن حقله لا ينتج ما يستطيع انتاجه بل يعطي ما يجب أن ينتج . وأبقاره تعطي من الحليب أكثر مما يمكن لنوعها أن يعطي . ولهذا فلا عجب اذا كانت الولايات المتحدة في مقدمة دول العالم في انتاج الذرة والقمح والقطن واللحوم الخ .

المواصلات : دوماً بفضل التقدم الصناعي ، بلغت المواصلات بأنواعها المختلفة حداً من الاتقان والامتداد والدقة لم تبلغه دولة من الدول بعد . فشبكة الخطوط الحديدية ، التي تعتبر وسيلة الاعمار الاول ، يزيد طولها على (٤٠٠)

الف كم أي أطول من مجموع الشبكة الأوروبية كذلك يعتبر الاسطول التجاري بعد الحرب العالمية الاولى الثاني في العالم ؛ أما اليوم فقد أصبح الاول في العالم من غير منازع اما السيارات فقد تجاوز عددها « ٧٣ » مليون سيارة ويكون بذلك لكل ثلاثة اشخاص سيارة اما الهاتف والراديو فيوجد في كل بيت ، ومن النادر أن نجد أسرة ليس عندها آلة راديو .

يعتبر هذا التقدم في وسائل النقل والمواصلات عامل واحد من العوامل العديدة التي تساهم في رفع سوية الحياة في الولايات المتحدة . ولا يمكن التبسط في هذا المجال ولكن لابد من القول أن الماء الجاري وغرفة الاستحمام والتدفئة المركزية والكهرباء والمصعد الآلي أصبح ضرورة لازمة واساسية في كل منزل .
الاستهلاك : ان نسبة استهلاك الولايات المتحدة للمواد الاولية الصناعية مرتفعة جداً اذا ما قورنت بالاستهلاك العالمي . فهي تستهلك مثلاً :

$\frac{2}{3}$ الكاوتشوك في العالم و $\frac{2}{3}$ الحرير و $\frac{1}{3}$ القطن و $\frac{1}{3}$ السكر و $\frac{3}{4}$ البترول الناتج في العالم .

كثير من السكان يقطن الارياف غير أن عدد المدن الكبرى مرتفع جداً وفي الولايات المتحدة « ٥٠ » مدينة كبرى تضم $\frac{1}{3}$ مجموع السكان . ويمتاز القسم الاكبر من هذه المدن باتساعه ونموه السريع وبشوارعه المنسقيمة المتقاطعة مع بعضها بزوايا قائمة كما يمتاز ببنيتة ذات الطوابق المتعددة وبناطحات السحاب ؛ وبازدحام شوارعه بالمارة وبعدد السيارات الضخم . وكتب الاستاذ سيكفويد Siegfried يصف بعض نواحي المجتمع الامريكى فقال « يسير العالم باستمرار

نحو مفهوم آلي صناعي للحياة . اننا نجد بعض الاعمال في فرنسا لم تزل فردية شخصية كالسكن والطبخ ، او روحانية كالاسرة مثلاً ، كل هذا يكاد يصبح عاماً في الولايات المتحدة ويصنع للمجموع على السواء . حتى التعليم نفسه يكاد يصبح صناعياً لأن الغاية منه في الولايات المتحدة ليست في خلق رجال الفكر بمقدار ما هي موجهة لايجاد رجال فنيين ولتلقين نوع من العلوم .

يمكن القول الآن ان الحضارة الامريكية تعطينا بمجموعها صورة مثالية للحضارة الصناعية . كما يظهر أنها في طريقها لخلق عصر جديد من عصور البشرية « عصر الانتاج الضخم » الذي حشد الانسان بكليته في سبيل الانتصار على المادة . ولم يعرف التاريخ بعد ان تحقق حشد للقوى الاجتماعية على مثل هذا القياس الواسع أو بمثل هذه القوة . وميزة هذا العصر الحقيقية ليست بضخامة الثروة التي اوجدت بمقدار ما تتمثل في قوة النشاط البشري الذي هب دفعة واحدة لتفجير هذه الثروة واستغلالها .

* * *

الفصل التاسع

المراكز الصناعية الكبرى

أما وقد ألمحنا بكلمة موجزة عن أنواع الصناعة وعن ميزاتها الحديثة وعن النهج الذي تسلكه اليوم، واعطينا مثالا على هذه الحضارة الجديدة، الولايات المتحدة الاميركية، في بعض نواحي نشاطها الاقتصادي في تطبيق الطريقة الصناعية على الزراعة والمواصلات والاستهلاك، لا بد لنا من ذكر شيء عن حياة المراكز الصناعية الكبرى في العالم لنوضح صفات هذه المراكز واسباب نموها ونتائج هذا النمو على السكان. وسنقتصر في بحثنا على ثلاثة مراكز كبرى هي بيتسبورغ في الولايات المتحدة وحوض الروور في المانيا وحوض لانكشاير في انكلترة.

١ - اسباب نمو المراكز الصناعية

تنمو المراكز الصناعية حينما تتوفر بعض الشروط الطبيعية او البشرية لانتشار صناعة واحدة أو عدة صناعات مختلفة. واهم هذه الشروط هو وجود الوقود او القوة المحركة ووجود المواد الاولية الصناعية واليد العاملة المختصة

يضاف الى هذه الشروط شرط توفر المواصلات والنقل ووجود سوق تجاري
يستطيع تصريف المواد المصنوعة .

تتعلق بعض هذه الشروط بطبيعة المنطقة من حيث بنيتها وتركيبها الجيولوجي
وبعضها الآخر له علاقته بالناحية البشرية .

فوجود المحروقات « الفحم » كان في القرن التاسع عشر من الاسباب
الرئيسية في انشاء المراكز الصناعية وذلك لان الفحم الحجري يستطيع خلق
القوة المحركة بفضل المحركات البخارية كما يعتبر مادة اولية اساسية لصنع الحديد .
لذلك بقي الفحم الحجري ، حتى ظهور الكهرباء ، شرطاً أساسياً وضرورياً
لوجود الصناعة الكبرى . ويعتبر القرن التاسع عشر بفضل الفحم
قرن البخار والحديد .

غير أن الفحم ثقيل الوزن ويكاف نقله نفقات باهظة ترفع من ثمنه الا اذا
توفرت لنقله شروط خاصة كالطرق المائية مثلا . لهذا توضعت المراكز الصناعية
الكبرى قرب مناجم الفحم تستورد الى قربها المواد الاولية المراد صنعها .
وهكذا فحوض « ستافورد شير » الفحمي في انكلترا كان السبب في تكوين
المركز الصناعي الكبير برمنغهام تحيط به مجموعة من المدن التابعة كمدينة
اولفر هامتون Wolverhampton مدينة الافران العالية والسيارات . كذلك
كان حوض الشمال الفحمي في فرنسا سبباً في خلق منطقة تزدهم فيها المراكز
الصناعية مثل مركز ليل Lille وروبه Roubaix وتوركوان Tourcoing .
ويمكن ان نقول نفس هذا القول عن حوض بلجيكا الفحمي وحوض
الروهر Ruhr .

واخذت الكهرباء ، منذ اوائل القرن العشرين ، توجد مراكز صناعية جديدة لاسيا في المناطق الجبلية الغنية بالشلالات . ويحيط ببعض الجبال شريط من المراكز الصناعية كما هي الحال في المنطقة الصناعية الكبرى التي تمتد على الحدود الفاصلة بين سهل البو وجبال الالب حيث يقوم في وسطها مركز ميلانو Milan وحيث يقوم على السفح الافرنسي مركز غرونوبل Grenoble الذي اخذ يتسع بفضل الصناعات الحديثة التي تعمل على الكهرباء .

على ان سهولة نقل القوى المحركة الكهربية عمل على جعل المراكز الصناعية التي تعمل على الكهرباء اقل كثافة بالسكان و اقل تجمعاً من المراكز التي تستخدم الفحم .

هذا ونجد أحياناً بعض المراكز الصناعية تتكون وتنمو ليس بالقرب من الوقود وإنما بالقرب من المواد الأولية عندما تكون هذه المواد وفيرة أو ثقيلة الوزن يصعب نقلها بمقدار ما يصعب نقل الفحم كما هي الحال في صناعة الحديد لاسيا عندما يؤلف الفحم محمول العودة في البواخر التي كانت محملة بالفلزات ، كما هي الحال في اللورين حيث انتصبت الافران العالية بالقرب من مركزي لونغوي Lnogwy وبريبي Briey . كذلك نشأ مركز دولوث Duluth في الولايات المتحدة على حوض ميسابي Mésabi الحديدي .

ولكن أفضل الاماكن لنمو الصناعة الثقيلة هي التي تحتوي على معدني الفحم والحديد معاً كمركز بيتسبورغ Pittsburg في الولايات المتحدة والكروزو Creusot في فرنسا .

ويعتبر الميناء ، في بلد ليس فيه محروقات ولا مواد صناعية ، المكان

الاساسي لقيام الصناعة وذلك لسهولة النقل وانخفاض اجوره كما هي الحال مثلا في مرسيليا حيث قامت صناعة تصفية البترول وبناء السفن وطحن الحبوب الخ... ولنفس الاسباب تكاثرت المراکز الصناعية على شواطئ البحيرات الكبرى في الولايات المتحدة لسهولة وصول الفحم وفلزات الحديد بالطرق المائية .

وليد العاملة أهمية أيضاً في خلق المراکز الصناعية . فمدينة كايرمون - فران Clermont - Ferrand مثلاً قدمت لمعامل الكاوتشوك ميشلان ، كل ما يحتاجه من اليد العاملة حتى غدت اليوم عاصمة الكاوتشوك في فرنسا . ولكن اليد العاملة في أغلب الاحيان تعمل على بقاء المركز الصناعي جغرافياً أكثر مما تعمل على تكوينه حتى ولو نفذت المواد الاولية التي كانت السبب في انشائه . وذلك لأن لليد العاملة في المركز القديم ثقافة عملية وتجربة تعطيها قيمة خاصة ربما لا توجد عند عمال المركز الجديد المراد انشاؤه ، ولهذا السبب بقيت صناعة الحرير في مدينة «ليون» في فرنسا رغم انقطاع المنطقة تقريباً عن انتاج شرائق الحرير .

وأخيراً تنشأ المراکز الصناعية في المدن التجارية الكبرى مثل باريس ، لندن ، نيويورك . واذا كانت هذه المدن صناعية في جزء منها فيعود ذلك لحاجة سكان هذه المدن العديدين لصناعات عديدة كصناعة السيارات والادوات الكهربائية وصناعة الالبسة والمواد الغذائية والكيمائية الخ.. التي تتجمع في بعض الأحياء المجاورة ، واهمية هذه الصناعات في المدن الكبرى ناشئة ليست عن وزن المواد المصنوعة وإنما عن ثمن هذه البضائع الكمالية او الاساسية لغذاء السكان .

٢ - صفات المراكز الصناعية

تشارك المراكز الصناعية في بعض النواحي بالصفات العامة للمدن من حيث كثافتها وشكلها وسرعة نموها وكثافة السكان فيها ، لكنها تتميز عنها بصفات أساسية لاسيما اذا اقيمت في اصلها مراكز للصناعة حول احواض الفحم ولم تكن مدناً قديمة تاريخية دخلتها الصناعة فيما بعد كباريس او لندن . وشكل المركز الصناعي يدل على عمله ، وعنصره الأساسي هو المعمل بأبنيته الواسعة التي لاجمال فيها ولا رشاقة ، تشرف عليها مداخن مرتفعة تنفث دخانها الكثيف الذي يتوضع ، لما فيه من ذرات الفحم ، على واجهات الابنية والبيوت ، فيحولها مع الزمن الى سوداء قاتمة . وتقوم حول المعمل أحياء العمال ، صاخبة كثيفة بدورها الواطئة المتشابهة الممتدة على جوانب الطرقات المستقيمة الطويلة وتبذل اليوم جهود كبيرة لمعالجة طراز هذه الأبنية القبيحة المنظر ، ويعمل المهندسون على تزيين هذه المدن بالحدائق والاشجار لادخال شيء من المرح على شكلها الكئيب . كذلك يتميز المركز الصناعي بعدم وجود منطقة متوسطة ينمو حولها ويتسع ، لذلك نجده يمتد حسب اتداد منجم الفحم او حسب اتجاه النهر المولد للقوى المحركة التي كانت سبب وجوده .

وأخيراً ، يشكل المركز الصناعي ، على عكس المدينة التي تجتذب كل حياة ونشاط في المنطقة المحيطة بها ، نقطة التعميم في المنطقة تحيط به وتقوم الى جانبه مراكز أخرى تنمو وتتسع حتى يتصل بعضها ببعض ويؤلف المجموع ، في النهاية ، منطقة صناعية واسعة كما هي الحال في منطقة الروور حيث يقوم الى

جانب مركز إيسن Essen الكبير رشاش من المرا كز الصناعية التي تنفثي وتنسج كمنقطة من الزيت على قطعة من الورق . كذلك الامر في منطقة الشمال في فرنسا ومنطقة لانكشاير في انكلترة .

٣ - نتائج نمو المرا كز الصناعية .

يؤدي نمو المرا كز الصناعية الى نتائج عديدة أهمها التوسع التجاري في المنطقة . لان المواد المصنوعة في هذه المرا كز ترسل للتصدير ، فليدس Leeds مثلاً تصدر منسوجاتها الصوفية وليل Lille قاطراتها وشيكاجو تبسج أوائلها الزراعية وباريس تصدر سياراتها ولكي تستطيع تصدير هذه البضائع تحتاج المرا كز الصناعية الى استيراد الفحم أو المواد الأولية . وقد يتأني للمركز الصناعي الذي انشئ لاستغلال مادة من المواد الاولية أن يأتي بعد زمن على كل ما يحتويه المنجم من هذه المادة .. ولما كان من الصعب نقل الآلات ذات الأثمان الباهظة ونقل الايدي العاملة الى مكان آخر ، يضطر عندئذ الى استيراد المادة الاولية التي تنقصه من خارج المنطقة . فمركز برمينغهام مثلاً يشتري الحديد اليوم من السويد ويستورد مركز سانت - اتيان st-Etienne حديده من اللورين أو من الجزائر . غير أن كلفة المواد المصنوعة ترتفع بسبب استيراد المواد الأولية من مسافات بعيدة . ولذا يضطر المركز الصناعي غالباً الى تبديل نوع المواد التي كان يصنعها من قبل . وهذا ما حدث في مركز بيتسبورغ الذي كان يصنع الصلب لوجود الحديد في المناجم القريبة منه عندما ترك صنع هذه المادة الى مركز دولوث وتحول هو الى صنع الأدوات الفولاذية .

نفس الشيء حدث في مركز الكوروزو Le Creusot الذي تنازل عن صنع الصلب والحديد الى صنع الأدوات الحديدية والفولاذية العالية الثمن .
الى جانب التجارة الخارجية ، يعتبر المركز الصناعي ، من أهم دواعي تنشيط التجارة الداخلية وذلك لوفرة سكانه ولما يتطلب هؤلاء السكان من مواد غذائية والبسة ومواد مصنوعة .

والتوسع التجاري يؤدي حتماً الى توسع شبكة المواصلات والنقل . ولذا تخرج من المركز الصناعي شبكة متراسة من الخطوط الحديدية والطرق والاقنية ، وأخيراً يؤدي توسع المركز الصناعي الى تزايد كثافة السكان ، فبرمنغهام مثلا كانت تعد عام ١٨٩٦ أربع مائة الف نسمة يزيد عدد سكانها اليوم على ١٦١١٢٠٠٠ نسمة كذلك شيكاغو ارتفع عدد سكانها من (٧٠) نسمة عام ١٨٣٠ الى (٣٩٠٠٠٠) عام ١٨٥٠ ثم الى ٣٠٦٢١٠٠٠ عام ١٩٦٠ .

٤ - مركز بيتسبورغ

تمتد منطقة بيتسبورغ الصناعية في النهاية الشمالية من حوض الابالاش الفحمي وفي القسم الغربي من ولاية بنسلفانيا ، وأهم ميزات هذه المنطقة بالنسبة الى الولايات المتحدة أنها أقدم المناطق الصناعية فيها .

ومن أهم الأسباب في توسع هذه المنطقة هو وجود الحوض الفحمي الكبير فيها . يتوضع الفحم في هذا الحوض على شكل طبقات أفقية مميكة منتظمة وقريبة من سطح الأرض ، تتراوح نخانة الطبقة الواحدة بين متر واحد وثلاثة أمتار ونصف وتمتد على شكل مربع طول ضلعه (٨٠) كم . وأدى حث المياه

الجارية في هذا الحوض الى تقسيمه الى أجزاء كثيرة مكنت من استغلال طبقة الفحم بالبراء من غير أن يعمد الى حفر الآبار العميقة . وقد جهز العمال بادوات حديثة تتحرك بالكهرباء أو بالهواء المضغوط ثم ينقل الفحم بعربات خاصة . ونتيجة لهذا التجهيز الفني ارتفع مردود العامل أربع أو ست أمثال مردود العامل في المناجم الأوروبية .

ومما ساعد هذه المنطقة على توسيعها الصناعي اكتشاف طبقة من البترول ومن الغاز الطبيعي فيها، وقد نفذت اليوم بعد أن ساهمتا الى حد بعيد في ازدهار الصناعة في بيتسبورغ .

تحتوي المنطقة الى جانب الفحم والغاز والبترول حوضاً كبيراً لفلزات الحديد ضمن طبقة الصخور الكلسية العائدة للزمن الأول الجيولوجي . وبقيت مناجم الحديد هذه المورد الوحيد تقريباً للولايات المتحدة حتى اكتشاف مناجم الحديد حول البحيرة العليا . وهذا ما جعل بيتسبورغ أقدم مركز للصناعات الحديدية مما أكسبها قوة بالنسبة الى المراكز الحديثة التي تزاوجها اليوم كمركز برمينغهام في ولاية الاباما Alabama . أما اليوم فتستورد بيتسبورغ فلزات الحديد من مناجم البحيرة العليا وذلك لسهولة النقل عبر البحيرات .

ومما يساعد مركز بيتسبورغ على ازدهاره الصناعي وجوده أولاً في قلب المنطقة الصناعية الكبرى وقربه ثانياً من الأسواق المستهلكة الموجودة على الساحل الشرقي . كما أن موقع بيتسبورغ الجغرافي انتخب في نقطة تلاقي نهرين كبيرين هما أليغاني Alleghany والمونونغاليا Moongahéla يؤلفان باتحادهما نهر الاوهايو Ohio ، وتشكل الأنهار الثلاثة وسط هذا النجد الصعب المسلك

طرقاً ممتازة كانت سبباً في تخفيض ثمن الفحم الحجري وبالتالي كلفة
المواد المصنوعة .

أما صفات هذا المركز فستمدة من شروط نموه وتوسعه . فالمدينة جميلة
تتسلق سفوح الوديان التي كانت السبب في وجودها ، تشقها طرق ملتوية وقطر
كهربائية خاصة لتسلك السفوح المنحدرة (Funiculaire) ، وعند ملتقى
النهرين تقوم أحياء ناطحات السحاب الضخمة تطل على حركة المراكب المخصصة
لنقل الفحم والتي لا تنقطع ليلاً نهاراً . الشكل (٢٥) .

يقابل هذه الأحياء الجميلة ، أحياء ملوك الفحم ، أحياء عمال المناجم القبيحة
الكثيية القدرة . وتهمر على جميع الأحياء سحب من الدخان المتصاعد من
مداخن العامل الجبارة كعامل كارنجي ومعامل وستينكهاوس الخ . أما
في الليل فتضيء المدينة أسنة اللهب وذرات الفحم المشتعلة المتصاعدة من
مداخن الافران العالية الشاخحة ومن أفران صهر الحديد ، وتنعكس الأنوار
جميعها في مياه الأنهار القريبة .

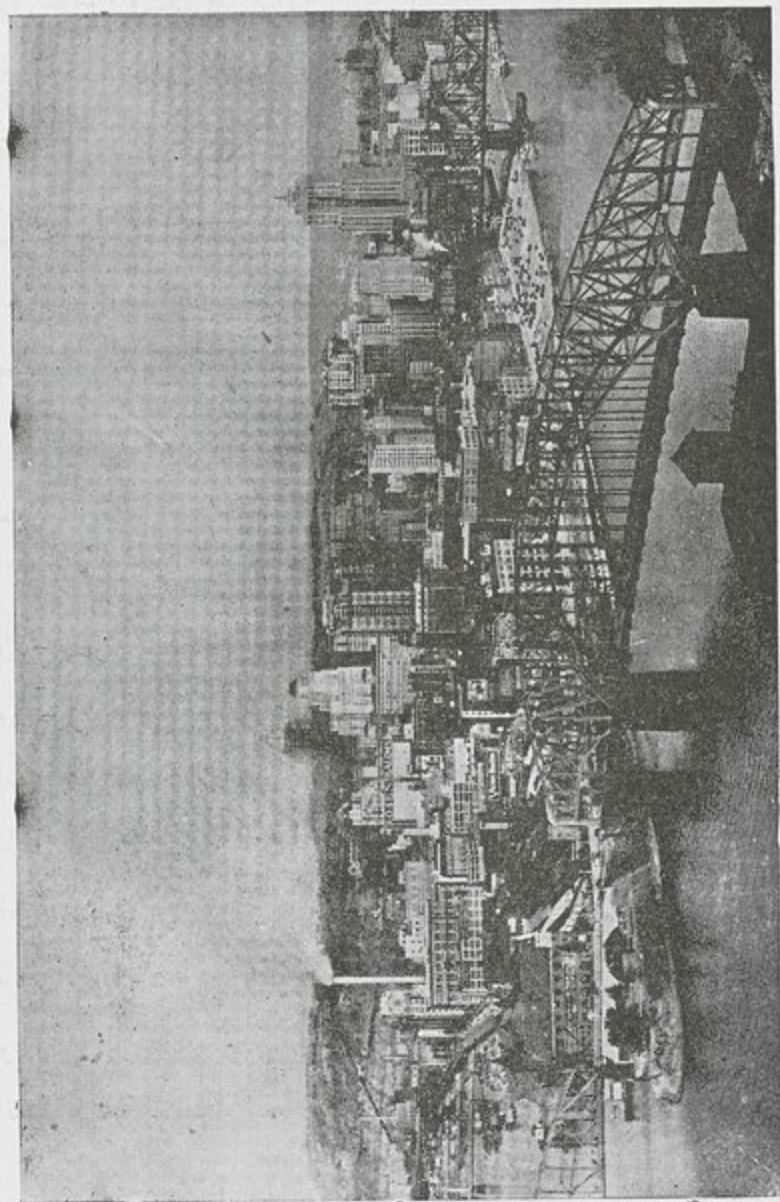
وتتمد المراكز الصناعية التابعة لبيتسبورغ على طول مجرى الأنهار الى
مسافات بعيدة . وتقدر مساحة هذا المركز مع توابعه بمساحة دائرة مركزها
بيتسبورغ وطول نصف قطرها (٥٠) كم .

وتعتبر المدينة من مراكز الكثافات الكبرى في الولايات المتحدة اذ يزيد
عدد نفوسها مع ضواحيها على « ١٦٤٠٠٠٠٠٠ » نسمة . وهي أكبر مراكز
عالمي لصناعة الحديد والصلب . تنتج المنطقة ٢٧٪ من الانتاج العالمي للصلب

لا شك ان نفاذ فلزات الحديد من مناجم المنطقة ومنافسة دولوث لها أوقعا بمأزق حرج . ولكن فقر الثانية بالفحم الحجري لا يمكنها من ممارسة الصناعة التحويلية ولذا ينقل نتاج صناعتها الثقيلة الى بيتسبورغ لتحويله وصنع الأدوات المختلفة . وقد قدر موظفو الاحصاء أن هذا المركز ينتج لوحده $\frac{1}{3}$ الأدوات الفولاذية والحديدية المصنوعة في الولايات المتحدة، كالمحركات البخارية والسكك الحديدية والأعمدة والأسلحة والأواني المختلفة ، كذلك توجد فيها بعض الصناعات التابعة لصناعة الحديد ، كالطباعة وصناعة الادوات الزجاجية الخ . .

الى جانب أهميتها الصناعية تشتهر بيتسبورغ بمركزها التجاري الكبير فهي تصدر منتوجاتها الصناعية المتنوعة وتستورد المواد الغذائية من السهول المتوسطة ثم توزعها في جميع أرجاء المنطقة الصناعية في بنسلفانيا . ومما يسهل هذه التجارة ويزيد في قوتها شبكة مواصلات كثيفة ومتنوعة . تستعمل الطرق المائية فيها لتوزيع الفحم على المراكز الصناعية المختلفة ، كما تلعب هذه الشبكة دوراً هاماً في نقل فحم الكوك والرمل والكلس . وقد بلغ وزن محمول المراكب الداخلة الى بيتسبورغ والخارجة منها (٢٥) مليون طن . كذلك لشبكة الخطوط الحديدية أكبر الأهمية في حياة بيتسبورغ وازدهارها ؛ تتشعب في جميع المنطقة وتمتد نحو الشرق أي نحو الساحل الشرقي ومدنه الكبرى نيويورك وفيلادلفيا . أما الطرق فحدثت العهد أي منذ اوائل القرن العشرين وانتشار صناعة السيارات .

الخلاصة : — لم تنزل بيتسبورغ اليوم أكبر مركز صناعي في الولايات



(الشكل - ٢٥) مدينة بيتسبورغ ويظهر فيها التقاء نهر الاليجاني (الى اليسار) نهر المونتاقلايا (الى اليمين) حيث يقوم الحمى التجاري الكبير

المتحدة لغناها بالفحم ولقربها من فلزات الحديد ، ولقدمها واختصاصها بصناعته وأخيراً لموقعها الجغرافي الممتاز بين المنطقة الساحلية والمنطقة الشمالية الغربية ذات السهول الواسعة ، والمدينة كثيفة السكان ، غير أن سكانها فقراء يتكلمون شيئاً ضئيلاً من اللغة الانكليزية .

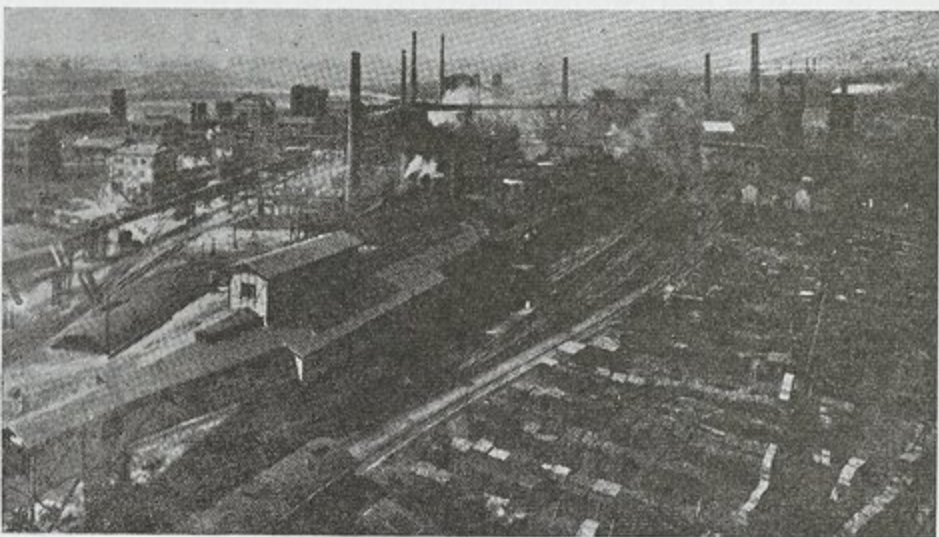
٥ -- موصى الرور :

يمتد على السفح الشمالي من جبال اليرين الشيستية وعلى السهل المنبسط في أسفل هذا السفح ، حوض فحمي واسع تبلغ مساحته (١٠) آلاف كم^٢ أي يقدر مساحة لبنان . وقد بدأت مناجم القسم الجنوبي بالنفاذ بينما لم تزل أقسامه الشمالية في عهد الشباب رغم استغلالها المتواصل . ويؤلف استخراج الفحم في هذا القسم النشاط الاساسي . أما المنطقة الصناعية الكبرى فتقع في القسم المتوسط تمتد على مساحة تتراوح بين (٦٥٥) آلاف كم^٢ . ويزيد عدد نفوسها على (٧) ملايين نسمة بكثافة متوسطة ترتفع الى (١٢٠٠) نسمة في الكم^٢ الواحد . وتتابع المدن الى جانب بعضها وتتصل أحياناً بضواحيها . ويشاهد الناظر من الطائرة رشاشاً من المساكن والمباني . ويتتابع على مسافة تقرب من (١٠٠) كم منظر واحد يكاد لا يتغير هو منظر الاخشاب المعدة للمناجم ، فالمداخن الشاهقة فأكوام شوائب الفحم فالافران العالية تليها دور المعدنين . ثم يمتد هنا وهناك عدد هائل من الخطوط الحديدية والاقنية والأنهار ذات المياه السوداء . ويغطي هذا كله سماء مثقلة بالدخان وبهواء مملوء بندرات الفحم .
الشكل (٢٦) .

وأسباب أهمية هذا الحوض هو غناه بالفحم وقربه من مناجم الحديد في
الورين . يحوي حوض الرور في أحشائه (٩٤) طبقة من الفحم متوضع بعضها
فوق بعض و يبلغ مجموع عمقها (٧٩) متراً تعطي مختلف أنواع الفحم الذي
يصنع منه الكوك لاسيما في القسم المتوسط من الحوض .

وقد ارتفع انتاج الفحم في حوض الرور من (١٢) مليون طن عام ١٨٧٠
الى (١١٨) مليون طن عام ١٩٢٩ .

أما مناجم الحديد الموجودة في نفس المنطقة وأشهرها مناجم « سيفرلاند
siegerland » فقير كافية ويكلف استخراج الفلزات منها غالباً . وكان حوض
الورين الذي ضمته المانيا لاراضيها عام ١٨٧١ يقدم للرور عام ١٩١٣ — ٤٠٪

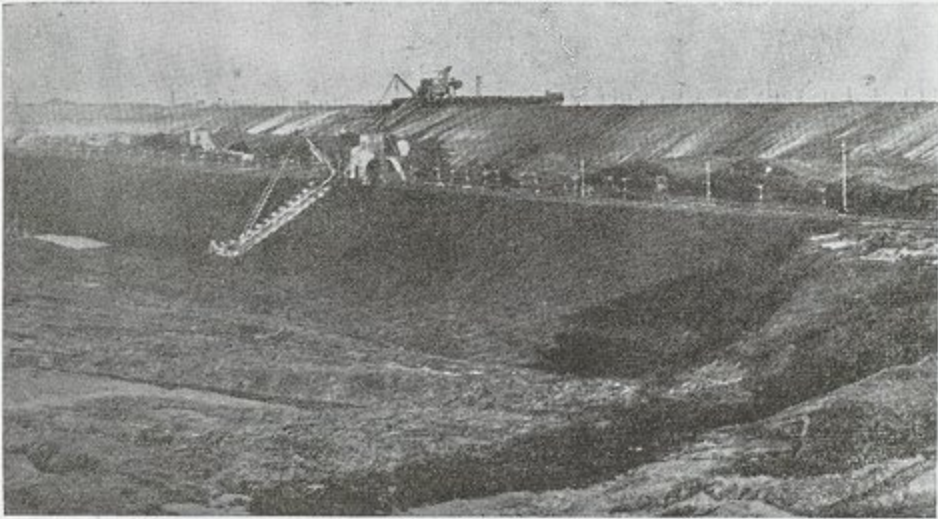


(شكر - ٢٦)

منجم من مناجم حوض الرور يرى الى اليمين مستودعات الاخشاب المخصصة لدعم الانفاق في
المنجم ، والى اليسار أنابيب الغاز الذاهبة من أفران فحم الكوك الى معامل الفولاذ

من استهلاكه لفلزات الحديد و يستورد الباقي من اسكاندينافيا واسبانيا الخ .
 على بواخر خاصة تصعد نهر الرين حتى مراكز الافران العالية . وبعد الحرب
 العالمية الاولى اتجهت المانيا نحو اسكاندينافيا لتموينها بفلزات الحديد . وقد
 اشترت المانيا عام ١٩٢٩ (١) ملايين طن من الفلزات من اسكاندينافيا
 و (٣٠٢٥) ملايين طن من فرنسا و (٣) ملايين طن من اسبانيا و (١)
 مليون طن من الجزائر وتونس .

و يمتاز هذا الحوض أخيراً ، بوقوعه على نهر الرين الذي يعد أهم الطرق
 المائية في اوروبا ؛ وبواسطته يمكن لهواد الاولية الصناعية و لهواد الغذائية أن
 تصل الى حوض الرور كما يستطيع هذا الحوض تصدير الفحم باحسن الشروط
 الاقتصادية وأوفرها الشكل (٢٧) .

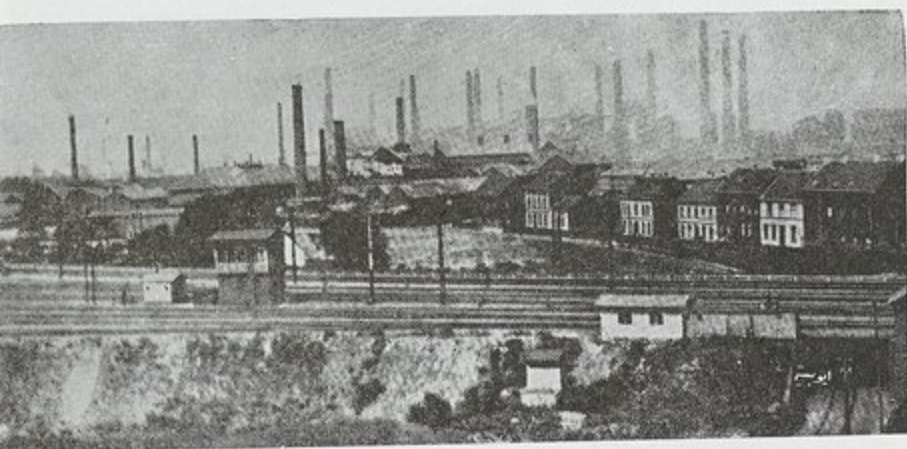


(الشكل - ٢٧)

منجم لفحم الليغنيت في حوض «بون» الفحمي

نرى في وسط الشكل غرافتين الاولى ترفع الفحم من المنطقة المنخفضة الى المنطقة المرتفعة
 والثانية تحمل الفحم لتفرغه في شاحنات القطار

أما صفات هذه المنطقة الصناعية الأساسية فهي مجموع صفات التوسع الهائل وتظهر آثار هذا التوسع في كمية الانتاج الهائلة والمنتظمة في استخراج الفحم وفي محصول الصناعة الحديدية والنسيجية . كذلك يظهر التوسع بتضخم شبكة المواصلات ووسائل النقل . فالخطوط الحديدية العامة أو الخاصة بالندجم والمعامل بلغت ، بعددها وتقاطعها واتصالها ، درجة من التعقيد لا يستطيع إدارتها إلا من قضى زمناً طويلاً في السهر على تأمين سير المواصلات في منطقة الرور . إلى جانب الخطوط الحديدية تأتي الطرق المائية التي تتعاون مع الأولى : ويشكل نهر الرين العنصر الرئيسي لهذه الشبكة . وقد تجاوز محمول البواخر إلى مركزي (روهرورت - دويسبورغ Ruhrort-Duisburg) قبل الحرب العالمية الثانية العشرين مليون طن . كما تجاوز محمول المراكب على القناة الممتدة من روهرورت إلى دورتموند Dortmund العشرة ملايين طن ، الشكل (٢٨) .



(الشكل - ٢٨)

منظر عام لبعض مناطق المامل في مدينة « روهرورت Ruhrort »

هذا وقد تبعت زيادة السكان زيادة الانتاج الصناعي ؛ فكما فتح بئر لمنجم جديد نشأت حوله مدينة جديدة تضم عدة آلاف من السكان كما هي الحال في مدينة « هامبورن hamborn » التي خلقت من العدم والتي ارتفع عدد سكانها الى (١١) الف نسمة عام ١٨٩٥ ثم الى (١٢٦٠٠٠) عام ١٩٢٥ .

وقد شاهدت هذه المنطقة الصناعية تضخم مدنها الكبرى أولاً بين عام ١٨٥٠ - ١٨٦٠ عندما شيدت تلك الابنية الضخمة السوداء التي تتسع لعشرات من اسر العمال المتراسة فوق بعضها ، ثانياً بعد عام ١٨٧٠ عندما بديء ببناء مدن العمال حيث تتألف من دور صغيرة تتسع لاسرتين تحيط بها الحدائق المخصصة لزراعة الخضار والاشجار المثمرة . وتتجمع هذه المساكن حول المدرسة والكنيسة والمكتبة العامة .

ويؤمن تـمـوـيـن المنطقة في جزء منه محلياً حيث تمتد الزراعة الخثينة في الوديان المنخفضة يضاف اليها تربية المواشي لاسيما البقر الحلوب .

غير ان القسم الاعظم من المواد الغذائية يجلب اما من بقية المناطق الالمانية كالبطاطا والقمح الاسود ، وإما يستورد من البلاد الاجنبية . ويؤلف نهر الرين الطريق الكبير التي تسلكه اكثر الواردات .

وتعتبر « اسن Essen » اكبر مدينة في حوض الروور واقدم مركز صناعي فيه . كذلك هي مركز كامل لوجود الفحم وصناعة الحديد معاً . ويرجع تاريخ اول المناجم التي فتحت وأول المعامل التي شيدت في المدينة الى عام (١٨١٥) ولم تكن نفوس المدينة حينذاك تربو على (٤٠٠٠) نسمة . فازداد نموها ببطء في بادىء الامر حتى عام (١٨٥٠) ثم اخذ يتسارع بعد ذلك لاسيما بعد

ان تمت الوحدة الالمانية عام (١٨٧١) وارتبطت مقدرات معامل كروب Krupp بمقدرات الامبراطورية الالمانية . حتى ان نفوس المدينة ارتفعت قبل الحرب العالمية الاولى الى ما يزيد على النصف مليون نسمة . واستفادت إسمن من تكتل الصناعات وتجمعها في جميع انحاء حوض الرور على شكل شركات كبرى جعلت مركزها الرئيسي مدينة إسمن . واكبر هذه الشركات هي شركة « كروب » التي توسعت وازدهرت اعمالها بعد ان عمدت الى صنع المدافع الفولاذية . وهي شركة كبرى فيها كل ما يصنع من الحديد والفحم من استخراج الفحم حتى بناء اكبر وحدات الاسطول الالمانى ، ومعامل «جورمانيا» الشهيرة في مدينة كيل Kiel تابعة لهذه الشركة . وقد بلغ طول الجدار المحيط بمعامل استحصال الصلب التابع لها (١١) كم حتى كأن منطقة معامل الشركة تؤلف لوحدها مدينة داخل مدينة إسمن . كذلك فيها المركز الرئيسي لنقابة اصحاب مناجم الفحم ، وتظهر إسمن ، لما فيها من مراكز الشركات المختلفة ، كأنها المركز الرئيسي الموجه لاقتصاديات حوض الرور ، غير ان هذه الميزة لا تقتصر على هذه المدينة فقط ولغيرها من مدن الحوض مثل « دوسلدورف Dusseldorf » أهمية كبرى أيضاً لما فيها من المدارس العالية والمتاحف الثمينة ومراكز الشركات . الى جانب أهميتها الصناعية بمادة الحديد والفحم تعتبر إسمن اكبر المراكز التجارية في الحوض تقوم بتموين هذا العدد الهائل من العمال . وتستند حركة المدينة الصناعية والتجارية على شبكة متراسة للمواصلات فالخطوط الحديدية بقطاراتها الخاصة بالعمال وبقطارات الشحن العديدة التي تخترق المدينة تساعدها حافلات الترامواي الكهربائية وسيارات « الأوتوبوس » تدل

على حى الحركة اليومية للبضائع والسكان . حتى بلغ عدد محطات القطارات المخصصة للركاب (٢٧) محطة وعدد المحطات المخصصة لشحن البضائع (٢٦) محطة . وجميعها في حركة دائمة في الليل والنهار . وهكذا تمثل إسمن مظهر الصناعة الألمانية بأوضح وجوها واكمل نشاطها .

٦ - منطقة لانكشاير

تعد منطقة لانكشاير Lancashire من المناطق الصناعية الكبرى في انكلترا ، وللتجارة في هذه المنطقة بمقدار ما للصناعة من اهمية . والعمالان الرئيسيان في نشاط المنطقة وازدهارها هما ميناء ليفربول ومدينة مانشستر . ولم يكن الفحم هنا أساساً في توسع المنطقة كما كان الحال في مدينتي بيتسبورغ وإسمن وإنما جاءت الأهمية من موقع ليفربول نفسها على مصب نهر « المرسي Mersey . وكانت علاقاتها التجارية مع أرنلندة ، ثم تشعبت هذه العلاقات بسبب اتجارها بالمواد الأولية التي تستوردها من المستعمرات ومن تجارة الرقيق . هذا ، وإذا كانت التجارة هي الأساس في نشاط ميناء ليفربول فالصناعة هي التي خلقت أهمية مانشستر . وقد قامت فيها بادية الأمر صناعة نسيج الصوف بسبب وجود قطعان الأغنام المنتشرة على سفوح سلسلة « البنين Pénine » . وساعد الصوف المستورد من أرنلندة على تضخم هذه الصناعة التي أخذت بعد ذلك تنسج الكتان الى جانب الصوف .

ثم ادخلت صناعة القطن عام ١٦٤١ م وازدادت أهمية هذه الصناعة بسبب علاقات انكلترا بأهنده . وبسبب سهولة تموين المنطقة بالقطن عن طريق البحر

بواسطة ميناء ليفربول . ولوجود الانهار العديدة الغزيرة الهابطة من سلسلة
البنين التي تولد القوة المحركة لتسيير آلات الغزل .

كما استفادت في عصر المحركات البخارية من وجود الحوض الفحيمي الكبير
الى جانبها في نفس المنطقة . أضف الى ذلك كله رطوبة المناخ التي تساعد على
غزل ادق الخيوط ، والمنطقة شهرة خاصة بالخيوط الفطنية الدقيقة التي لا توجد
في غيرها من مناطق الغزل .

وليفربول اليوم مدينة واسعة فسيحة يؤلف نهر المرسى فيها الشارع
الرئيسي . وقد غدت القرى المحيطة بها مديناً هامة مثل « بوتل Bootl »
و « سيفورث Seaforth » و « واترلو Waterloo » و « بيركنهايد
Birkenhead » على الشاطئ الأيسر . وقد توسعت المدينة بسرعة من غيران
تهتم بتجميل شوارعها وساحاتها . اما سكانها فمن عناصر مختلفة : انكليز وارانديين
وايكوسيين . وارتفع عددهم من (١٠٠٠) نسمة عام ١٧٥٠ الى (١٦٥٠٠٠٠)
عام ١٨٣١ حتى بلغ قبيل الحرب العالمية الأولى (٩٠٠٠٠٠٠) تقريباً .

اما مانشستر فكان توسعها الحقيقي في القرنين التاسع عشر والعشرين .
ونفوسها التي لم تكن تتجاوز (٢٠٠٠٠٠) نسمة عام ١٧٦٠ ارتفع عددها الى (٩٥٠٠٠٠)
عام ١٨٠١ وبلغت نفوس المدينة مع ضواحيها بعد الحرب العالمية الاولى
مليون نسمة .

الى جانب المدينة الصناعية تقوم مدن كبيرة عديدة ومتقاربة من بعضها مثل
أشتون Ashton و غلوسوب Glossop و ستوكبور Stockport .

ثم على السفح الشمالي لحوض المرسي قامت مدينة سانت هيلين St - Helens و « ويفان Wigan » و « بولتون Bolton » و « أولدهام Oldham » وتجمعت في حوض نهر الريبيل Ribble عدة مدن أشهرها « بلاكبورن Blackburn » و « برستون Preston ».

هذا ويمكن معرفة حركة منطقة لانكشاير ونشاطها التجاري والصناعي من بعض الأرقام الخاصة بميناء ليفربول اذ بلغ وزن البضائع فيه قبل الحرب العالمية الثانية (٢١٦٦٩٠٦٠٠٠) طن من البضائع . وذلك لأن ليفربول مع لندن هما الميناءان الوحيدان في انكلترا اللذان يستوردان مختلف البضائع من الامبراطورية لتوزيعها على بقية المناطق والمدن الانكليزية .

ويعتبر ميناء ليفربول ايضاً ميناء منطقة لانكشاير الخاص اذ يستورد لوحده $\frac{5}{9}$ كمية القطن التي تصنع في هذه المنطقة . ويستورد كذلك الصوف والقنب وفلزات الحديد وجميع المواد الغذائية الضرورية لحياة المنطقة .

اما حركة التصدير فليست مقتصرة على انتاج المنطقة نفسها اذ نجد الى جانب المنسوجات القطنية وخبوط الغزل التي تصنع في مانشستر انوال الغزل والنسيج التي تصنع وسط انكلترا والمنسوجات الصوفية المصنوعة في يوركشاير حتى ان مقدار الصادرات يفوق كمية الواردات الى الميناء .

ومن الصفات الهامة لمنطقة مانشستر تراص المراكز الصناعية فيها على مساحة صغيرة من الأرض وتخصص المعامل بنوع واحد من العمل . فمعامل الغزل مثلاً تجمعت في الجنوب ومعامل النسيج في الشمال . وذهب الاختصاص

بالمعامل الى ابد من ذلك ، مثلا اختصت معامل « أولدهام » وضواحيها بغزل الخيوط القطنية المتوسطة الشخانة ، واختصت معامل « بولتون » بغزل الخيوط الدقيقة ، كما ان المنسوجات القطنية المصدرة للصين والهند تنسج في معامل « بلاكبورن » وينسج المخمل في معامل « أولدهام » وما هذا الاختصاص الواسع في الغزل والنسيج سوى صدى لسعة السوق التجاري الانكليزي في جميع انحاء العالم ، اذ لكل نوع من المنسوجات او من الغزل اسواق تستنفذ كل ما يصنع في انكلترة .

وهناك اختصاص من نوع آخر ، اذ بينما تهاجر معامل الغزل والنسيج من مانشستر الى المراكز المحيطة بها نجد تجارة المنسوجات تتركز في المدينة نفسها . ولذا « فبورصة » مانشستر هي التي تحدد اسعار الغزل والمنسوجات القطنية .

اما وسائل النقل والمواصلات في المنطقة فكثيفة وسريعة واهم هذه الوسائل كلها خليج الموسي . وبعد ان بقيت مانشستر مدة طويلة تابعة لميناء ليفربول في كل ما تستورد او تصدر ارادت ان تتحرر فبنت لنفسها قناة بحرية خاصة طولها (٧٥) كم تم فتحها عام ١٨٩٤ تصلها مباشرة بخليج المرسي وتمر على بعد (٩٦٥) كم الى الجنوب من ليفربول .

وتتشعب الخطوط الحديدية في جميع انحاء المنطقة وتخرج من مدينة مانشستر على شكل نجمة تتوزع اشعتها في كل ناحية .

ويمكن القول ان جميع المدن الكبيرة الواقعة في القسم الجنوبي من لانكشاير

تؤلف منطقة صناعية فريدة ابرزت للعالم لأول مرة انموذجاً من الحضارة الجديدة،
حضارة جماعات العمال الذين يعيشون حياة رفاة وسعة لا تستعبدهم هموم اعمالهم
اليومية ، ذوي افكار حرة يهتمون بسعادتهم ويحبون السفر والسياحة ويطمحون
دوماً الى سوية حياة ارفع مما هم عليه اليوم .

★ ★ ★

الفصل العاشر

سكان العالم وتوزيعهم الجغرافي

البحث الأول

سكان العالم

حسب الاحصاءات الرسمية للبلاد المتحضرة وحسب التخمينات التي اجراها بعض الخبراء عن البلاد غير المتحضرة ، يقدر عدد السكان على سطح الأرض لعام ١٩٦٠ بـ (٢٢٩٥) مليون نسمة توزع على القارات كما يلي :

آسيا (باستثناء الاتحاد السوفياتي)	١٦٧٩	مليون نسمة
أوروبا « « « «	٤٢٧	« «
أمريكا « «	٤٠٥	« «
أفريقية « «	٢٥٤	« «
أوقيانوسيا « «	١٦٦٥	« «
الاتحاد السوفياتي « «	٢١٤٦٤	« «

ولكن اي قيمة يمكن ان تعطى لهذه الأرقام ؟ نحن نعلم ان البلاد المتحضرة تجري احصاءات منظمة في فترات محدودة من الزمن . ولكن قد لا تخلو هذه

الاحصاءات من بعض الأخطاء كأغفال قيد بعض المواطنين او بالعكس احصائهم مرتين في مكانين مختلفين ، المرة الأولى في مكان اقامتهم والمرة الثانية في مكان ولادتهم الخ ... غير ان هذه الأخطاء طفيفة يمكن التغاضي عنها ، وتعطي المقارنة بنتائج احصاءات متعددة لبلد ما ، صورة واضحة عن تغير عدد سكانها كما تبين عدد الولادات والوفيات وعدد المهاجرين النازحين عنها او العائدين اليها .

ان أكثر البلاد الأوروبية تحصي عدد سكانها مرة في كل عدة سنوات ، ففي فرنسا والمانية وبلجيكا احصاء يجري كل خمس سنوات ، وفي انكلترة والنروج كل عشرة سنوات ، ولبقية الدول الأوروبية احصاءات متعددة وان لم تكن في فترات محددة كما هي الحال في البلاد التي ذكرناها ، لذلك نستطيع ان نعرف بقدر كاف من الصحة عدد السكان في اوروبا . كذلك الامر في امريكا حيث تجري في كندا احصاءات مماثلة للاحصاءات التي تجري في انكلترة .

واكثر جمهوريات امريكا الوسطى والجنوبية تجري فيها احصاءات منتظمة دع عنك احصاءات الولايات المتحدة التي فاقت بدقتها وضبطها الاحصاءات الأوروبية ، حتى بلغ فيها عدد موظفي الاحصاء الدائمين (١١٠٠٠٠٠) موظف ، غير ان مهمة هذه الدوائر لا تقتصر على احصاء عدد السكان فقط وانما تعداها الى اجراء احصاءات لجميع نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية .

اما بقية القارات كآسيا وأفريقية واوقيانوسيا ، اذا استثنينا اليابان وبعض الممتلكات الأوروبية ، لانجد لها احصاءات منظمة ، وقد قامت بعض الدول في هذه القارات باحصاء عدد سكانها كالصين مثلا ولكن النتائج مشكوك

بصحتها ، واول احصاء دقيق منظم جرى في تركيا عام (١٩٢٧) عندما منع السكان من مغادرة منازلهم ووقفت حركة السير والنقل بين جميع المقاطعات لمدة (٢٤) ساعة ، وذلك كما حدث في سورية عام (١٩٤٧) ، ففي هذه البلاد يستعاض عن الاحصاء بالتخمين ، ولكن التخمين يختلف من شخص الى آخر حسب المدة التي قضاها الخبير في البلد الذي يريد معرفة عدد سكانه وحسب الطريق التي سلكها في تجواله والمعلومات التي جمعها عنها ، فالتخمينات التي جرت لتقدير عدد سكان جزيرة « مدغشقر » مثلا كانت تتراوح بين المليون والست ملايين ، حتى اذا ما جرى فيها احصاء حكومي منظم حدد عدد سكانها بـ (٣٠٧٠٠٠٠٠٠٠) نسمة .

وعدد سكان الأرض غير ثابت ورغم الأسباب الكثيرة التي من شأنها ان تنقص عدد السكان كالأوبئة (الطاعون والكوليرا الخ ..) ومصائب الطبيعة (كالزلازل وانفجار البراكين والمجاعات الناشئة عن انحباس الأمطار) ورغم الثورات والحروب (يقدر عدد القتلى في الحرب العالمية الثانية بـ «٣٤» مليون نسمة وعدد المشوهين بـ «٢٧» مليون نسمة) فان سكان الأرض في ازدياد مستمر . وقد اصبحت هذه الزيادة محسوسة منذ ابتداء القرن التاسع عشر . وحسب ما جاء في موسوعة « لوسيان فيفو Lucien Febver » عن عدد سكان الأرض نجد عددهم عام :

١٦٥٠	٤٦٥	مليون نسمة
١٧٥٠	٦٦٠	« «
١٨٥٠	١٠٩٨	« «
١٩٠٠	١٥٥١	« «
١٩٥٠	٢٤١١	« «
١٩٦١	٣٠١٢	« «

اذن ارتفع عدد سكان العالم الى اكثر من ستة أضعاف في مدة ثلاثة قرون كما انه ارتفع الى ثلاثة أمثال تقريباً خلال المائة سنة الأخيرة . ولم يزل هذا العدد يزداد بسرعة فائقة تدعو الى القلق .

وهذا مادعا بعض العلماء لطرح السؤال الآتي : كم تستطيع الأرض أن تستوعب من السكان ؟

ان على سطح الأرض مناطق فسيحة لم تستغل بعد ، وتقدم العلوم بما فيها الزراعية والكيميائية ، يساعد على تقوية التربة وزيادة الانتاج . ومما لاشك فيه ان ازدياد سكان الأرض لا يمكن أن يستمر حتى اللانهاية . غير اننا لم نزل في عصر يصعب علينا ان نفكر بتوقف هذه الزيادة قبل زمن بعيد جداً .

١- اسباب زيادة السكان :

تعتبر الآلة والطريقة العلمية العقلانية في الاستغلال السبب الرئيسي في هذا التزايد لما وضعت تحت تصرف الانسان من قدرات الطبيعة مثل البخار والكهرباء والبتترول والقدرة النووية ؛ هذه القدرات التي سببت تضخماً هائلاً في الانتاج .

كما ان الطريقة العقلانية والتنظيم في جميع نواحي النشاط الاقتصادي زاد في كمية المواد المنتجة وعملا على ايجاد الوسائل المختلفة لتبادل الانتاج على مستوى علمي واسع .

٢ - التوزيع الجغرافي للسكان

اذا نظرنا الى توزيع السكان حسب المناطق الجغرافية نلاحظ أن الصفة البارزة فيه هي التفاوت الكبير في الكثافة بالنسبة للمناطق المختلفة . واذا أجرينا عملية حسابية بسيطة على الكثافات الكبيرة والمساحة التي تشغلها نجد أن $\frac{3}{1}$ السكان يزدحمون في مناطق لا تزيد مساحتها على $\frac{1}{10}$ مساحة الأرض الطافية . بينما نجد مناطق أخرى شبه خالية من السكان أو ذات كثافة متوسطة . ومن هنا نلاحظ الخطأ الكبير في الركون الى متوسط الكثافة ولا يمكن الوقوف على التوزيع الحقيقي للسكان الا بوضع مصورات خاصة للكثافة .

فالمناطق الغالبة من السكان هي التي تنقص الكثافة فيها عن نسمة واحدة في الكيلو متر المربع الواحد ، كالمناطق القطبية أو الصحارى (الصحراء الافريقية والصحراء العربية و صحراء كالا هاري والصحراء الاسترالية) أو الغابات الكبرى كالغابة العذراء في افريقية وأمريكا الجنوبية أو كالغابات الشمالية الباردة الكندية والسييرية .

وتعتبر المناطق نصف خالية اذا كانت كثافة سكانها تتراوح بين (١ و ١٠) نسمة في الكيلو متر المربع الواحد . كمنطق السهوب في الولايات

المتحدة وكندا وسيبيريا وأطراف الغابات الكبرى والمناطق الداخلية في
أستراليا وأمريكا الجنوبية .

أما المناطق الكثيفة السكان فنقسم الى ثلاثة أقسام :

١ — المناطق المنخفضة الكثافة وهي التي تتراوح كثافة السكان فيها
بين (١٠ و ٥٠) نسمة في الكيلو متر مربع كالولايات المتحدة والاتحاد
السوفييتي وبلاد الدومينيون وبعض مناطق افريقية .

٢ — المناطق المرتفعة الكثافة وتتراوح كثافة السكان فيها بين (٥٠ و
١٠٠) نسمة في الكيلو متر المربع كمنطقة أوروبا الوسطى والغربية والمنطقة
الساحلية في شرق الولايات المتحدة .

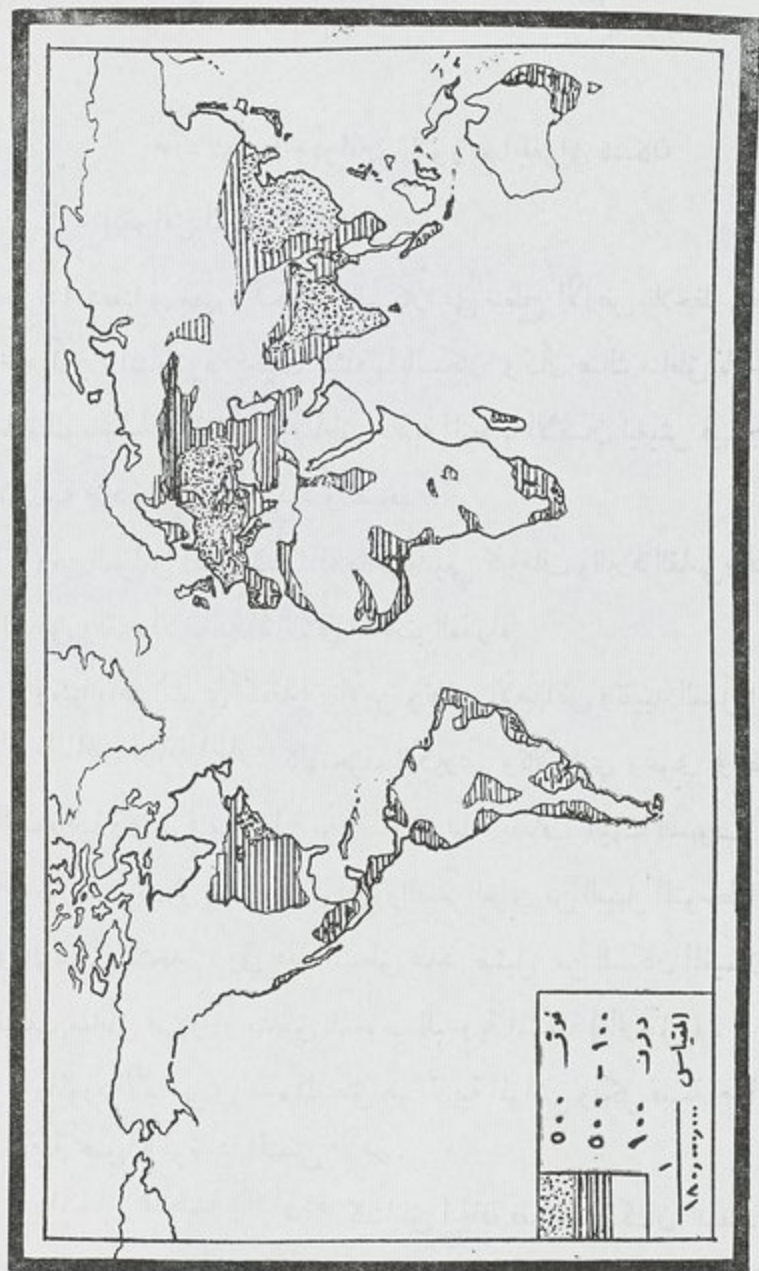
٣ — وأخيرا المناطق المزدحمة السكان ويتراوح عدد النفوس في الكيلو
متر المربع بين (١٠٠ و ٥٠٠) نسمة ، كالمرآكز الصناعية الكبرى (حوض
الروور ، ومنطقة ميدلانس والفلاندر) وبعض المناطق الصناعية في الولايات
المتحدة ودلتا النيل والدلتا الآسيوية ووديان الأنهار الكبرى في الصين
واليابان الخ ..

أما الكثافة في المدن الكبرى فتبلغ أحيانا حاداً هائلا قد يتجاوز (٦٥٠٠٠٠)
نسمة ، كما هي الحال في « أوزاكا » في اليابان كما يمكن أن يرتفع الى (١٠٠٠٠٠٠)
نسمة في الكيلو متر المربع الواحد ، كما هي الحال في بعض أحياء مدينة باريس

Pré st gervais

هذا ونجد ضمن المنطقة الواحدة ، من المناطق التي ذكرناها ، أما كن تختلف

بكتافتها اختلافاً كبيراً . ففي الهند مثلاً نجد فرقاً كبيراً بين وادي الغانج
والسواحل الغاصة بالسكان وبين هضبة « الدكان » المنخفضة الكثافة . كذلك
الأمر في اليابان حيث نجد البون شاسعاً بين السهول الصغيرة والمناطق الساحلية
المرتفعة الكثافة وبين مناطق الجبال الفقيرة بالنفوس . الشكل (٢٦) .



الشكل (٢٩) يمثل الشكل كثافة السكان موزعة على المناطق الجغرافية في العالم

٣ - شروط وقوانين التوزيع الجغرافي للسكان

أ - العوامل المعيقه للكثافة

إذا دققنا في مصور لكثافة السكان على سطح الأرض نلاحظ اختلافاً ظاهراً بين المناطق من حيث كثافتها بالسكان وكأن هناك مناطق نابذة غير قابلة لتوسع الحياة البشرية ومناطق جاذبة انتخبها الانسان ليعيش فيها جماعات متراسة مزدهمة لاتنفك تزداد وتتضخم .

ومن العوامل المعيقه للكثافة ماهو طبيعي كالجناف والبرد القاسي والارتفاع الشاهق والقوه الانباتية الهائلة في الغابات العذراء .

ومنها ماهو بشري كفقدان الأمن وتفشي الأمراض وتقييد النسل الخ.. فالمنطق الجافة الحارة كالصحراء الكبرى وكالاهاري وغوبي والصحراء الاسترالية وهذه جميعها خالية من الماء تقريباً . يضاف اليها السهوب القليلة الأمطار كسهوب تركستان والسودان والقسم الغربي من السهل المتوسط الكبير في الولايات المتحدة ، وفي هذه المناطق عدد ضئيل من السكان المقيمين لأنها تؤلف مناطق مرور أو مناطق الشعوب البدوية المتنقلة (الرحل) .

والمورد الأساسي في هذه المناطق هو تربية المواشي ولكل قبيلة مراعيها الخاصة تحميها بالقوة إذا اقتضى الأمر .

والمناطق القطبية الباردة كالمناطق الجافة فقيرة بالسكان بسبب البرد القارس الذي يتنافى مع الحياة البشرية والحياة النباتية . ولكن حدود المناطق

القطبية تختلف في نصفي الكرة ، ففي النصف الشمالي تمتد المنطقة القطبية بالقرب من حدود القارات ويقع في هذه المنطقة عدد قليل من السكان «اللابون» و«الصاموئيد» و«الاسكيمو» يتنقلون على مسافات شاسعة ويتقدمون أحياناً حتى درجة عرض (٨١°) في ملاحقة القمة . أما في النصف الجنوبي فلانجد سكاناً بعد أرض النار الاميركية بسبب اتساع المحيط المتجمد الجنوبي الذي فصل القارة القطبية الجنوبية عن القارات المسكونة .

اما مناطق الغابات الكثيفة فهي قليلة السكان أيضاً وكثافتها متناسبة عكساً مع القوة الانباتية للأرض . فالغابات العنراء يصعب اكتساحها والنفوذ اليها ولا تصلح لسكنى الانسان . ولم تكتسح هذه الغابة الا في بعض الجزر كجزيرتي «سيلان» و «جاوا» . ولم تزل الغابات في كندا وسيبيريا تستر مساحات واسعة خالية من السكان تقريباً .

كذلك المناطق الجبلية العالية تكون غالباً قليلة السكان بسبب قانون تناقص الشروط الضرورية للحياة في الأماكن المرتفعة . ولا يستثنى من هذه القاعدة إلا جبال المنطقة المدارية كالمكسيك والحبشة . ولكن انتشار الصناعة والكهرباء زاد في كثافة المناطق الجبلية .

وإذا انتقلنا للبحار لانجد لها سكاناً دائماً الاقامة . غير أن الاحصاءات التي اجريت لبعض البحار أثبتت أن لبعضها حركة هائلة في الملاحه حتى لتعتبر تقريباً كأنها مسكونة طيلة أيام السنة ، وهكذا حسب أن كثافة النفوس في بحر الشمال تقرب من (١٦) نسمة في الكيلو متر المربع .

أما العوامل البشرية ومنها فقدان الامن فلها أهميتها أيضاً لأن الحروب

والقرصنة والسرقه والفتن الداخلية والثورات والحكم الفاسد كلها تدفع بالسكان على هجر المنطقة والنزوح عنها للتوطن في غيرها . كذلك الأمر عندما تكون المنطقة موبوءة بالامراض كمنطقة المستنقعات الايطالية حيث تعصف الملاريا بحياة الألو ف من السكان . وأخيراً من جملة العوامل البشرية تقييد النسل وقد أصبح شائعاً في جميع أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية كما انتشر ايضاً في المناطق المتحضرة من الاقاليم المعتدلة ، واتبعت طرائق خاصة من شأنها منع الحمل وتحديد النسل والتحكم فيه . حتى أن قضية النسل في بعض البلاد الأوروبية أضحت قضية حسابية اقتصادية كما أصبح هذا العامل من أهم الوسائل المؤدية الى تقليل عدد السكان والحد من نموه . غير ان جميع هذه العوامل قابلة للتبدل حسب الظروف وحسب درجة الحضارة .

والصفة العامة للمناطق القليلة الكثافة هي عدم الأنظام في توزيع السكان فيها لأنهم يعيشون غالباً في اماكن متفرقة متباعدة ، كالواحات الصحراوية والأودية الجبلية او القرى المنعزلة على امتداد الشواطئ القطبية أو في بعض جزر المحيطات .

ب - العوامل المساعدة على الكثافة

اكثر المناطق كثافة بالسكان هي أغناها بموارد الثروة الطبيعية ، فالتربة الخصبة والمناخ الملائم والأمطار المنتظمة تساعد على زيادة السكان باتباع طرق الزراعة الحثيثة . والمنطقة الواقعة بين مدار السرطان ودرجة عرض (٤٠°) شمالاً تتوفر فيها جميع هذه الشروط . فحرارتها كافية لنمو انواع عديدة من

النباتات كما ان أنهارها الكبرى لعبت دوراً هاماً في جذب البشر اليها كما هي الحال في مصر والهند والصين واليابان . أما في غير هذه الانحاء فالبشر تكاثروا في المناطق الجافة نوعاً ما غير انه استفاد من مياه الجبال المجاورة أو من المياه الباطنية السهلة الوصول كما في مناطق البحر الأبيض المتوسط .

يأتي بالدرجة الثانية وقوع المنطقة على الحدود بين منطقتين متممتين لبعضهما اقتصادياً كالمناطق الواقعة بين السهل والجبل أو بين الساحل والداخل ، وذلك بسبب التبادل التجاري الذي يحصل عادة في مثل هذه المناطق مما يزيد في كثافتها .

ومن العوامل المساعدة على الكثافة أيضاً إقامة نظام سياسي يحقق الامن والطمأنينة وينشر العدالة بين الناس ويهتم بالشؤون الصحية والاجتماعية والاقتصادية وذلك بوضع برامج يجري تحقيقها على مراحل معينة .

وأخيراً وأهم هذه العوامل جميعها قيام الثورة الصناعية التي تعتبر من اكبر العوامل في خلق الكثافات الأوروبية في المناطق الصناعية . وكان من شروط الصناعة في القرن التاسع عشر أن تكثف السكان بصورة خاصة على أحواض الفحم الحجري الذي كان مصدر القدرة الاساسي في هذا القرن . ولذا فخرطة الفحم تنطبق تمام الانطباق على خريطة المراكز الصناعية وتنتشر على امتداد الالتواءات الهرسينية .

كذلك تكثف السكان في النقاط التي يمكن ان تصلها المواد الاولية بسهولة كالموانئ ومصبات الأنهار والوديان والسهول . وفي مراكز توزيع المواد المصنوعة واما كن تجمع رؤوس الاموال .

ان تكاثف السكان هذا هو النموذج الحضارة الغربية المرتبط بحضارة الآلة والذي يختلف تمام الاختلاف عن التكاثر الآسيوي القائم على الحضارة الزراعية .

هذا وعلينا أن لا ننسى العامل النفساني الذي يلعب دوراً هاماً في توزيع السكان على سطح الأرض وقدماً قيل « الانسان يجذب الانسان » وذلك اما بعامل التقليد أو بقوة الغريزة الاجتماعية نرى الانسان يقيم ويعيش حيث أقام أمثاله حتى ولو كانت الشروط الطبيعية في المناطق المجاورة اكثر ملائمة لطبيعته .

جميع هذه العوامل قابلة للتبدل ايضاً ونخص بالذكر الكثافات الصناعية المتجمعة على احواض الفحم بسبب دخول انواع جديدة من القدرات كالكهرباء والبتروول أو بسبب القدرات الممكنة في المستقبل كالقدرة الناشئة عن أشعة الشمس أو عن المد والجزر او القدرة الذرية .

٤ - توزيع السكان حسب القارات

علينا ان نلاحظ في هذا التوزيع ثلاثة أسس هامة : المساحة وعدد السكان والكثافة الكيلو مترية .

أولاً - مساحة القارات بالكيلو متر المربع ومساحة كل قارة بالنسبة الى الأرض الطافية :

آسيا ٤١٦٩١٠٠٠٠ كم مما يساوي ٣١.٥٪ منها
آسيا باستثناء الاتحاد السوفياتي ٢٦٩٢٨٠٠٠ كم

امريكا	ك	٤٢,٥٤١,٠٠٠	د	٠.٣١,٦
افريقية	ك	٣٠,٢٩٠,٠٠٠	د	٠.٢١,٩
اروروبا	ك	١١,٤٢٤,٠٠٠	د	٠. ٨,٥
اوربا باستثناء الاتحاد السوفيتي	ك	٤,٩٥٣,٠٠٠	د	
اوقيانوسيا	ك	٨,٥٥٨,٠٠٠	د	٠. ٦,٤
الاتحاد السوفيتي	ك	٢٢,٤٠٢,٠٠٠	د	

نلاحظ من هذا الجدول ان قارتين كبيرتين لوحدهما (آسيا وامريكا) تعادلان ٠.٦٣١ من المجموع . وان اوروبا واوقيانوسيا لا تزيدان على ٠.١٥ من الارض الطافية .

ثانيا - عدد السكان بالنسبة لجداول الاحصاء لعام ١٩٦٠ :

آسيا باستثناء الاتحاد السوفيتي	١٦٧٩	٠.٥٦
اوروبا	٤٢٧	٠.١٤
امريكا	٤٠٥	٠.١٣
افريقية	٢٥٤	٠.٨,٤
اوقيانوسيا	١٥٦	٠.٠,٥
اتحاد سوفييتي	٢١٤٦٤	٠.٧,١

مجموع سكان الارض (٢٩٩٥) مليون نسمة . وقد ارتفع الرقم الى أكثر من (٣) مليارات نسمة عام ١٩٦١

نلاحظ من هذا الجدول أن نسبة عدد السكان في آسيا واوروبا تبلغ أكثر من ثلثي المجموع أي ٠.٧٠ . وبقية القارات (امريكا وافريقية واوقيانوسيا)

لا تتجاوز مجموعها ١ فقط أي ٣٠٪ من مجموع السكان .

ثالثاً الكثافة في الكيلو متر المربع

آسيا	٦٢	نسمة
أوروبا	٨٦	»
امريكا	١٠	»
افريقية	٨	»
اوقيانوسيا	٢	»
الاتحاد السوفيتي	١٠	»

أخذت الكثافة الكيلو مترية للقارات والاتحاد السوفيتي بالنسبة لعام ١٩٦٠ .
نلاحظ من هذا الجدول ان هناك قارتين مرتفعتي الكثافة هما اوروبا وآسيا
وثلاث قارات قليلة السكان هي امريكا وافريقية وأوقيانوسيا .

يقوم هذا التوازن العالمي في توزيع السكان في اواخر القرن التاسع عشر
واوائل القرن العشرين على التجارة والتبادل العالمي للمواد المتممة . فالقارات
الصغيرة هي القارات المستهلكة والقارات الكبيرة هي التي تمون بالادوات والمواد
المصنوعة . غير ان هذا التوازن على وشك الانهيار والمعضلة الكبرى هي
في ايجاد توازن جديد لتوزيع السكان في العالم وقد يؤول الى هلاك قسم
كبير من البشرية .

أما وقد رأينا توزيع السكان الجغرافي بالنسبة للقارات لندرس الآن مع
شيء من التفصيل بعض الكثافات الكبرى في العالم .

البحث الثاني

مناطق الكثافات البشرية الكبرى في العالم

أ - الهند

سكنت الهند منذ القديم ثم هوجت مرات عديدة من قبل اقوام آتية من آسيا الجافة أي من منطقة الواحات الى منطقة الأمطار الموسمية . وكانت هذه الأقوام مدفوعة بجاذبية الثروة النباتية التي تزداد غنى كلما تقدم الانسان نحو المناطق الغزيرة الأمطار

والهند من المناطق المرتفعة الكثافة إذ يبلغ عدد نفوسها حسب إحصاء عام (١٩٦٠) ٤٣٢٦٥ مليون نسمة وذلك باستثناء الباكستان . ومساحتها ٣٠٠٦٢٢٠ كم^٢ مما يجعل كثافتها المتوسطة (١٣٦) نسمة في الكيلو متر المربع الواحد . غير أن توزيع السكان والكثافة يختلفان بين منطقة وأخرى . إذ بينما تنحط الكثافة الى نسمتين في الكم^٢ في منطقة « راجبوتانا Radjpoutana » الواقعة في القسم المتوسط الغربي من الهند وإلى (١٥) نسمة في جبال كشمير نجدها ترتفع إلى (٤٠٠) في البنغال وإلى (٧٠٠) نسمة على الساحل الجنوبي الغربي في نهاية هضبة الدكان .

تتعلق هذه الكثافة بالدرجة الاولى بغنى المنطقة بالمحاصيل الزراعية أي بغزارة

الأمطار . ونجد في الهند مطابقة غربية بين مصور الأمطار ومصور كثافة السكان . غير أن هذه المطابقة غير تامة إذ أن الري الاصطناعي يصحح أحياناً قلة الأمطار . وما الكثافات المرتفعة على الساحل الشرقي إلا نتيجة انتشار السدود وأقنية الري . أما كثافات السهول فنشأت عن الآبار والأقنية .

هذا وتوزيع الأمطار على أشهر السنة من الأهمية ما لكيته وذلك لأن هذا التوزيع ينظم الانتاج ويحدد ، بالتالي ، كمية المواد الغذائية التي يمكن تأمينها للسكان .

والمناطق المرتفعة الكثافة في الهند هي في غالب الأحيان مناطق زراعة الأرز لاسيما في « الدكان » والدلتا الشرقية . ويمكن إنتاج محصولين للأرز في السنة في منطقة « البنغال » المحصول الأول بين تموز وايلول في الأراضي المرتفعة والثاني بين تشرين الثاني وكانون الثاني في الأراضي المنخفضة . ويلاحظ في مصور توزيع السكان في الهند تفوق الأرز على القمح في خلق الكثافات البشرية كما نجد أن أشد المناطق كثافة بالنفوس هي التي تزرع القمح الى جانب الأرز أو التي تعني أيضاً بزراعات مخصصة للتصدير كالتفاح والمطاط والكيينا كما هي الحال في مناطق « بيهار الشمالية » و « البنغال الشرقية » و « الساحل الجنوبي الغربي » الشكل (٣٠) .

ورغم المدن الكبرى المنتشرة بكثرة تعيش أغلبية السكان في القرى ولذا تبلغ نسبة سكان الأرياف ٩٠٪ من مجموع السكان . ونسبة زيادة السكان في الهند غير متناسبة مع كثرة الولادات وذلك بسبب وفيات الأطفال الهائلة .

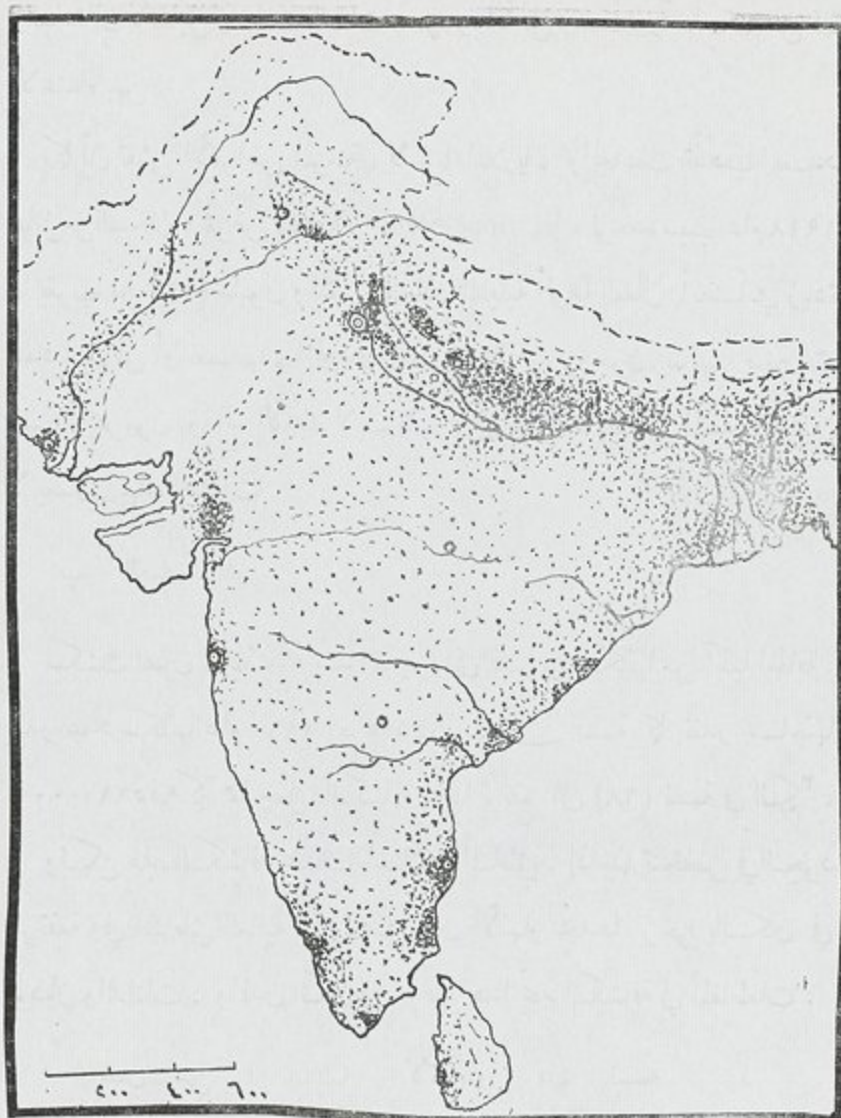
والعادة أن لاتقابل ولادات البنات بسرور الأهل وكثيراً ما يمتن من قلة الاعتناء بهن .

كما أن تفشي الأمراض المزمنة ، لاسيما الملاريا ، والمجاعات تذهب بعدد هائل من السكان ، فرض « النزلة الوافدة la grippe » لوحده سبب عام ١٩١٨ ما يقرب من (١٢) مليون وفاة . وللتعاليم الدينية أثرها الفعال أيضاً في زيادة عدد النفوس أو نقصاتها ؛ فالهندوس مثلاً الذين يزوجون بناتهم صغيرات السن ويحرمون زواج الأرملة لايتكاثرون بمثل ما يتكاثرون المسلمون الذين لا يعملون بهذه العادات .

ب - الصين .

سكنت الصين ، كالمند ، منذ القديم وأتى قسم من سكانها من آسيا الجافة . يقدر عدد سكانها عام ١٩٦٠ بـ ٦٤٦٠٥ مليون نسمة كما تقدر مساحتها بـ ٩١٥٦١٠٠٠٠ كم^٢ مما جعل الكثافة فيها ترتفع الى (٦٨) نسمة في الكم^٢ ، ولكن هذه الكثافة تختلف باختلاف المناطق . إذ بينما تنخفض في النجود المرتفعة وفي المناطق العالية التي تفصل بين الأنهار نجدها تزخر بالسكان في الوديان والدلتات . والمدن الكبرى . وعلى هذا نجد الكثافة في المقاطعات :

شان - سي	Chan - si	لا تتجاوز	٤٥	نسمة
وفي شين - سي	Chen - si	«	٣٣	«
وفي كوانغ - سي	Kouang - si	«	٢٥	«
وفي اليونان	Yuunan	«	٢٠	«



الشكل (٣٠)

يلاحظ في الشكل تكاثف السكان الشديد في مناطق الامطار الموسمية
وفي أحواض الانهار الكبرى ودلتاتها وفي الاماكن المروية اصطناعياً
كما في حوض البنجاب والساحل الجنوبي الشرقي

ينما هي ترتفع في بعض الأحواض الداخلية كسهل «شين - تو Tchong-Tou»
 في وسط مقاطعة «سه - تشوان Se-Tchouen» الى (٣٥٠) نسمة وتبلغ
 (١٤٧٥) نسمة في الكيلو متر المربع في جزيرة «تشون - مينغ Tchongming»



الشكل (٣١)

يمثل الشكل كثافة السكان الشديدة في أحواض الأنهار الكبرى
 وفي الدلتا وهي مناطق زراعة الارز ، كما تظهر في الشكل المدن ، التي يزيد
 عدد سكانها على (١٠٠,٠٠٠) نسمة . مقياس الخارطة (١/٢٠)

وهذا ما جعل الصين من أكبر بلاد الهجرة في آسيا .

ويشتغل القسم الأعظم من السكان بالزراعة . أما سكان المدن فعددهم ضئيل جداً إذ تقدر بـ ٦٪ فقط نسبة السكان التي تعيش في مدن تزيد نفوسها على (٥٠) ألف نسمة و ٦٪ أيضاً نسبة السكان التي تعيش في مدن يتراوح عدد سكانها بين (١٠) آلاف و (٥٠) ألف نسمة . والباقي وهو ٨٨٪ من السكان يعيشون في القرى والآرياف ، انظر الشكل (٣١) .

غير أن نسبة زيادة السكان في الصين لا تتناسب مع الموارد الغذائية ولا مع العادات الاجتماعية والدينية المتبعة ؛ [جوائز تعطى للأسر عند كل ولادة و ضرائب على الرجل والمرأة العذب] ، ثم عادة الزواج الباكر والإكثار من النسل ؛ وذلك بسبب وفيات الأطفال التي تشابه بارتفاع نسبتها ما ذكرناه في الهند . يضاف الى ذلك عدم الاعتناء بقواعد الصحة واستعمال الأفيون والأوبئة والأمراض المزمنة والمجاعات التي تنوأل بسبب قلة الأمطار في بعض السنوات . هذا وسكان الصين في المناطق المجاورة للأنهار الكبيرة معرضون الى مصائب عديدة كفيضانات الأنهار لاسيما النهر الأصفر ، والأعاصير والزلازل . والخلاصة ، فالصين من البلاد التي كأن الحياة فيها تنبت من الأرض ولكنها تعود الى الأرض بنفس السرعة التي خرجت منها .

ج - حوض البحر الأبيض المتوسط .

تؤلف شواطئ البحر الأبيض المتوسط مرا كز هامة لكثافة السكان غير

أنها أقل ضخامة من الهند والصين وتختلف عنها ببعض الصفات . لاشك أن العامل الأساسي في الكثافة واحد هو غنى الأرض بالموارد الزراعية الغذائية ، لكن المبدأ في كثافة النفوس في حوض البحر الأبيض المتوسط هو زراعة الأشجار المثمرة وكانت في الأصل زراعة أشجار الزيتون والتين والكرمة . وأحسن المناطق لمثل هذه الزراعات هي الأرض الجافة التي تروي اصطناعياً . وأكثر المناطق كثافة في حوض المتوسط هي السهول الشاطئية المستندة الى الجبال الساحلية المرتفعة حيث تقوم الزراعة على السفوح المدرجة والمحمية من الرياح الباردة والجافة التي تهب من الداخل . يلي ذلك المناطق الجبلية المتوسطة الارتفاع بين ٢٠٠ - ٤٠٠ م الصالحة لزراعة الأشجار . وأخيراً السهول المنخفضة التي تسقى بمياه الجبال القريبة منها كسهل «البقاع» وسهل «الووسيون» وسهل «غوناطة» .

وكان للانسان الفضل الاكبر في توزيع السكان وخلق مراكز الكثافة على حوض هذا البحر تارة بواسطة التجارة البحرية التي كانت بانتقالها من شاطيء الى شاطيء تعمل على تأسيس مراكز يتكاثف السكان حولها . وتارة ببحر المياه وتنظيم شبكة الري التي زادت في مساحة الأرض المنتجة التي تستطيع أن تؤمن المواد الغذائية لعدد كبير من السكان .

د - الكثافات الاوروبية .

بينما قامت الكثافات الاسيوية على أساس زراعي صرف تمتد بين درجتي عرض (١٠° و ٤٠°) شمالاً نجد العامل الأساسي في الكثافات الاوروبية إلى

جانبا وفرة المواد الغذائية النباتية وتربية المواشي يتمثل في الصناعة الكبرى . كما أن موقع أوروبا الجغرافي وكثرة التعاريج على شواطئها سهل المواصلات التجارية بين أقطارها المختلفة وبينها وبين بقية العالم . وهذا ما ساعد على إيجاد ثروات جديدة . وهكذا فقد ارتفع عدد السكان في أوروبا من (١٧٥) مليون نسمة في أوائل القرن التاسع عشر الى (٤٢٧) مليون عام ١٩٦٠ باستثناء الاتحاد السوفيتي مما يجعل الكثافة المتوسطة (٨٦) نسمة في الكيلومتر المربع . غير أن الكثافة هنا أيضاً تختلف من منطقة الى أخرى وهي منخفضة في أوروبا الشمالية والشرقية ومرتفعة في أوروبا الوسطى والغربية لاسيما في المناطق الصناعية؛ فقد بلغت الكثافة في ألمانيا الغربية ٢١٥ نسمة وفي بلجيكا (٣٠٠) نسمة وفي محافظة الشمال في فرنسا (٣٤٧) وارتفعت في لانكشاير الى (١١٤٢) نسمة وفي برلين الغربية الى ٤٥٨٢ علاوة على ذلك بلغ انتشار المدن في أوروبا حداً كبيراً مثلاً في انكلترا لوحدها يوجد (٤٠) مدينة تزيد نفوس كل منها على (١٠٠) الف نسمة يقابل ذلك في الهند (٣٣) مدينة فقط .

٥ - الولايات المتحدة -

الولايات المتحدة بلاد جديدة لأن استعمارها لم يبدأ حقيقة الا في أوائل القرن الثامن عشر ، رغم ذلك أصبحت اليوم من مراكز الكثافات الكبرى في العالم . وقد ساعدت الظروف الولايات المتحدة لأنها ظهرت في عصر أخذ العلم فيه يقلب طرق الانتاج رأساً على عقب فاستفادت من هذه الفرصة ، وأخذت في سرعة تطورها تنهب المراحل نهباً وتعتمد الى استغلال جميع مواردها

الطبيعية مستخدمة في سبيل ذلك أقوى وأحدث الوسائل الفنية وقد تسارع الناس من جميع الأقطار ، لاسيما من اوروبا الغاصة بالسكان والتي كانت مسرحاً للمنازعات الداخلية ، الى استغلال هذه الثروات والافادة منها وهكذا فقد ازدادت النفوس في الولايات المتحدة وارتفعت من (٥٠٣٠٨٦٠٠٠) نسمة عام ١٨٠٠ الى (١٨٠٠٦٧٥٠٠٠٠) نسمة عام ١٩٦٠ . مما يجعل الكثافة المتوسطة فيها (١٩) نسمة في الكيلو متر المربع . وهي كما نرى كثافة ضئيلة اذا ما قورنت بالكثافات الاسيوية او الاوروبية . وهي أيضاً تختلف حسب المناطق . إذ بينما هي تنحط الى (٠٦٣) نسمة في « النفاذا » ترتفع الى (٨) نسمة في التكساس والى (٨١) في « بنسلفانيا » و (١٩٨) في « الماساشوسيت » وتقفز الى (٢١٣) نسمة في « رودايلاند » .

وتتعلق هذه الكثافة طبعاً بالتضاريس والمناخ وإمكان استغلال الموارد الطبيعية زراعية وصناعية كأنها ترتبط مباشرة بتاريخ إعمار المنطقة بالسكان . ولهذا فالكثافة تتناقص بوجه الاجمال من الشرق الى الغرب . وعدد المدن الكبرى في الولايات المتحدة مرتفع جداً إذ كان فيها عام ١٩٣٠ :

٩٣ مدينة يزيد عدد سكان الواحدة منها على (١٠٠) ألف نسمة

٩٨ « يتراوح عدد سكان كل منها بين (١٠٠٠٥٠) »

١٩٥ « « « « « « « « (٥٠٠٢٥) »

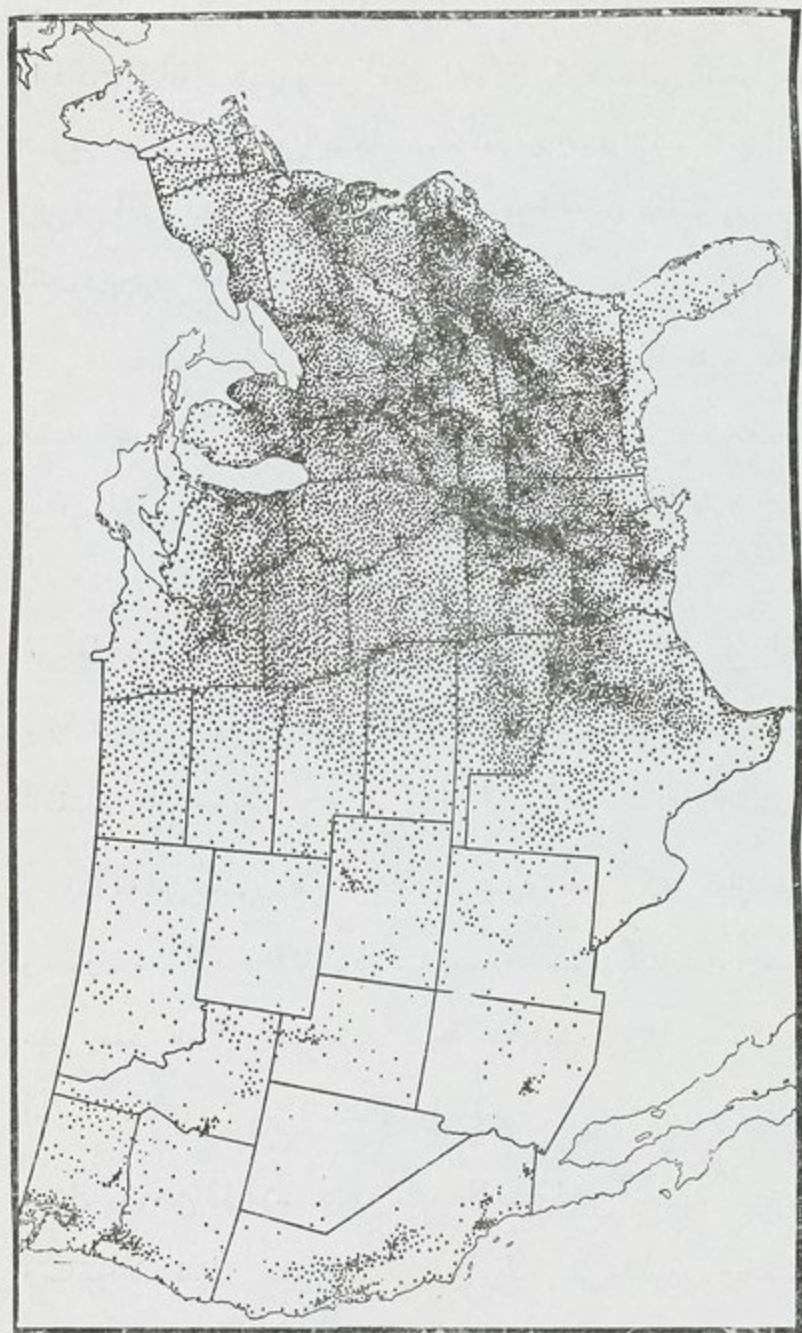
أما عدد السكان الذين يمتنون الزراعة فضئيل اذا ما قورن بعدد سكان المدن ؛ وحسب إحصاء عام ١٩٣٠ ارتفع عدد السكان الذين يعملون في الزراعة الى (٣٠٦١٥٨٦٠٠٠) نسمة أي ٢٥٪ من مجموع سكان الولايات المتحدة . أما

اليوم فنسبة عدد السكان الذين يمتنون الزراعة لا تزيد على ١٨٦٨٪ من المجموع بينما ٣١٦٥٪ يعملون في الصناعة والباقي وقدره ٤٩٦٧٪ يعملون في التجارة والنقل والادارة والمهن الحرة .

وزيادة السكان هذه ، كانت ناشئة في بادئ الأمر ، عن الهجرة أكثر مما هي عن زيادة المواليد الضعيفة في الولايات الشرقية القديمة . والقوانين الجديدة التي تحد من الهجرة اليوم ستخفف حتماً من تزايد السكان السريع ، الشكل (٣٢) .

– تنقل مراكز الكثافة

تنتقل مراكز الكثافة البشرية بسرعة وهي دوماً بحالة تطور مستمر . وليس من منطقة على سطح الأرض نستطيع أن نجزم بأنها لن تسكن أبداً كما ليس من بلد يضمن بأنه لن يتأثر بالعوامل المختلفة التي من شأنها أن تقلل من عدد السكان . والأسباب الأساسية في تنقل مراكز الكثافة هي أسباب بشرية . أما العوامل الطبيعية التي تدعو البشر للتكاثف في منطقة من المناطق فتختلف أهميتها حسب حاجات الزمن وحسب درجة الحضارة . وهكذا فأهمية الموقع الجغرافي في تغير مستمر . وذلك لأن التيارات والطرق التجارية تنحرف عن مواضعها الأصلية كلما حفرت ترعة جديدة أو فتح نفق جديد أو كلما مد خط حديدي أو حفرت قناة جديدة . وهكذا فالطريق المطروقة بالأمس قد تصبح اليوم مهملة خالية . كذلك لكل شكل من أشكال التضاريس أهمية قد تختلف مع الزمن . فالجبال مثلاً التي كانت قديماً تعتبر كلاجيء للناس يحمون بها تخلصاً من غارات الأعداء ودفاعاً عن النفس أهملت



الشكل - (٣٢) يتل الشكل السكان الزراعيين في الولايات المتحدة عام «١٩٣٠» وكل نقطة من هذا الشكل ترمز الى «٢٥,٠٠٠» نسمة.

وهجرت لعدم صلاحها للزراعة ولصعوبة المواصلات فيها . ثم عاد إليها نشاطها وازدادت كثافة سكانها بفضل القوى المحركة الكهربائية التي تنتجها أنهارها السريعة الجريان والتي يمكن ايصالها بسهولة تامة الى جميع المناطق . أما السهول وهي من أغنى المناطق للاستغلال الزراعي في أيام السلم ، تنقلب إلى ميادين للقتال ويهجرها سكانها في أيام الحروب .

والقيمة الزراعية لمنطقة من المناطق لم تعد خاضعة فقط للقوة الانبثاقية الطبيعية للتربة ؛ وذلك لأن الأرض مهما كانت قليلة الخصب يمكن تحسينها بما يضاف إليها من الأسمدة والمواد المبتكرة إليها . كما لا توجد أية علاقة بين قيمة الأرض الزراعية وبين مؤهلاتها المعدنية والصناعية .

هذا وكان لظهور الصناعة الكبرى ، كما رأينا ، أكبر الأثر في اختلال توازن مناطق مجموعها والتوازن الجديد الناتج يبقى دوماً تحت رحمة كل اكتشاف علمي جديد .

ولذا فالناس يفتشون عن البلاد التي تحتوي على أكبر موارد الثروة ويفضلون بينها الأصلح التي تتوفر فيها جميع حاجاتهم التي تختلف من عصر إلى عصر حسب تغير أذواقهم وحسب درجة حضارتهم ؛ وكلما اختلفت هذه الحاجات تنقلت مراكز الكثافة بفعل الهجرة .

فاذا ما توصل العلم للاستفادة من مادة ، لا قيمة لها في الماضي ، أسرع الناس وتسابقوا لاستغلالها . يقابل ذلك أن الرق والأمراض والحروب وعادة شرب

الكحول ، التي أتى بها الاوروبيون ، قضت على شعوب بأسرها .
وأخيراً يمكن القول إن اختلاف عدد الولادات والوفيات حسب حيوية
الشعوب وحسب تطلبها لوسائل الرفاه المادية واتباعها قواعد علم الصحة من
شأنها جميعها أن تسبب مع الزمن تنقل مراكز الكثافة .



الفصل الحادي عشر

حركات السكان

الولادات والوفيات وأثرها في تطور عدد السكان

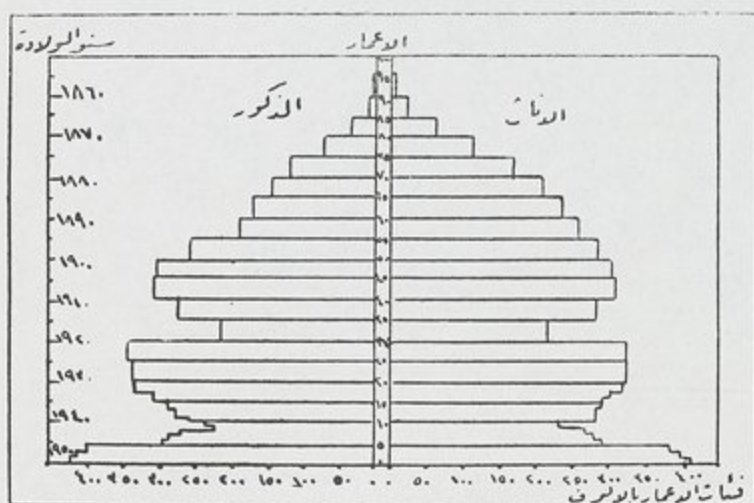
١ - الولادات

يمكن معرفة أثر الولادات والوفيات في بلد ما بالنسبة للرقم المطلق للولادات والوفيات فيقال مثلاً : بلغ عدد الولادات في سورية عام (١٩٦١) ١٢٤٦٦٠٥ وبلغت الوفيات في نفس السنة ٢٤٦٤٠١ . وبطرح هذين الرقمين من بعضهما يمكن أن يستنتج فيما إذا كان عدد السكان في تقص أم في ازدياد ، غير أن هذه الأرقام لا تدل على درجة حيوية السكان . والأفضل أن نحسب عدد الولادات وعدد الوفيات بالنسبة لعدد السكان وأن نرجع هذه النسبة إلى (١٠٠٠) فنقول مثلاً : كانت نسبة الولادات في سورية عام ١٩٦١ : ٢٥ بالألف كذلك كانت نسبة الوفيات في نفس العام : ٥^(١) بالألف .

(١) يظهر أن هذا الرقم بعيد عن الواقع وذلك لكثرة عدد المكتومين .

رغم أن هذه النسبة تدل على حيوية أمة من الأمم بارتفاع عدد موالدها فهي غير نهائية ويمكن أن يتساوى بلدان بعدد السكان وأن يكون لها نفس نسبة المواليد والوفيات وأن يكونان مختلفين بالنسبة لحيوية شعبيهما ؛ وذلك بأن يكون لدى الواحد عدد وافر من الشيوخ والمسنين وعدد ضئيل من الشباب والفتيان ؛ بينما يكون لدى البلد الثاني عدد وافر من الشباب والفتيان وعدد ضئيل من الشيوخ والمسنين . ومن البديهي عندئذ أن يكون لدى البلد الأخير عدد أكبر ممن يستطيعون في المستقبل ، بفضل الزواج ، أن يؤلفوا أسراً تنجب عدداً أوفر من الأولاد .

ولهذا يستحسن أن نعرف عدد السكان موزعين حسب الفئات المختلفة من

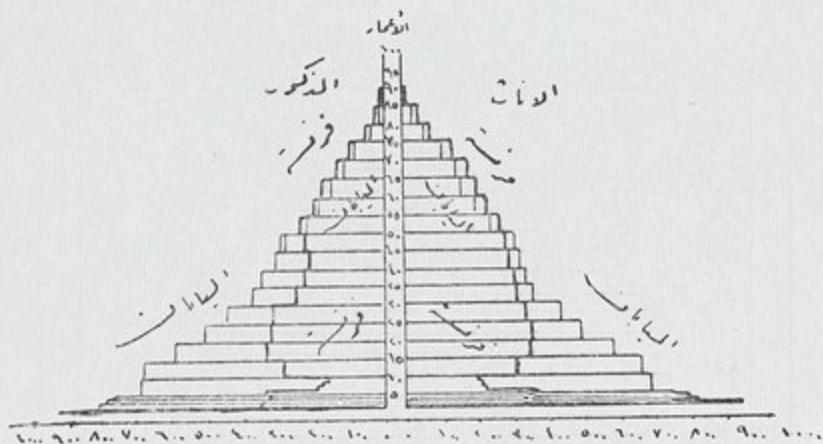


الشكل - (٣٣) أهرام الاعمار لفرنسا . عام (١٩١٥) ويرى فيه قاعدة الهرم الضيقة مما يدل على قلة المولودية بينما يتسع الهرم من وسطه ومن أعلاه مما يدل على عدد الكهول والشيوخ الضخم . عن ع . اليافي .

العمر . ويمكن تفهم ذلك بسهولة بواسطة ما يسميه علماء الاحصاء بأهرامات
الاعمار ، الشكل (٣٣) .

تؤلف كل درجة من درجات الاهرام مجموعة من السكان لها عمر معين
يتراوح بين السنة والخمس سنوات للدرجة الاولى وبين الخمس والعشر سنوات
للدرجة الثانية وبين العشر والخمس عشرة سنة للدرجة الثالثة وهكذا الخ .. كما
أن كل شخص في الاهرام يمثل عدداً معيناً ثابتاً (١٠) آلاف أو (٢٠) ألف
نسمة ويتخذ وحدة لرسم الاهرام .

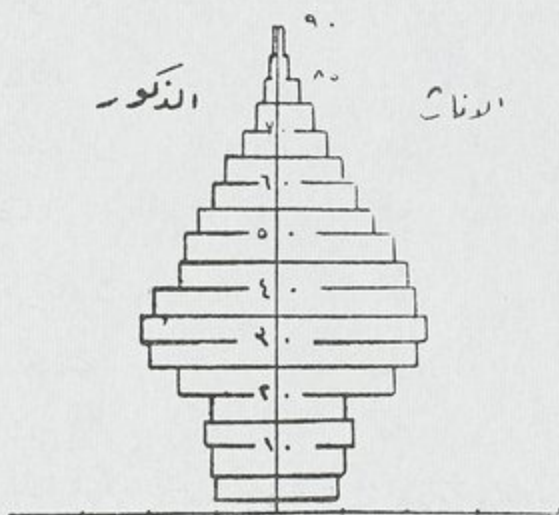
ففي البلدان التي تنصف شعوبها بجموية قوية نجد عدداً وافراً من الأطفال
يتمثلون في قاعدة الهرم وعدداً متوسطاً من الشباب في الوسط وعدداً ضئيلاً



الشكل - (٣٤) : اهرامان للاعمار لعام ١٩٢٦ الواحد لفرنسا والثاني لليابان طبقاً على
على بعضها لسهولة المقارنة بين الهرمين . عن ع . الياباني

من الشيوخ في أعلى الهرم . كما تكون عقود الزواج وعدد الولادات مرتفعة
بينما يهبط عدد الوفيات ، الشكل (٣٤) .

أما في البلدان التي تتميز شعوبها بضعف الحيوية نجد شكل أهرامات الأعمار فيها يختلف عن السابق إذ تضيق قاعدة الهرم لقلة عدد الأطفال بينما يتسع الهرم من وسطه ومن اعلاه لوفرة عدد الكهول والمسنين . وإذا ما أحصينا عقود الزواج وعدد الولادات في مثل هذه البلدان نجدها قليلة بينما يرتفع عدد الوفيات . وأهرامات الأعمار في المدن الكبرى تشابه إلى حد بعيد أهرامات البلاد الضعيفة الحيوية ، الشكل (٣٥) .



الشكل - (٣٥) أهرام الأعمار لمدينة باريس عام ١٩٣٦ وهو مثال تقليدي لأعمار السكان في المدن الكبرى . يرى فيه العدد القليل للأطفال في قاعدة الهرم وعدد الكهول الكبير في وسطه

وتتأثر نسبة الولادات في بلد ما بعوامل كثيرة اخلاقية واجتماعية ودينية وعضوية ودراسة هذه العوامل تعود لعلم الأخلاق ولعلم الاجتماع والطب أكثر

مما تعود لعلم الجغرافية . ولكن يمكن ، بصورة عامة ، ان يقال ان نسبة عدد
الولادات لبلد ما متناسبه عكساً مع درجة الحضارة ولذا فالبلاد المتأخرة بحضارتها
تفوق فيها نسبة الولادات ، البلاد المتقدمة في الحضارة .
وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم الدول بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٥٨
- ١٩٦٠) حسب نسبة الولادات فيها الى : بلاد كثيرة الولادات تزيد فيها
النسبة على ٠.٣٠٪ :

١ - بعض البلاد ن الاسيوية والافريقية :

— الهند : ٣٤ بالآلف

» — اتحاد ماليزيا : ٤٣

» — غانا : ٥٢

٢ - امريكا اللاتينية :

» — المكسيك : ٤٤

» — الشيلي : ٣٥

بلاد متوسطة الولادات تتراوح فيها النسبة بين ٢٠ و ٠.٣٠٪ :

١ - بلاد البحر الأبيض المتوسط وبعض بلاد اوروبا الشرقية :

— اسبانيا : ٢١,٩ بالآلف

» — مالطة : ٢٦,٥

» — يولونيا : ٢٢,٤

» — يوغوسلافيا : ٢٣,٨

٢ - أمريكا وبعض بلاد الدومينيون :

الاسيويون	الزواج	البيض	
٣٥٦٤	٤٨٦٥	٢٥٦٥	- اتحاد جنوبي افريقية :
	٢٦٦٩		- كندا :
د	٢٣٦٦		- الولايات المتحدة :
	٢٢٦٤		- استرالية :

بلاد قليلة الولادات تهبط فيها النسبة الى اقل من ٠.٢٠٪

بالآلف	عام ١٩٦٠		
د	١٨٦٤	:	- فرنسا
د	١٧٦٧	:	- المانية
د	١٧٦٥	:	- آنكلترة
د	١٣٦٧	:	- السويد

أما مجموع عدد الولادات في العالم فكان قبل الحرب العالمية الثانية يقرب من (٤٠) مليون ولادة وبذلك يكون المتوسط العالمي ٠.١٨٦٧٪ .

غير ان الكتلة الكبرى من هذه الولادات تتجمع في الصين والهند (٢٠) مليون ولادة أي نصف عدد الولادات في العالم . يلي ذلك كتلة البلاد الاوروبية باستثناء الاتحاد السوفيتي وتبلغ (٨) ملايين ولادة . واخيراً كتلة الأتحاد السوفيتي وتبلغ (٥) ملايين ولادة . وبذلك يكون مجموع الولادات في آسيا واوروپة (٣٣) مليون من أصل (٤٠) مليون ولادة .

أثر الحرب العالمية الثانية على نسبة الولادات في البلاد المختلفة :

كان للحرب العالمية الثانية تأثير متفاوت على البلاد المختلفة . فالبلاد التي لم تتأثر « بالنظرية المالتوسية » بقيت فيها نسبة الولادات مرتفعة تفوق 0.30% . وأحياناً تتجاوز 0.40% كالبلاد الإسلامية ، مصر مثلاً (0.426% عام ١٩٤٥ تونس 0.469% عام ١٩٥٩ وأمريكا اللاتينية (المكسيك 0.459% عام) الشيلي 0.354% عام ١٩٦٠ والهند (0.266%) .

أما البلاد المتأثرة بنظرية مالتوس والمناطق المجاورة لها فكان تأثير الحرب عليها متفاوتاً .

أولاً — قبضت نسبة الولادات بالألف في بلاد البحر الأبيض المتوسط ففي ايطالية بلغت النسبة 0.185% عام ١٩٦٠ بعد ان كانت قبل الحرب 0.237% . وبلغت في اسبانية 0.219% بعد ان كانت 0.269% . ونلاحظ نفس الاتجاه في البرتغال واليونان .

ثانياً — بعكس الحالة الاولى نلاحظ ارتفاع نسبة الولادات في بلاد أوروبا الغربية والشمالية كانكلترا وسويسره وبلجيكا والوكسمبورغ والسويد والنرويج والدانمرك حتى تجاوزت نسبة الولادات 0.20% ثم اخذت تهبط شيئاً فشيئاً في الوقت الحاضر الى أقل من هذه النسبة بشيء قليل ، اما في المانيا والنمسا وفرنسا وهولندا فقد بقيت النسبة حتى اليوم مرتفعة وتجاوزت 0.17% .

ولعل السبب في هذه الظفرة في بلاد أوروبا الغربية والشمالية امر طبيعي غايته استعادة ما فقدت هذه البلاد من السكان بسبب الحرب . على اننا لا ننكر لما للسياسة اغخاصة المتبعة في البلاد الاوروبية اليوم في تشجيع الزواج وزيادة النسل من اثر كبير في زيادة المواليد . وتتلخص هذه السياسة بمنح علاوات للعمال والمواطنين تختلف قلة وكثرة باختلاف عدد الاطفال . واعفاء الاسرة التي تضم افراداً كثيرين من ضرائب الدخل والميراث والارباح . ومنح الامهات والاطفال امتيازات خاصة على جميع وسائل النقل والمواصلات . وتفضيل افراد الاسرة الكثيرة العدد على غيرهم في الوظائف والعمل ومنحهم مرتبات خاصة ايام البطالة . وأخيراً بفرض ضريبة على العزب مما حمل الكثيرين على الزواج ورغبتهم بالنسل وطمانتهم على اولادهم لان الدولة تشترك معهم في نفقات ابنائهم .

٢ - الوفيات :

تعتبر الوفيات من العوامل الهامة المعدلة لحجم السكان . وهي بنفس الوقت تؤثر على تركيب المجتمع من حيث الاعمار المختلفة او السائدة فيه . فتناقص عدد الوفيات مثلاً من شأنه ان يزيد بعدد المسنين وينقص من عدد الشباب . وبذلك ينشأ مجتمع متوازن جديد يجب ان تتوفر فيه المستشفيات حتى يفوق عددها عدد المدارس .

واذا اردنا ان نصنف البلدان حسب نسبة الوفيات فيها ولناخذ مثلاً الفترة بين عام (١٩٣١ - ١٩٣٥) نجد :

١ - بلاداً كثيرة الوفيات حيث ترتفع فيها النسبة الى اكثر من ٢٠ بالالف

وهي ذات البلاد الكثيرة الولادات التي ذكرناها سابقاً :

الهند ٢٣٦٥ بالالف مصر ٢٠ بالالف
بعض دول أوروبا الشرقية :

الانحد السوفيتي ٢٤٦٥
وامريكا اللاتينية :

الشيلي ٢٤٦٢

٢ - بلاداً متوسطة الوفيات حيث تتراوح النسبة فيها بين ١٥ و ٢٠ بالالف
كبلاد أوروبا الوسطى وبعض دول أوروبا الشرقية :

هنغاريا ١٥٠٨ بالالف

فرنسا ١٥٦٢

٣ - وبلاداً قليلة الوفيات حيث تهبط فيها النسبة الى اقل من ١٥ بالالف كبلاد
أوروبا الغربية والشمالية وبعض دول أوروبا الوسطى .

المانيا ١١٦٢ بالالف

انكلترة ١٢٦٢

السويد ١١٦٦

وكالبلاد الجديدة مثل الولايات المتحدة والدومينيون :

الولايات المتحدة ١٠٠٩ بالالف

استراليا ٩

زيلندة الجديدة ٨٦٢

وهذه البلاد الاخيرة هي بلاد المهجر فيها عدد كبير من الشباب بالاضافة الى

مناخها الطيب والى توفر احسن الشروط الصحية واكملها .
 اما مجموع عدد الوفيات في العالم فقد بلغ في نفس هذه الفترة (٢٨) مليون
 نسمة في السنة . القسم الاعظم من هذا الرقم آت من البلاد الكثيفة السكان :

الصين	٧	ملايين وفاة
الهند	٦	» »
اوروبا (باستثناء روسيا)	٥٦٣	» »
الاتحاد السوفياتي	٢٤٣	» »

أما نسبة الوفيات في الوقت الحاضر فقد هبطت هبوطاً كبيراً في معظم
 بلدان العالم وذلك لانتشار الوعي الصحي وتقدم الطب وانتشار العلاجات
 الناجحة مثل البنسيلين والسولفاميدات التي تحول دون انتشار الميكروبات
 وتساعد على الشفاء . وحسب جداول الاحصاء نجد ان نسبة الوفيات لعام
 ١٩٦٠ هبطت الى :

٧٠١	في الاتحاد السوفياتي	١٠	في السويد
٧٠٦	في اليابان	١١٠٢	في الشيلي
٨٤١	في الارجننتين	١١٠٤	في فرنسا
٨٤٦	في استراليا	١١٠٥	في انكلترا
٨٠٩	في فنلندا	١١٠٧	في المكسيك
٩٠٢	في تشيكوسلوفاكيا	١٢٠٧	في النمسا
٩٠٥	في الولايات المتحدة	١٢٠٩	في بلجيكا
٩٠٧	في سويسرة		

يلاحظ أيضاً أن نسبة الوفيات مرتفعة في عدد من البلدان الراقية مثل فرنسا وانكلترا والنمسا وبلجيكا والسويد وسويسرة . ان الوفيات في مثل هذه البلدان هي نتيجة في معظمها عن الهرم والشيخوخة . لاعن فقدان العناية الصحية وتأخر الطب .

وللوفيات اسباب عديدة اهمها سوء الحالة الصحية وعدم اتباع علم الصحة في البلاد الاسيوية . والحالة الصحية متناسبة طردأ مع تقدم الحضارة . يأتي في الدرجة الثانية مصائب الطبيعة كأنجاس الامطار مما يسبب المجاعات الخيفة، والزلازل وفيضان الانهار الكبرى ، والامراض الوبائية . كذلك الحروب والفتن الداخلية اذ قضت الحرب العالمية الاولى والثانية معاً على اكثر من (٤٤) مليون نسمة . على ان طول الحياة غير متوقف فقط على اتباع القواعد الصحية وحسن التغذية والاطمئنان الاجتماعي (راحة الضمير وفقدان الهموم ورفاه الحياة) وإنما يتعلق ايضاً بالاصطفاء الجنسي .

هذا وكان للحرب العالمية الثانية أثر كبير في تقليل عدد الوفيات بسبب تقدم وانتشار قواعد الصحة الاجتماعية لاسيما في بلاد اوروبا القارية وبلاد حوض البحر الابيض المتوسط . وفي بلاد امريكا الجنوبية والهند . أما البلاد السكندنافية والانكلو - ساكسونية فكانت السبابة في هذا المضمار وقواعد الصحة العالمية كانت منتشرة فيها قبل الحرب .

٨ - الاتجاه العام في تطور عدد السكان في العالم

اذا طرحنا عدد الوفيات من عدد المواليد في غضون سنة كاملة لبلد ما حصلنا

على عدد زيادة السكان في هذا البلد . غير أن هذا الرقم لا يوحى بشيء عن حيوية الشعب . والافضل حساب نسبة الزيادة ونحصل عليها بطرح نسبة الوفيات من نسبة المواليد . وهي ادل في معرفة اتجاه حركة السكان من معرفة الرقم المطلق للزيادة . على أن نسبة الزيادة نفسها لا تكفي ويجب ، لمعرفة الاتجاه الصحيح للسكان ، الرجوع الى اهرامات الاعمار لمعرفة فئاتها المختلفة . هذا ويمكن بالاعتماد على نسبة الزيادة تقسيم البلاد المختلفة ، في الوقت الحاضر ١٩٦٠ الى :

١ - بلاد نسبة الزيادة فيها مرتفعة ؛ اي تزيد على ١٠ بالألف مثل آسيا وأوروبا الشرقية ومصر وأمريكا اللاتينية . وذلك ناشئ اما عن ارتفاع نسبة الولادات بالرغم من ارتفاع نسبة الوفيات (روسيا مثلا حيث تبلغ نسبة الزيادة ٢٠ بالألف) واما نسبة ولادات متوسطة ونسبة وفيات منخفضة مثل هولنده : (٢١٦٢ - ٨٥٩ = ١٢٧٣) .

٢ - بلاد نسبة الزيادة فيها متوسطة : تتراوح بين ٥ الى ١٠ بالألف كأوروبا الشمالية والغربية والوسطى والجنوبية وبعض بلاد الدومينيون . وهذا ناشئ عن نسبة متوسطة في الولادات ونسبة منخفضة في الوفيات .

٣ - بلاد نسبة الزيادة فيها منخفضة أي أقل من ٥ بالألف مثل النمسا ٠.٢٪ وإيكوسيا ٠.٢٪ واراندا الشمالية ٠.٣٪ وذلك بسبب نسبة منخفضة في الولادات ونسبة متوسطة في الوفيات .

٤٠ - بلاد نسبة الزيادة فيها سالبة .

بسبب انخفاض نسبة الولادات وارتفاع نسبة الوفيات مثل فرنسا في عام ١٩٣٨ : (١٤٠٦ - ١٥٥٤ = - ٠٠٨) . أو كما هي الحال الحاضرة في جزيرة غوام guam إذ تبلغ نسبة الزيادة - ٥ وفي أيرلنده - ٦ وفي ألمانيا الشرقية - ٧ وفي برلين الشرقية - ١٣ (لعامل الهجرة من برلين الشرقية الى برلين الغربية أثر كبير في هذا النقصان).

أما الزيادة المطلقة في العالم فكانت ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، تقرب من (١٤) مليون نسمة في السنة : أما اليوم فهي أكثر من (٥٠) مليون نسمة . واكبر البلاد التي تساهم الآن في هذه الزيادة هي :

١٥٦٠٠٠٠٠٠٠	+	:	الصين
١٢٠٠٠٠٠٠٠٠	+	:	الهند
٣٠٤١٦٠٠٠٠	+	:	أوروبا (باستثناء الاتحاد السوفياتي)
٣٠٦٣٨٠٠٠٠	+	:	الاتحاد السوفياتي
٩٣٠٠٠٠٠	+	:	اليابان
٣٠٠٦٠٠٠٠٠	+	:	الولايات المتحدة

يمكن الآن ، من مجموع دراستنا للسكان ، ان نخرج بالنتيجة الآتية : سكان العالم بازياد مستمر نتيجة تقدم علم الصحة والوقاية الطبية وانتشار التصنيع والزراعة الحديثة في بقاع كثيرة من العالم . ولا بد لكل بلد يزداد عدد سكانه عن الحد الملائم من ان يتعرض الى احدى حالات ثلاث :

١ - ان ينقبض على نفسه داخل حدوده وعندئذ يخضع « لقانون مالتوس » ، فيقضى على الزائد من السكان إما بفعل المجاعات او يضطر السكان لتخفيض سوية حياتهم .

٢ - ان يدفع الفائض من سكانه الى بلاد أُخرى إما حروباً فيستقر هذا الفائض في البلاد المفتوحة عنوة ٣ - وأما سلباً بواسطة الهجرة . وهكذا يرى ان للطبيعة قوانينها الخاصة في التوازن البشري فتنتقل الناس من البلاد الغاصة بالسكان الى البلاد المنخفضة الكثافة .

* * *

البحث الثاني

الهجرة

لمحة تاريخية

كانت الارض ، ولم نزل حتى اليوم ، ميداناً فسيحاً للشعوب في هجراتها وتنقلاتها الواسعة . واخذ البشر ، منذ أقدم العصور وابعدها ، يجوب أنحاء الارض ويفتش عن بقعة طيبة وفيرة الخيرات ليقم فيها . ويستطيع علماء ما قبل التاريخ بعد تحري ودراسة ماتبقى من آثار هذه الشعوب القديمة ، ان يكشفوا النقاب ويوضحوا لنا شيئاً عما كانت عليه هذه الهجرات .

وقد شاهدت البشرية منذ فجر التاريخ هجومات عنيفة وحروباً كبرى عديدة كاحتلال الهكسوس لمصر ، وهجوم العبرانيين على بلاد كنعان، ودخول « الدورين » منطقة « البلوبونيز Pélouponése » كما احتلت قبائل « الأزتيك Aztèque » ، في الطرف الآخر من العالم الجديد ، بلاد المكسيك واستولت قبائل « الهوفاس » الآتية من جزر الهند الشرقية ، على جزيرة مدغسقر وحكمتها . أما حوض البحر الابيض المتوسط فقد شاهد مزيجاً من الأمم تلاقى على سواحله وسكنها كالفينيقيين والاغريق الذين أسسوا مستعمرات كثيرة في نقاط عديدة من بلاد الساحل .

ثم أخذت آسيا ، منذ عهد سرخس الاول ملك الفرس ، تطغو على اوروبا
بينما نرى اوروبا ، في عهد الاسكندر الكبير ترد وتقتحم آسيا كما عمدت روما
الى ارسال جيوشها وموظفيها الى مستعمراتها .

ثم بدأت قبائل البربر (الهون والغوط والفرانك والواندال) بهجومها على
الامبراطورية الرومانية . وفي نفس الفترة من الزمن اجتاز « الموغول » سد
الصين الكبير ودخلوا البلاد وحكموها .

ولم تكن الهجرات الكبرى في العصور الوسطى ، اقل أهمية من هجرات
العصور القديمة . فقد اجتازت القبائل العربية ، بعد ان وحدها الاسلام ، حدود
الجزيرة واستولت على البلاد المجاورة كما غزت قبائل « النورمان » شواطئ
اوروبا الغربية وأقامت فيها ، ثم دخلت البحر الابيض المتوسط واستولت على
جزيرة « صقلية » . ثم بعد ذلك أتت الحروب الصليبية وتلتها فتوحات العثمانيين
وسقوط القسطنطينية عام (١٤٥٣) والاستيلاء على البلقان .

وأخيراً جاء عهد الاكتشافات الجغرافية ؛ عهد لعبت فيه اوروبا الدور
الأول حينما عثر البرتغاليون والاسبان والهولنديون في تفتيشهم عن طريق
جديدة للهند ، على قارة جديدة ، واخذت اوروبا تدفع بالفائض من سكانها الى
العالم الجديد . ثم امتدت الهجرة الى افريقية الشمالية والجنوبية والى استراليا ولم
تزل حتى يومنا هذا .

١ - اسباب الهجرة

الهجرة هي تحقيق لقانون التوازن الطبيعي في توزيع البشر على المناطق

المختلفة من سطح الأرض توزيعاً عددياً متناسباً مع وفرة المواد الغذائية التي يمكن للمنطقة ان تضمها بين ايدي السكان . وبذا ترجع اسباب الهجرة بمجموعها الى احد شيئين .

١ - ضغط من الداخل الى الخارج .

٢ - طلب من الخارج (ونداء الارض الخالية) .

غير ان لكل من هذا الضغط وهذا الطلب اشكالا مختلفة :

فالضغط مثلا يظهر اثر ازمة اقتصادية عاتية تجر وراءها شبح البطالة وما يتبعه من مصائب وضيق . يظهر كذلك أثر الاضطرابات السياسية او الدينية التي تسبب نزوح قسم كبير من السكان طوعاً أو كرهاً وذلك كما حدث في انكلترا في النزاع القائم بين الكاثوليك والبروتستانت . او كما حدث في فرنسا أثناء حروب الديانات بين الكاثوليك و « الالبيين » و « الفوديين »^(١) حيث التجأ من نجا من القتل الى البلاد المجاورة . وكما تقربنا من العصر الحاضر كلما تداخلت الأسباب السياسية في الأسباب الدينية او فاقتها . ففي عهد الثورة الفرنسية هاجر قسم كبير من الامراء والنبلاء ؛ ثم كان لكل عهد من العهود التي توالى بعد الثورة مهاجروه ومبعدهوه . كذلك كان من أثر السياسة التي اتبعتها انكلترا في اولئدة ان نزح قسم كبير من سكانها الى الولايات المتحدة .

(١) مؤسس هذه الطريقة « بطرس فالرو » في القرن الثاني عشر وقد قضى على

القسم الاكبر منهم في عهد فرنسوا الاول .

كما هاجر القسم الأكبر الاشتراكيين الألمان إلى أمريكا عندما أخذ « بسمارك » يطاردهم ويقسو عليهم . وهذا أيضاً ما كان من اضطهاد «النازية» لليهود في ألمانيا .

والحروب أيضاً من مظاهر الضغط كالحرب العالمية الأولى والثانية التي صعبتها وتبعتهما تنقلات هائلة بين السكان كمجيء الجيوش الجرارة من أطراف الأرض وتجمعها في أوروبا . وهرب مئات الألوف من السكان أمام زحف جيوش الأعداء وتهجير الملايين منهم من منطقة إلى أخرى على أثر توقيع معاهدات الصلح . واننا لنشاهد بأمرنا عيننا توافد اليهود والصيونيون من جميع بقاع الأرض إلى فلسطين الذبيحة بغية تأسيس دولة يهودية مسخ . ومما لا يقل عن ذلك أهمية تبادل السكان الذي يجري بين الدول أحياناً كما حدث بين تركيا واليونان بعد توقيع معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ .

تعتبر الكثافة المرتفعة من المظاهر الهامة للضغط الداخلي . فإذا ما ازدادت النفوس في منطقة حتى لم يعد إنتاجها من المواد الغذائية يكفي سكانها نرى قسماً منهم يهاجر إلى المناطق الغنية حيث يفيض المحصول عن حاجة السكان أو إلى المناطق التي تتطلب أيدي عاملة كثيرة . ويختلف الحد الأدنى أو الأعلى للكثافة المرتفعة حسب طراز الحياة كالرعي أو الزراعة الواسعة والحثيثة أو الصناعة ، وحسب استعمال الآلات في الصناعة أو الزراعة وحسب غنى التربة ووجود المواد المعدنية فيها . وأخيراً يختلف حسب صوية الحياة التي يتطلبها السكان وحسب الإقليم والفصول وعندما يبلغ الحد الأعلى يضطر بعض من يتألم من الضائقة أن يهاجر إلى بلد آخر حيث يأمل أن يحظى بشروط أنسب لمعيشته وسكنه .

اما الطلب من الخارج ونداء الارض الخالية فله ايضاً اشكاله المختلفة مثلاً نداء مناطق العالم الجديد « امريكا و استراليا » المعروفة بغناها وخيراتها الوفيرة او نداء المناطق الغنية بمعدن الذهب حيث يتوافد اليها الوف المفتشين عن هذا المعدن الثمين كما حدث في كاليفورنيا و الاسكا و سيبيريا و استراليا و جنوب افريقية . او نداء الاجور العالية كما هي الحال في منطقة الكويت و قطر و الحجاز حيث يتسابق اليها اليوم سكان البلاد العربية المجاورة او نداء مكاتب الدعاية لتنجير الناس الى مناطق معينة كما تفعل مكاتب الدعاية الاسرائيلية او مكاتب شركات الملاحة البحرية و الجوية .

وهناك عامل اخير له اثره الكبير في تاريخ الهجرات وهو حاجة الانسان الى الحركة و التنقل بأشكالها المختلفة ؛ و ما المعامرة و حب التغيير و الاطلاع و التسلية الا من طبائع البشر الاصيلة .

٢ - اشكال الهجرة

للهجرة أشكال مختلفة فهي إما حرة عن طوع و اختيار المهاجر نفسه و اما قسرية اجبارية . و قد تكون افرازية او جماعية و يكون المهاجر غالباً اما غير راض عن وضعه و مركزه الاجتماعي او أن له رأياً يغاير آراء المجتمع الذي هو فيه او انه يريد ان يحقق امنية عالية .. الخ . على أن هناك اقواماً هاجرت بمجموعها إطاعة لأوامر رؤسائها . و لكن اكثر المهاجرين في العصر الحاضر إنما هم افراد ذهبوا ليؤمنوا لانفسهم و أسرهم حياة أقل شقاء ان لم نقل اكثر رفاية من الحياة التي يعيشونها في بلادهم . و المهاجر الحقيقي هو من ترك وطنه الاصيلي و هو مصمم ان لا يعود اليه ، او على الاقل ان لا يعود اليه مدة حياته

النشطة . وكثيراً ما يؤول ذهابه هذا الى تغيير مكان اقامته نهائياً .
على أن للهجرة أنواعاً أخرى كالهجرة الموقنة حيث يترك المهاجر خلالها ،
منزله لمدة وجيزة ويذهب لمنطقة أخرى ضمن بلاده او خارج حدودها للعمل
والكسب . وهذا شأن اكثر المناطق الفقيرة التي ترسل بسكانها للعمل اما
في المناطق الزراعية الغنية بتربتها والفقيرة بالسكان او في المدن الكبرى طيلة
فصل الشتاء حيث لا عمل لهم في قراهم ثم يعودون اليها عندما تبدأ الاعمال
الزراعية في القرية .

ويمكن من الناحية الجغرافية ان نفرق بين الهجرة القارية والهجرة الى
ما وراء البحار . الاولى هي التي تجري داخل القارة نفسها إما داخل حدود
الدولة الواحدة والى ما وراء حدودها . وكثيراً ما قرنوا هذه الهجرة بالهجرة
الموقنة . أما الثانية فهي التي ينتقل فيها المهاجر من بلده الى ما وراء البحار
كالهجرة الى الولايات المتحدة . وكانوا يعتبرون ان البلاد فقدت نهائياً هؤلاء
المهاجرين ، غير ان تقدم وسائل النقل والمواصلات باجور زهيدة دفعت بقسم
كبير من هؤلاء المهاجرين للعودة الى بلادهم الاصلية اما بعد بضع سنوات وتوفير
قليل من المال او للعودة اليها بانتظام بعد انتهاء فصل العمل كالعمال الايطاليين
الذين كانوا يذهبون للعمل في حصاد القمح في الارجننتين .

٣ - نتائج الهجرة

لهجرة نتائج عديدة وهامة اولاً على تركيب السكان ثانياً على التوازن
بين القارات .

يظهر أثر الهجرة على تركيب السكان في النواحي الآتية :

١ - في التوازن الجنسي . لان البلاد التي تدفع بمهاجريها الى خارج حدودها تفرغ او تقل فيها نسبة الذكور وتزداد نسبة الاناث . بينما نجد العكس في بلاد المهجر حيث ترتفع نسبة الذكور وتقل نسبة الاناث .

٢ - في اهرامات الاعداد . يلاحظ دائماً ان العنصر المهاجر هو غالباً عنصر الشباب . ولذلك ترتفع في اهرامات بلاد المهجرة نسبة الكهول أو فئة العمر المتوسط بينما يحصل العكس تماماً في بلاد المهجر .

٣ - في صفات السكان . حيث تزداد نسبة المثقفين المتعلمين في بلاد المهجرة لان هؤلاء قلما يهاجروا ، بينما تزداد في بلاد المهجر نسبة الاشخاص غير المثقفين .

٤ - في التوازن الاقتصادي والاجتماعي . حيث نجد في بلاد المهجرة عدداً كبيراً من أصحاب الدخل يعيشون مما يأتهم من دخل أراضيهم أو عقاراتهم . بينما يكثر في بلاد المهجر رجال الاعمال المؤسسون الرواد اما في التجارة أو الزراعة أو الصناعة .

أما أثر الهجرة على . التوازن بين القارات فيظهر في الأمور الآتية :

اولاً - يجري من بلاد المهجرة الى بلاد المهجر :

أ - تيار من المهاجرين

ب - تيار من رؤوس الأموال

ج - تيار من أدوات الانتاج ومن المواد المصنوعة .

ثانياً - ويجري من بلاد المهجر الى بلاد المهجرة .

أ - تيار معاكس من المواد الغذائية الأولية لتغذية الفائض من السكان المقيمين في بلاد الهجرة القديمة .

ب - تيار معاكس أيضاً من المواد الأولية الصناعية لتموين صناعات بلاد الهجرة .

ثالثاً - فالهجرة إذن مصدر تجارة متممة بين بلاد مختلفة بتوازنها البشري وبتطورها الاقتصادي ومختلفة أيضاً بتركيبها وعمرها .

وكتب « جورج رونار » بمناسبة الهجرة يقول « ان البلاد التي تدفع بالفائض من سكانها الى المهجر تبني فوائد جمة : أهمها أن الهجرة تحول دون المنازعات الاجتماعية وتشغل الناس عن التنافر ضمن دائرة ضيقة . كما تقضي على التظاهرات التي يقوم بها العمال العاطلون عن العمل ، وتفصح ، أمام من بقي المجال واسعاً للمطالبة برفع الاجور . وبنفس الوقت تدفع بأصحاب العمل على تجديد أوائل معاملهم وتحسينها لزيادة الانتاج . هذا فضلاً عن الأموال التي يرسلها المهاجرون إلى أهلهم وذويهم او التي يعودون بها الى بلادهم يصرفونها في تحسين أراضيهم وتجميل بيوتهم وقراهم . وكثيراً ما تكون المستعمرات في المهجر أسواقاً رائجة لمصنوعات بلادهم ونتاجها .

ولكن اذا ازدادت الهجرة وتجاوزت في بلد ما حداً معيناً غدت خطراً يفقر السكان وقد يؤول الى اضمحلالهم . لان كل مهاجر ذاهب هو ذرة تضع من حيوية الامة وقطرة من دمها لاسيما اذا كانت الهجرة أبدية .

٤ - الهجرة في العالم الحديث

ذكرنا في مقدمة بحثنا عن الهجرة أن العالم كان منذ القديم مسرحاً لهجرات

كبيرة وفتوحات عظيمة كهجوم القبائل البربرية على الامبراطورية الرومانية واجتياح الموغول لآسيا وأوروبا والفتوحات الاسلامية في آسيا وافريقية وأوروبا غير ان الهجرة الاوروبية الى العالم الجديد تعتبر من الوجهة التاريخية أعظم أراً من جميع الهجرات الكبرى التي سبقتها لما تركته من آثار في إعمار قارات جديدة وما أقامته من حضارات رفيعة .

وامتدت الهجرة خلال قرون عديدة ابتداءً من القرن الخامس عشر وبلغت أقصى مداها في القرن التاسع عشر ثم توقفت عام ١٩٢٩ مع الازمة العالمية. وقد قذفت أوروبا في هذه الفترة القصيرة من عمر البشرية بما يزيد على «٥٠» مليون نسمة من ابنائها هاجروا الى الأمريكتين واستراليا وجزر المحيط على ان الكتلة الكبرى من هؤلاء ، « ٣٠ - ٤٠ » مليون مهاجر ، توجهت نحو الولايات المتحدة .

اسباب الهجرة الاوروبية

يمكن ارجاع اسباب الهجرة الاوروبية الى سببين رئيسيين :

١ - الثروة الصناعية التي قامت في أوروبا في القرن الثامن عشر

٢ - فعالية الحضارة الغربية

فالثروة الصناعية زادت في المردود الصناعي والزراعي منذ القرن الثامن عشر مما رفع من كثافة السكان حتى ان هذه الصناعة الناشئة لم تستطع ان تمتص هذا الفائض بأجمعه .

وقد صادف هذا التضخم في عدد سكان أوروبا وجود ارض خالية او شبه

خالية في العالم الجديد يمكن استثمارها وسكنها لطيب مناخها ووفرة خيراتها . وفي نفس الوقت كانت أوروبا تملك الوسائل التكنيكية الجديدة لمثل هذا الاستثمار الهائل ولديها وسائل النقل والمواصلات البحرية الحديثة التي اخذت تتقدم باستخدام البخار . أما فعالية الحضارة الغربية فتتمثل برغبة الاوربي بالتقدم والفتوحات . هذه الرغبة والارادة كان يدعمها العلم والفكر النقاد والتنظيم الاجتماعي المتطور ، ويصحبها فيض من رؤوس اموال تراكت بفضل الصناعة والتجارة وتحاول أن تتوظف .

المراحل الأساسية للهجرة الاوروبية .

أ - المرحلة الاولى من القرن السادس عشر الى بداية القرن التاسع عشر . أهم صفات هذه المرحلة أن المهاجرين فيها كانوا من المستكشفين والأفاقيين والغزاة الفاتحين والمبشرين غايتهم الاولى التفتيش عن الذهب والاتجار بالتوابل . وصحبهم بعض الزراع والفلاحين غايتهم امتلاك قطعة من الارض ليقيموا عليها .

أما مصدر هذه الهجرة فكانت بلاد أوروبا الغربية وافريقية . فالاسبان والبرتغاليون كانوا يهاجرون الى امريكا الوسطى والجنوبية ، والانكلز الى امريكا الشمالية ، والفرنسيون يتوجهون الى كندا ومقاطعة « لوزيانا » والهولنديون والامان الى امريكا الشمالية . أما من افريقية فكانت الهجرة قسرية تتألف من الزوج العبيد لاستخدامهم في الزراعة . فالتيار الانكلو - ساكسوني كان يتجه بغالبيته نحو المناطق المعتدلة ويتجه التيار اللاتيني نحو

المناطق الحارة وفي جزء منة نحو المناطق المعتدلة . غير ان هذه الهجرة كانت ضئيلة بمجموعها .

ب - المرحلة الثانية من بداية القرن التاسع عشر حتى عام ١٨٨٠ . كانت المرحلة الثانية أضخم من حيث العدد وبدأت عمليا بعد الحروب التي قام بها نابليون . وتآلف في أكثر عناصرها من مهاجري أوروبا الشمالية والغربية ومن العرق الانكلو - ساكسوني . وأهم الهجرات في هذه المرحلة هي :
١ - الهجرة الايرلندية . وهي اولى الهجرات الاوروبية في هذه الفترة بدأت عام ١٨٤٠ وبلغت اوجها عام ١٨٤٦ نشأت عن عقم النظام الزراعي في ايرلندا وعن أزمة البطاطا التي حدثت عام ١٨٤٦ . وكانت تنوالى بمعدل « ١٠٠ » الف مهاجر في العام الواحد حتى ١٨٨٠ ثم أخذت بالتناقص حتى توقفت تقريباً عام ١٩١٤ عندما نالت ايرلندا استقلالها . ويقدر مجموع المهاجرين الارلنديين بـ « ٤ » ملايين نسمة .

٢ - الهجرة الانكليزية - الايكوسيه

بدأت حوالي عام ١٨٦٠ وامتدت الى ما بعد عام ١٨٨٠ وبلغ معدلها السنوي « ٢٠٠ » الف نسمة . وهي عبارة عن فيض طبيعي لتكاثر السكان المتزايد . وكانت تتجه إما الى الولايات المتحدة وإما الى أرجاء الامبراطورية البريطانية أي الى كندا و استراليا وزيلندا الجديدة وافريقية الجنوبية . وبلغ مجموع المهاجرين « ٦ » ملايين تقريباً أي ١٣٪ من عدد السكان الحاليين .

بدأت الهجرة الالمانية بنفس الوقت الذي بدأت به الهجرة الانكليزية وبلغت أقصاها عام ١٨٨٠ بمعدل (١١٧٠٠٠) مهاجر في العام . ثم اخذت تتناقص بعد ذلك حتى توقفت تماماً عام (١٩٠٠) .

السبب في هذه الهجرة هو فقر المنطقة من الناحية الزراعية لذلك لم يكن في استطاعة انتاجها الزراعي تغذية جميع السكان . ولكن عندما دخلتها الصناعة الحديثة توقفت الهجرة وبدأ تصدير المواد المصنوعة . يتراوح مجموع المهاجرين الالمان بين « ٦٥٥ » ملايين نسمة أي ١٠٪ من عدد السكان العام . وكانت الهجرة الالمانية متجهة بصورة خاصة نحو الولايات المتحدة والبرازيل .

٤ - الهجرة السكندنافية .

تشبه الهجرة السكندنافية الهجرة الالمانية من حيث زمن بدايتها ونهايتها . وصلت الى أقصاها عام ١٨٨٠ بمعدل « ٤٢ » الف مهاجر في العام وتوقفت تقريباً عام ١٩١٤ . اما مجموع المهاجرين فيرتفع تقريباً الى مليون مهاجر أي ٨٪ من مجموع عدد السكان .

أهم صفات الهجرة في هذه المرحلة أنها تتألف في أكثرها من عناصر «شمالية» وقد طبعت الولايات المتحدة . بالطابع الانكلو-ساكسوني وبدأ العنصر الجرماني يظهر بوضوح بين جماعة المهاجرين . كما ارتفعت في هذه الفترة نسبة السكان الانكلو ساكسون في مناطق الدومينيون البريطانيه . وتعتبر هذه المرحلة من

أهم المراحل التي ساعدت على استغلال العالم الجديد استغلالاً جدياً ناجحاً. وكانت بنفس الوقت في صالح بلاد الهجرة وصالح بلاد المهجر على حدٍ سواء .

ج - المرحلة الثالثة وتمتد من عام ١٨٨٠ الى عام ١٩١٤ .

من ميزات الهجرة في هذه المرحلة الثالثة دوام هجرة العناصر التي ذكرناها في المرحلة الثانية باستثناء العنصر الجرمانى وظهور عناصر جديدة سلافية ولاتينية بالدرجة الاولى وبالدرجة الثانية عناصر من بلاد البحر الابيض المتوسط. وأهم الهجرات في هذه المرحلة هي :

١ - الهجرة النمساوية - الهنغارية

بدأت عام ١٨٨٠ بمعدل (٢٠) الف مهاجر تقريباً وبلغت اقصاها عام ١٩١٣ بمعدل (١٩٤) الف في السنة . تتألف من بولونيين وتشيكيين وسلوفاكيين وهنغاريين وصريين . ويقدر مجموعها في هذه المرحلة بـ (٣) ملايين مهاجر توجهوا بمعظمهم نحو الولايات المتحدة .

٢ - الهجرة البلقانية .

وتتألف من اليونان والبلغار والرومان والآراك وتشبه بتطورها الهجرة النمساوية - الهنغارية واتجهت نحو الولايات المتحدة .

٣ - الهجرة الروسية

واتجهت اتجاهين مختلفين . الاتجاه الاول نحو سيبيريا وهي هجرة موجهة

بدأت عام ١٨٦٠ بمعدل « ٢٠٠ » الف مهاجر بالسنة وبلغت بمجموعها « ٣ » ملايين نسمة .

الاتجاه الثاني نحو الولايات المتحدة وكندا بدأت في اواخر القرن التاسع عشر . وارتفعت الى معدل « ٣٠٠ » الف في السنة عام ١٩١٤ ومصدرها روسيا الغربية . وبلغت بمجموعها « ٣ » ملايين تقريباً ونصف هذا العدد من اليهود .

٤ - اما هجرة شعوب البحر الابيض المتوسط فتتصف بصفات خاصة أهمها فقر هؤلاء المهاجرين وانعدام التجانس بينهم . وقد نزحوا وكلهم شوق الى الكسب والى رفع شوية حياتهم المنخفضة . ومما ساعد على تهجير هؤلاء السكان الدعاية الكبرى التي قامت بها مكاتب الهجرة وشركات الملاحة عبر المحيطات . وكان من نتائجها ان عدلت الصبغة الانكلو - ساكسونية التي اكتسبتها الولايات المتحدة أرم المرحلة الثانية من الهجرة الاوروبية وامتد امريكا الجنوبية بعدد كبير من المهاجرين الايطاليين كما ساهمت في استعمار افريقية الشمالية من قبل فرنسا وايطاليا وأسبانيا . واكبر هجرات البحر الابيض المتوسط هي :

أ - الهجرة الايطالية

التي بدأت عام ١٨٧٠ وبلغت اوجها عام ١٩١٣ حيث ارتفع عدد المهاجرين في هذه السنة الى « ٨٧٣٠٠٠ » بحر ثلثها الى الولايات المتحدة وامريكا اللاتينية واستراليا . وثلث الاخير هاجر الى افريقية الشمالية وفرنسا . وقد بلغ مجموع عدد المهاجرين في هذه الفترة « ٦ » ملايين نسمة اي ما يقارب ١٤٪ من عدد السكان في ايطاليا .

ب - الهجرة الاسبانية والبرتغالية .

بلغت الهجرة الاسبانية اوجها عام ١٩١٣ حيث ارتفع عدد المهاجرين في هذه السنة (٢٠٦٠٠٠٠) ويروى عدد المهاجرين الاسبان على مليوني نسمة اي ٨٪ من عدد السكان . واتجهت هذه الهجرة بصورة خاصة الى منطقة وهران والارجنتين وامريكا الجنوبية . اما الهجرة البرتغالية فتقدر بمجموعها بنصف مليون نسمة . بلغت اقصاها عام ١٩٣٠ حيث ارتفع عدد المهاجرين الى (٧٨٠٠٠) نسمة متجهة نحو البرازيل والولايات المتحدة .

ج - الهجرة اليونانية

بدأت هذه الهجرة في اوائل القرن العشرين وبلغت مجموعها نصف مليون نسمة واتجهت نحو الولايات المتحدة وافريقية والشرق الادنى .

د - الهجرة الافرنسية .

يقدر عدد المهاجرين بمليون نسمة هاجروا الى الجزائر وتونس والى امريكا اللاتينية .

٥ - ويمكن ان يضاف الى هذه الهجرات هجرات اقل اهمية منها كالهجرة السويسرية والهولندية والبلجيكية .

٦ - الهجرة الاسبانية :

ذكرنا سابقاً ان الهجرة الاوروبية في العالم الحديث تعتبر اهم الهجرات

ولكنها ليست الوحيدة . وإنما يوجد الى جانبها هجرة آسيوية هامة ايضاً نذكر
منها بصورة خاصة :

أ - الهجرة الصينية .

وهنا يجب ان نميز بين الهجرة الداخلية والهجرة الخارجية .
فالداخلية الناشئة عن الحروب الاهلية أتجهت من مقاطعات الوسط نحو
منغوليا ومنشوريا القليلتي السكان . فنشوريا مثلا التي لم يكن يتجاوز عدد سكانها
« ٣ » ملايين نسمة في اواخر القرن التاسع عشر ارتفع عددهم اليوم الى ما يقارب
« ٤٠ » مليون نسمة .

اما الهجرة الصينية الخارجية فهي قديمة تعود الى منتصف القرن التاسع
عشر ويربو عدد المهاجرين فيها على « ١٠ » ملايين نسمة انتشروا في الهند
الصينية وجزر الهند الشرقية وعلى شواطئ المحيط الهادي لاسيما في كاليفورنيا
واستراليا ولولم تسن قوانين خاصة تمنع قبولهم في بلاد المهجر لارتفع عددهم الى
عشرات الملايين .

ب - الهجرة السورية .

ومن أشهر خواصها انتشارها الكبير الواسع في جميع اقطار العالم . فالسوريون
موجودون في افريقية الشمالية وافريقية الوسطى والجنوبية . كذلك نجدهم في
امريكا الجنوبية والوسطى والشمالية . وفي بلاد المحيط الهندي . وعندما يحط
المهاجر السوري رحاله في بلد ما يبدأ نشاطه كتاجر بسيط للغاية ثم يوسع عمله
ويدخل غمار الصناعة . ويشتهر السوريون في بلاد المهجر بحبهم لبعضهم

ومد يد المعونة للمهاجرين الجدد . وهم سريعو التطبع بعادات واخلاق البلد
الذي يقيمون فيه .

ج - الهجرة الهندية

بدأت الهجرة الهندية داخلية بسبب ازدياد النفوس السريع ثم طفت
الى خارج حدود الهند وأججت بصورة خاصة نحو الساحل الشرقي لافريقية
وجزر المحيط الهندي .

د - وهنا لا بد من الاشارة الى ضالة الهجرة اليابانية . فالياباني لا يحب
الهجرة وهو اذا هاجر يختار المهن الرفيعة كأحسن المهاجرين الاوروبيين ،
فيعمل كمهندس او تاجر او مراقب عمل او صاحب معمل .

د - المرحلة الرابعة بين عام ١٩١٨ و ١٩٣٩ .

رغم الهجرة الهائلة التي حدثت في المرحلتين الثانية والثالثة ورغم ما امتصت
الصناعة الكبرى من ايد عاملة بقيت اوربا غاصة بالسكان كما بقيت نسبة
الزيادة فيها موجبة غير ان هذه النسبة كانت تتناقص من شرق اوربا الى غربها:
اكثر من ١٠٪ في اوربا الشرقية ، وتتراوح بين ٥ الى ١٠٪ في
اوربا الوسطى وتهبط الى اقل من ٥٪ في اوربا الغربية . اذا اضفنا الى هذه
الظاهرة مزاحمة القارات الاخرى لاوربا صناعياً وتجارياً ادركنا مدى تفشي
البطالة بين صفوف العمال في « انكلترا وألمانيا » . كما ان عدم الاطمئنان
السياسي بسبب الحروب والثورات والمنازعات الداخلية ، وثقل الضرائب

واضطهاد بعض الفئات والعناصر ، أدى ذلك كله الى استمرار الضغط الداخلي في اوربا نحو الخارج . ولو بقيت الهجرة حرة كما كانت في السابق لهاجر عدد ضخم من السكان .

ولكن الهجرة في هذه المرحلة قيدت بقيود قاسية عديدة من قبل بلاد الهجرة ومن قبل بلاد المهجر في آن واحد .

قيدت من الداخل اولاً بسبب الفكرة التي سادت القوميات الناشئة التي اوجدتها معاهدة فرساي والتي سيطرت في الدول الفاشستية والنازية ؛ والتي تتلخص بأن عدد السكان الضخم من اسباب القوة السياسية للدفاع عن كيان الوطن والسيطرة والتوسع . وقد انتشرت هذه الفكرة بين مختلف الدول الاوروبية وطبقت في سبيلها سياسة محكمة مدروسة .

بدأت الدول بمقاومة الدعاية التي تقوم بها مكاتب الهجرة وشركات الملاحة ثم منعوا هجرة الشباب قبل اتمام خدمتهم العسكرية وانشأت بعض الدول كألمانيا مثلاً وزارة خاصة للهجرة واغروا الراغبين بالهجرة بأن وعدوهم بمنحهم ارضاً واقراضهم مالا اذا هم اقلعوا عن رغبتهم هذه . وحددت بعض الدول الهجرة وسمحت بها الى مستعمراتها وممتلكاتها فقط . وعملوا ايضاً ان يكون المهاجر على صلة دائمة مع الوطن . الأم ليحتفظ بشعوره القومي وسعت بعض الدول لارجاع مهاجريها الذين نزحوا كألمانيا وبلجيكا .

هذا ولا ينكر ما للسياسة المتبعة في الشؤون الاجتماعية من اثر كبير في الحد من هجرة السكان . كما نشاء مصلحة التأمين الاجتماعي وتقرير تعويض البطالة وتقاعد العمال وتأسيس بيوت العجوز والشيوخ .

وقيدت الهجرة أيضاً من الخارج أي من قبل بلاد المهجر لندرة الاراضي
اغالية او الصالحة للاستغلال بعد احتلال القسم الاعظم من قبل مهاجري
المراحل السابقة . ولتغير شروط الاستغلال نفسه بدخول الآلة والاستغناء
عن اليد العاملة في الزراعة ، اما في الصناعة فنقابات العمال في المهجر قامت
تعارض بفتح باب الهجرة على مصراعيه لئلا تخفض الاجور . الى هذه الاسباب
يمكن ان نضيف تنبه الشعوب العنصري في بلاد المهجر ، اذ رغبت كل
دولة في العالم الجديد ان تدعم قوميتها بتقوية العنصر السائد فيها دون غيره
وعلى هذه الفكرة اعتمدت الولايات المتحدة في اصدار « قانون الحصص
La loi des quotas » عام ١٩٢١-١٩٢٤ . واخيراً يعتبر الخوف من الشيوعية
من الاسباب الهامة في تقييد الهجرة ومراقبتها مراقبة دقيقة مخافة ان تتسلل
العناصر الشيوعية الى بلاد العالم الجديد .

ازمة عام ١٩٢٩ وتوقف الهجرة

رغم هذه القيود جميعها وبعد ان توقفت الهجرة اثناء الحرب العالمية الاولى
عادت بعد الحرب ولكن على مقياس ضيق . وكان اغلب المهاجرين من انكلترا
وبولونيا ومن بلاد حوض البحر الابيض المتوسط . وقد أم الولايات المتحدة
في هذه الفترة الواقعة بين نهاية الحرب وانفجار الازمة عدد غفير من المهاجرين
قدر عددهم عام ١٩٢١ بـ (٨٠٥٦٠٠٠) نسمة ثم هبط العدد عام ١٩٢٥ الى
(٢٠٥٦٠٠٠) مهاجر تقريباً . كذلك أم البلاد الكندية عدد كبير
من المهاجرين يقدر متوسطهم السنوي بـ (١٠٠) الف ومثل ذلك الى
امريكا الجنوبية .

غير أن الازمة العالمية اوقفت حوكة الهجرة تماماً وأحدثت زيادة على ذلك تياراً معاكساً اذ عاد عدد كبير من المهاجرين الى بلادهم الاصلية . ولكن اضطهاد ألمانيا النازية لليهود وارتفاع نسب الضرائب في أوروبا وخوف كبار الممولين البورجوازيين من قيام ثورات داخلية دفع بجميع هؤلاء الى تهريب اموالهم الى خارج أوروبا ثم غادروا البلاد بعد ذلك . فنشأ عن هذه الهجرة الصغيرة بعدد أفرادها والغنية بأموالها ان توظفت رؤوس الأموال هذه في البلاد التي دخلتها وقامت صناعة حديثة ناشئة لاسيما في بلاد أمريكا اللاتينية .

هذا بما يخص الهجرة الأوروبية الى العالم الجديد ، غير ان هناك تيارات متعددة خارج البلاد الأوروبية وغير خاضعة للاحصاء مازالت ناشطة كهجرة الروس الى سيبيريا وهجرة الصينيين الى منشوريا ومنغوليا وهجرة السوريين الى جميع أنحاء العالم وهجرة اليونانيين الى افريقية والهنود الى افريقية وبلدان المحيط الهندي .

٥ - الهجرة في الوقت الحاضر

لم تزل أوروبا غاصة بالسكان ونخص بالذكر ألمانيا لاسيما بعد ان عاد اليها جميع الألمان الذين كانوا يؤلفون مستعمرات كبيرة في البلاد المجاورة لبلادهم الأصلية كالنمسا وتشيكوسلوفاكيا . وفي إيطاليا وانكلترا أزمة زيادة سكان ايضاً اذ لا يستطيع الانتاج القومي لهذين البلدين أن يقوم بأود سكانهما أضف الى ذلك رغبة عدد كبير من الأسر والأفراد في ترك أوروبا مخافة الأزمات السياسية والاقتصادية التي تهدد بشبحها الأسود سكان العالم القديم . غير ان الدول

الأوربية تعارض في هجرة مواطنيها وعملها الأكفاء ووضعت أمام المهاجرين عقبات ادارية عديدة .

أما بلاد المهجر فلم تزل في معظمها كالولايات المتحدة تهاب الهجرة المتدفقة لأسباب سياسية « الخوف من الشيوعية » واقتصادية واجتماعية . غير ان امريكا اللاتينية لاسيا البرازيل والأرجنتين واستراليا ترغب بزيادة سكانها وتوسيع الاستهلاك في اسواقها الداخلية . ولذا تسير على سياسة انتقاء المهاجرين ولا تسمح بالدخول الا لأصحاب رؤوس الأموال والفنيين والعمال الأكفاء لدعم صناعتها الناشئة وللحفاظ على سوية حياة سكانها من التدني . لكن العقبات الادارية وصعوبة ايجاد مكان في بواخر النقل يحد كثيراً من تدفق الهجرة على مقياس واسع وحسب الاحصاءات لعام ١٩٤٩ نجد عدد المهاجرين الذين توجهوا :

الى كندا يرتفع الى ٨٦٦٠٠٠ مهاجر

الى استراليا « « ١٦٨٦٠٠٠٠ «

ثم هناك تيارات اخرى تتجه الى البرازيل والأرجنتين وروديزيا وفلسطين . فحركة الهجرة اذن لم تنقطع بل انكشفت وصغر حجمها واختلفت من حيث الكمية والنوع .

الفصل الثاني عشر

المساكن

تعتبر المساكن من اكثر المنشآت البشرية أهمية وأوسعها انتشاراً على سطح الأرض وأعظمها تنوعاً وأشدها تأثيراً بشروط الوسط الجغرافي وأكثرها ثباتاً والتصاقاً بحياة الانسان . وهي تعكس بصدق أشكال الفعاليات التي يمارسها ساكنوها .

وترتبط المساكن ارتباطاً وثيقاً بطرق المواصلات ، فاذا كانت الطرق هي التي تزرع الحياة وثمر المساكن في كل مكان تمر فيه . فانها تصبح عديمة الفائدة اذا لم يكن هنالك قري ومدناً تستخدم هذه الطرق من اجل انتقال الاشخاص والبضائع من مكان الى آخر . ويمكن للانسان ان يقيم في الريف أو في المدينة ولهذا قسم السكن الى زمريتين كبيرتين السكن الريفي والسكن المدني . فالمسكن الريفي هو وحدة البناء في القرية والمسكن المدني هو وحدة البناء في المدينة .

السكن الريفي

١ - المنزل الريفي : تعتبر المنازل سواء كانت مبعثرة متباعدة عن بعضها او متجمعة مؤلفة قرية مزدوجة من أهم الآثار التي يطبعها الانسان على سطح الأرض ، ان المنزل واقع جغرافي لا يمكن أن يدرس لوحده بل ضمن مجموعة من الأبنية الأخرى أو ضمن مجموعة من الفعاليات التي يرتبط بها .

ويختلف المنزل الريفي عن المنزل المدني بأنه مكان للسكن والعمل في نفس الوقت ، في حين أن مكان السكن غير مكان العمل في المدينة . وعلى هذا فالمنزل الريفي يعكس التأثيرات الطبيعية بوصفه مسكناً وملجأ كما يعكس التأثيرات الاجتماعية والاقتصادية بوصفه مكاناً للعمل .

أثر عناصر الطبيعة في بناء المنزل الريفي :

يبدو أثر الطبيعة على هذا المنزل من نواحي المناخ ومواد البناء .

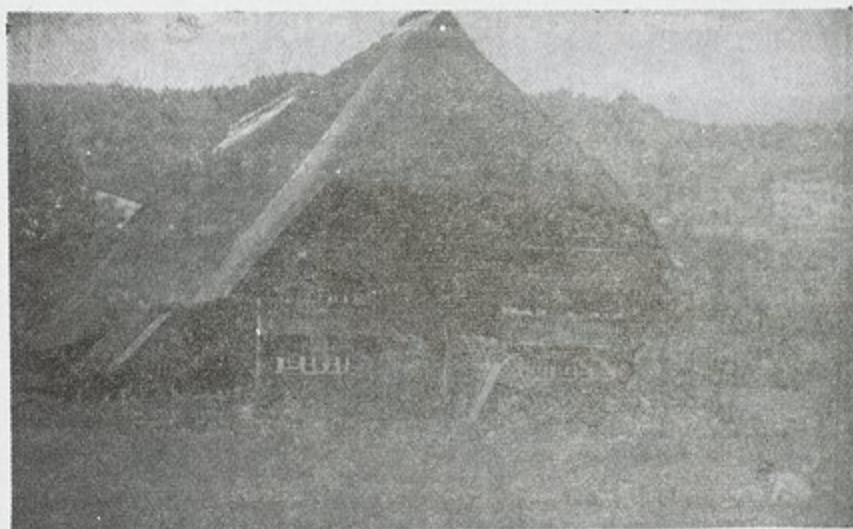
أ - المناخ : يلعب المناخ دوراً كبيراً في طريقة بناء المنزل واتجاهه والمواد المستعملة في بنائه . يهدف المنزل في الواقع الى وقاية ساكنيه من الحر والقر والرياح والأمطار والثلوج .

وعلى هذا تبدو الفروق واضحة في بناء المنازل حسب المناطق المناخية التي تبني فيها فنمازل الأسكيمو المبنية بقطع الجليد ^(١) « إيكلو Igloo » تختلف

(١) راجع الشكل ١٢ و ١٣ و ١٤ من بحث الاسكيمو .

عن المنازل الخشبية في المناطق المعتدلة وتختلف عن الأكواخ الخشبية (٢) التي توجد في المناطق الحارة . وهذه كلها تختلف عن الخيام التي تستعمل في الصحاري الجافة .

ويبدو أثر المناخ واضحاً في اتجاه المنزل ، ففي مقاطعة البروفانس جنوب فرنسا مثلاً تدير المنازل ظهرها نحو الشمال لأن رياح الميسترال الباردة تهب من الشمال نحو الجنوب ، وتكون الجدران الشمالية غالباً خالية من النوافذ والأبواب وتتجه معظم منازل النصف الشمالي من الكرة الأرضية نحو الجنوب حتى تتمكن أشعة الشمس من الدخول إليها خلال فصل الشتاء عندما تكون الشمس بمرتبتها الظاهرية مائلة إلى الجنوب وأقرب إلى الأفق . (الشكل ٣٦)



(شكل ٣٦)

نموذج للبيوت الخشبية في منطقة الغابة السوداء في ألمانيا ، يلاحظ في الصورة امتداد السقف المتجه إلى الشمال حتى يصل تقريباً إلى القرب من سوية الأرض ليمنع الرياح الباردة . (٢) راجع الشكل (٢٠) الذي يعطي مثلاً للاكواخ الخشبية في المناطق الحارة .

ب - مواد البناء : يستعمل القروي من اجل بناء منزله المواد التي يجدها في متناول يده . ففي الأما كن التي تتوفر فيها الغابات تدخل الأخشاب بنسبة كبيرة في بناء الجدران والسقوف وعلى هذا تكثر المنازل الخشبية في كندا وسيبريا وفنلندا والسويد وبوهيميا وفي جبال الألب وفي غوطة دمشق . وفي المناطق التي تتوفر فيها احجار البناء تبنى الجدران بالأحجار المقطوعة « الغشيمة » او المنحوتة . أما السقف فقد يكون من القرميد أو التوتياء او القش او الخشب المستور بطبقة غليظة من الطين الخ .. أما في المناطق الغضارية والليمونية فان جدران المنازل تبنى عادة بلبينات من الطين المجفف أو المشوي « آجر » أو من التراب المرصوص « الدك » . كما هي الحال في دمشق وغوطةها .



(شكل ٣٧)

نوع من البيوت في قرية « تليسة » في سورية وتتألف من جدران من الطين وسقفها على شكل قباب متطاولة مصنوعة من الطين أيضاً

٢ - العوامل الاجتماعية والاقتصادية التي تؤثر على المنزل الريفي:

يبدو المنزل الريفي اذن وكأنه حصيلة تضافر الشروط المناخية وحالة مواد البناء المتوفرة في المنطقة المأخوذة بعين الاعتبار ، غير أننا سوف نقع في خطأ فادح لو أننا اعتبرنا المنزل الريفي وكأنه مجرد انعكاس بسيط للشروط الطبيعية أو أننا صنفنا المنازل بالاستناد الى المواد التي تستخدم في بنائها .

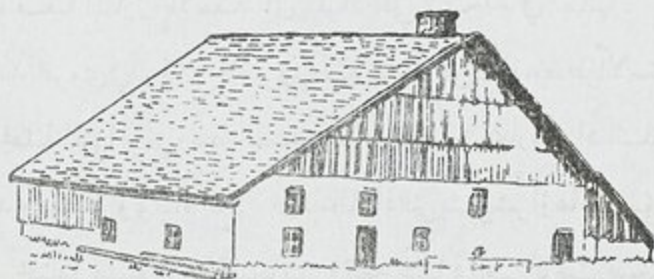
لم يعد القروي في الوقت الحاضر وفي كثير من مناطق العالم، مضطراً لاستخدام مواد البناء المحلية المتوفرة في وسطه الطبيعي بعد أن توسعت تجارة مواد البناء من اسمنت وحديد وقرميد وتوتياء الخ.. ان هذه المواد التي يسهل شراؤها قد تضيف على منازل مناطق مختلفة بطبيعتها صفة التجانس وتبعد عنها في نفس الوقت صبغتها الريفية. هذا واذا كان اطار المنزل الريفي ومظهره الخارجي عرضة للتبدل السريع ، فان مخططه الداخلي وتقسيماته تعتبر اكثر استقراراً وثباتاً لأنها ترتبط بالاقتصاد الزراعي ارتباطاً وثيقاً ، والمنزل الريفي بهذا المعنى تعبير حسي للعلاقة الموجودة بين الفلاح ومواشيه وحقله ؟

فالمنزل الريفي ملجأ يأوي اليه القروي ومستودع يخزن فيه غلاته وعلف حيواناته ومؤونة أسرته ومعمل يضم أدوات عمله واسطبل لمواشيه وحيواناته . فمخطط المنزل وتنسيقه يتغيران تبعاً لطبيعته وأهمية العمل الزراعي الذي يقوم به .

فالمنزل الموجودة في المناطق حيث تسود تربية الماشية تختلف عن منازل المناطق التي تسود فيها الزراعة كما تختلف أيضاً تبعاً لسعة أو ضيق الأراضي

المستثمرة أو تبعاً لتجمع الحقول أو تبعثرها في أماكن مختلفة .
وهناك تصنيف عام للمنازل الريفية بالنسبة لمخطط بنائها ، وتقسّم المنازل
حسب هذا التصنيف الى ثلاث فئات رئيسية .

آ - المنزل المنضم الذي لاساحة له maison-bloc : حيث تجتمع كافة أجزاء
المنزل تحت سقف واحد وتنضم الى المنزل كافة ملحقاته . الشكل (٣٨ و٣٩) .



الشكل (٣٨) مسكن منضم في منطقة الفوج والجورا الشالية ، كل أقسام هذا المنزل
الريفي مجموعة تحت سقف واحد كما يلاحظ وجود طابق ثان للسكن

ب - المنزل المنضم ذو الساحة maison-Cour يتألف المنزل هنا من عدة
أقسام تنتظم حول ساحة مكشوفة يمكن الدخول الى كافة أقسامه من الساحة .



الشكل (٣٩) نوع آخر من المنازل الريفية المنضمة في منطقة شمال الالب والافوا العليا
يلاحظ ان الطابق السفلي مخصص للماشية والعلف وأدوات الزراعة والطابق العلوي للسكن
ج - المنزل ذو الاقسام المتباعدة : يكون القسم المخصص للسكن في هذا

المزل مستقلا عن باقي الأقسام والملحقات الشكل (٤٠).



الشكل (٤٠)

نمذج للمزل الريفي ذي الأقسام المتباعدة تفصل بينها ساحة مفتوحة . بعض هذه المباني مخصص للسكن وبعضها الآخر مخصص للماشية وللادوات الزراعية ولحفظ العلف الخ ...
القرية :

لا تقتصر الجغرافية على دراسة توزيع المنازل الريفية وكيفية تجمعها ، بل انها تأخذ بعين الاعتبار أيضاً العلاقات الموجودة بين مجموعات المنازل وبين الأرض التي يستغلها سكان تلك المنازل . وتسمى الجغرافيا أيضاً للتعرف على فماليات القرويين الذين يشكلون الجماعات الريفية كما تعمل على ايضاح الشروط التاريخية التي تمت فيها اقامة تلك الجماعات في ارضها التي تشغلها وتعيش من انتاجها . وكما أن عالم النبات يدرس مورفولوجية النباتات وفيزيولوجيتها . كذلك يفعل الجغرافي اذ يدرس شكل المسكن الريفي وبنيته الوظيفية .

أن دراسة مورفولوجية المساكن تعنى دراسة أشكال القرى أو التجمعات ودراسة الأرض التي يملكها سكان القرية أما دراسة البنية الوظيفية للمساكن الريفية فتعنى دراسة الشكل الذي يشغل به الريفيون الأرض (نظام الملكية والاستثمار) كما تعنى دراسة الأنظمة الزراعية .

٣- المورفولوجيا الزراعية أو أشكال المساكن والأراضي التابعة لها :
١- شكل المسكن :

عند دراسة المسكن الريفي على الأرض مباشرة أو على خريطة ذات مقياس

مناسب نرى أن المنازل تكون أحياناً قليلة قريبة من بعضها البعض تشكل قرية متراعة المساكن وتكون أحياناً أخرى مبعثرة متباعدة وقد يحدث تداخل بين هذين الشكلين في منطقة واحدة .

أ - المساكن المجمعّة أو القرية : تقترب المنازل بعضها من بعض لأسباب طبيعية وبشرية متنوعة وتشكل مايسمى بالقرية . وقد لوحظ أن المنازل تقترب من بعضها وتتجمع عادة في السهول الكبرى التي تمتد في أوروبا من فرنسا غرباً حتى

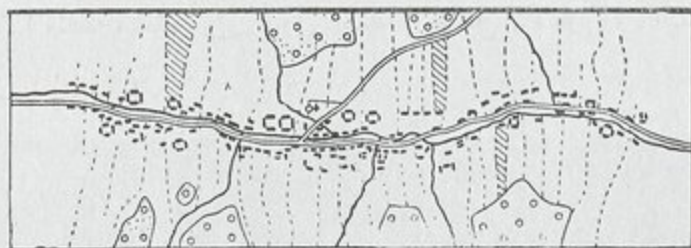


الشكل (٤١)

نموذج للقرى المجمعّة ذات الدور المتراعة الى بعضها في بعض المناطق الفرنسية

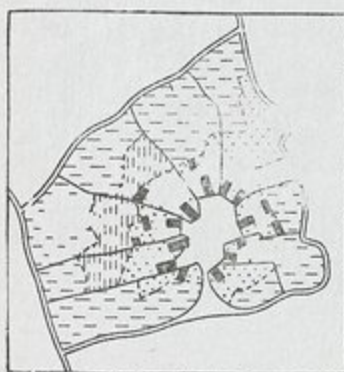
سهول اوكرانيا في الاتحاد السوفيتي . ومن الجدير بالذكر أن المنازل تتجمع بشكل قري في معظم أنحاء الشرق الأدنى أيضاً (الشكل ٤١) .

والقرية عادة مخطط يضي عليها شكلاً معيناً ، فقد تكون القرية ذات شكل متطاوول عندما تنظم المنازل على جانب طريق أو سكة حديدية أو داخل واد او على ضفة نهر صالح للملاحة (الشكل ٤٢) ، وقد تكون نجمية الشكل عندما تنظم المنازل حول نقطة تقاطع عدد من الطرق (الشكل ٤٣) وقد تكون مستديرة الشكل (الشكل ٤٤) وقد لا يكون لها شكل معين .



الشكل (٤٢)

نموذج للقرية المتطاولة الممتدة على طرفي الطريق الرئيسية



الشكل (٤٤)

نموذج للقرية المستديرة الشكل



الشكل (٤٣)

نموذج للقرية النجمية المنضمة

وعند دراسة المسكن الريفي يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار درجة اقتراب المنازل بعضها من بعض فإذا كانت قريبة من بعضها كثيراً أطلق عليها اسم القرية المتراسة ، وإذا كانت المنازل متباعدة عن بعضها أطلق عليها اسم القرية المتراخية .

ب - المسكن المبعثر : ويكون بشكل مزارع واحواش ومنازل مبعثرة وخاصة في المناطق الجبلية كما هي الحال في الكتلة المركزية وجبال الفوج في فرنسا ، وجبال الألب الشماليه وجبال البلقان ، ويسود المسكن المبعثر أيضاً في الصين (منطقة ساتشوان) وفي الهند (ساحل المالابار وفي البنغال والبنجاب الجنوبية) .



الشكل (٥٠)

نموذج للقرية ذات المساكن المبعثرة وهي من قرى الولايات المتحدة في قسمها الشرقي

إن اسكان وإعمار البلاد الجديدة يتم عادة عن طريق اسكان مبعثر ، كما حدث في سهول كندا والولايات المتحدة والامبالارجنتينية واستراليا (الشكل ٤٥) الخ .. هذا وان التبعثر لا يعني ابداً أن تلك المنازل المنعزل بعضها عن بعض إنما تتوزع بدون أي نظام ؛ فقد لوحظ في كثير من المناطق أنها تتوزع على امتداد طريق أو خط حديدي او حول الكنيسة أو البلدية فيبدو فيها عنصر من عناصر التنظيم .

من الخطأ أن نعتقد بأن التباين بين المسكن المجمع والمسكن المبعثر يتحقق داخل مناطق واسعة ، ان هذين الشكلين من توزيع المساكن الريفية سرعان ما يتداخلان فنجد مثلاً قرى كبيرة يحيط بها عدد كبير من المنازل والمزارع المتناثرة حولها .

٢ - شكل الحقول والاراضي :

ان دراسة تحليلية للحقول المحيطة بالقرى عن طريق الملاحظة المباشرة أو عن طريق مخططات مصلحة المساحة تبين وجود شكلين رئيسيين : الحقول المفتوحة والحقول المغلقة أو المسيجة . وقد لوحظ وجود نوع من التلازم بين المساكن المجمع والحقول المفتوحة من جهة والمساكن المبعثرة والحقول المسيجة من جهة اخرى .

أ - الحقول المفتوحة : إن أبرز عنصر في الأراضي ذات الحقول المفتوحة هو شكل هذه الحقول الذي يتألف غالباً من مضلع هندسي متطاوّل . ويبدو أن هذه الحقول المتطاولة ترتبط بحضارة زراعية معينة تستعمل المحراث العادي

لأن هذا المحراث يعطي أحسن مردود عند حراثة أثلام طويلة ومن هنا ضرورة استتالة الحقول . ولهذا فان الحقول المتطاولة تبقى واضحة في الأرياف المفتوحة بالرغم مما يصيب الأراضي من تجميل عن طريق الشراء .



الشكل (٤٦)

نموذج للحقول المتطاولة في القسم الفرنسي من كندا يلاحظ في الشكل ان البيت يقوم بالقرب من الطريق يليه الحديقة ثم الحقل ثم المرعى وينتهي بالغابة .

ومما يميز الأرياف ذات الحقول المفتوحة أيضاً أن الاحراج اذا وجدت فانها تتمركز عادة على أطراف أرض القرينة بحيث لاتسيء هذه الاحراج الى المنظر المفتوح .

وآخر ما يميز الأراضي ذات الحقول المفتوحة في اوربا المساحة الصغيرة

للأراضي القرية، فمجموع مساحة ما تملكه القرية لا تتجاوز في اوروبا (١٠٠٠) هكتار
الا إذا ضمت اليها المساحات التي تغطيها الأجرار .

ب - الحقول المسيجة او الاراضي المغلقة : تقسم أرض القرية هنا بواسطة
حواجز من سياج نباتي أو جدار حجري الى حقول منتظمة هندسية الشكل
حيناً وغير منتظمة أحياناً أخرى (الشكل ٤٧) .

إن مظهر هذه الحقول المغلقة متنوع جداً تبعاً لأنواع الحواجز التي تحاط بها
الحقول . وهذه الحواجز هي في نفس الوقت وسيلة لتثبيت الملكية وحمايتها .
وتكون مساحة أراضي القرى ذات الحقول المغلقة عادة . أكبر من أراضي القرى
ذات الحقول المفتوحة .



الشكل (٤٧)

نموذج للاراضي المسيجة المغلقة اي المحاطة بجدار او سياج

٣ - أسباب التجمع والتبعثر في السكن الريفي :

تشمل التنظيمات الريفية المساكن والأراضي المحيطة وتكون هذه التنظيمات حسب شكلين رئيسيين :

— المساكن المجمع ذات الحقول المفتوحة .

— المساكن المبعثرة ذات الحقول المسيجة أو المغلقة .

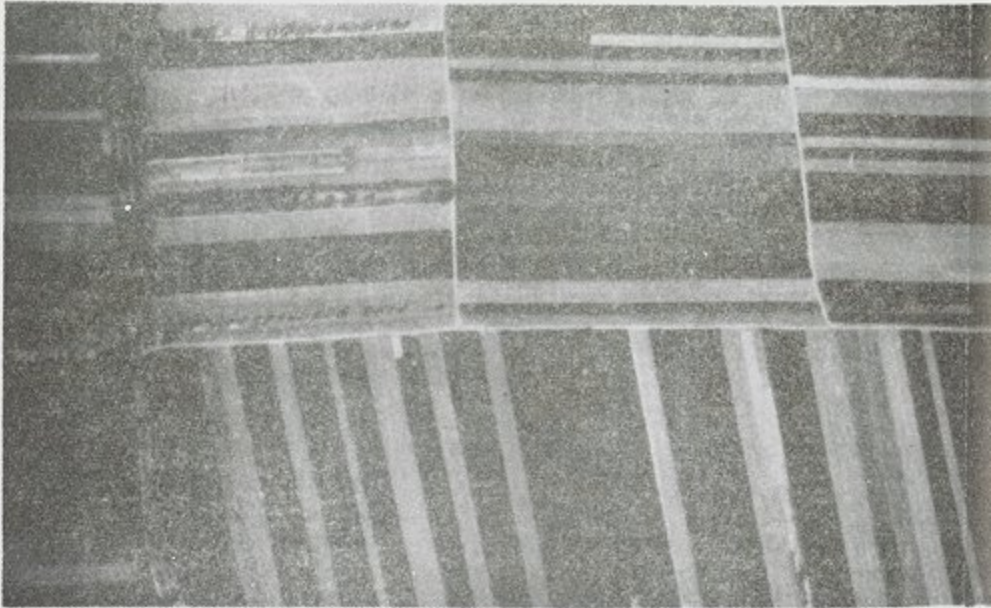
ولكن لماذا يسود أحد هذين الشكلين في منطقة دون أخرى ؟ وبتعبير آخر ماهي شروط أو أسباب التجمع والتبعثر في الاسكان والاستثمار الزراعي ؟ . هنالك في الواقع عدد من الشروط بعضها طبيعية وأخرى بشرية .

أ - الشروط الطبيعية : لقد لوحظ أن معظم السهول ، وخاصة الخالية من الغابات ، كانت موطن اسكان مجمع ، على عكس المناطق ذات التضاريس فانها تكون ذات اسكان مبعثر ، غير أننا لانستطيع مع ذلك أن نعمم مثل هذه القاعدة فكثيراً ما يتجمع السكان في الجبال ويسكنون في قرى يسهل الدفاع عنها ومن أحسن الامثلة على ذلك جبال الأوراس والقبائل والأطلس الاوسط في شمال افريقية وجبال العلويين والدروز في سورية . وهكذا نرى أن دور التضاريس في الاسكان إنما هو دور نسبي .

وقد حاول بعضهم أن يفسر التجمع والتبعثر بطبيعية الصخور في المنطقة المأخوذة بعين الاعتبار وما ينجم عن ذلك من قلة أو وفرة في الموارد المائية . لقد حاولوا حصر التجمع في المناطق ذات الصخور النافذة ، لأن موارد الماء في منطقة ذات صخور نافذة تكون محدودة في نقاط معينة فيضطر السكان للتجمع

حولها ، أما في المناطق ذات الصخور الكتيمة فالياه تكون متوفرة في كل مكان وبالتالي يستطيع السكان ان يتفرقوا غير أن دور الماء في الاسكان نسي ويشبه دور التضاريس .

ب - الشروط البشرية : لاتكفي الشروط الطبيعية في الواقع لتفسير شكل الاسكان ، ولا بد من اخذ الشروط البشرية بعين الاعتبار ، بل إن تأثير الشروط البشرية قد تكون أكثر وضوحاً من أثر الشروط الطبيعية . ان الشكل الذي تستقر عليه الجماعة البشرية في مكان ما من سطح الارض يتعلق بتقاليد تلك الجماعة وبإمكاناتها والشروط الاقتصادية التي كانت سائدة في الفترة التي تم فيها الاستقرار . ويبدو أن المساكن المجمعمة وحقوقها المفتوحة المنتظمة هي من ابتكار جماعة



الشكل (٩) نموذج للحقول المفتوحة المتناولة في المانيا الشمالية « الرين الاسفل »

بشرية تم تنظيمها الاجتماعي وفقا لقواعد اقتصادية وزراعية دقيقة : كأن
تمارس دورات زراعية اجبارية ولها أراض مخصصة للرعي وقطعان جماعية
من الماشية .

كان مثل هذا التنظيم الاجتماعي الريفي سائداً في بداية القرن التاسع عشر
في العالم القديم من اوروبا حتى بلاد الصين ، وكان كل شيء يتم كما لو كانت
الجماعات البشرية تنظم استثمار الارض على طريقة العمل الجماعي .

هذا واذا كان المسكن المجمع دليلاً على فئة بشرية متضامنة من الناحية
الاجتماعية فان المسكن المبعثر ينبئ عن النزعات الفردية . اذ يبتعد الشخص
عن الجماعة ويسكن على قطعة من الأرض يملكها وله حق احاطتها بسياج ، وهو
حر باتباع الدورة الزراعية التي يريد .

هذا وتغير التنظيمات الريفية الزراعية مع الزمن تبعاً للتطورات التاريخية
والاجتماعية والاقتصادية . لذلك فان أشكال المساكن الريفية في بلد من بلدان
العالم تعكس المراحل الهامة لتاريخ ذلك البلد .

وتتصف المساكن بالاستقرار والثبات لذلك فانها تحتفظ بأشكالها حتى بعد
زوال الشروط التي كانت سبب نشأتها ، لذلك تعتبر المساكن محافظة قليلة
التطور اذا ما قورنت بتطور وظيفتها الزراعية .

٤ - البنية الزراعية للمسكن

تتغير وتتطور البنية الزراعية أو البنية الوظيفية للمسكن الريفي تبعاً لشكلي الاسكان الرئيسيين .

ويبدو السكن الريفي المبعثر من ناحية الفن الزراعي اكثر فائدة من أجل العمل والتنظيم الريفيين : كسهولة المراقبة والرعاية ، وقرب الفلاح من حقوله فلا يضطر لقطع مسافات طويلة للوصول الى ارضه كما انه لايجبر على اتباعدورة زراعية معينة تشياً مع مصالح الآخرين ، وبامكانه تربية ماشيته تربية كثيفة.

أما السكن المجمع ومايتبعه من حقول مفتوحة ، فان السكان هنا يتبعون دورة زراعية ثلاثية على الأغلب ويخصصون قسماً من أرض القرية لرعي قطع القرية ، وتكون الحقول بعيدة عن المساكن وتصبح مراقبتها ويمكن ان يتطور الاستثمار الزراعي هنا نحو الزراعة الواسعة بفضل تجميل الأراضي وسهولة استخدام الآلات الزراعية وهذا يساعد بدوره على تطور اجتماعي مبكر .

١ - ملكية الأرض

كل جماعة ريفية تعيش مستقرة على أرض تملكها أو تتصرف بها على الأقل ، فالعلاقة بين الأشخاص والأرض المزروعة ليست واحدة ومستثمر الأرض ليس مالكا لها بالضرورة ، فلكية الأرض هي في الواقع شيء واستثمارها شيء آخر .

ان العلاقة الطبيعية بين الانسان والأرض هو أن يكون مستثمر الأرض مالكا لها وعندها يكون الاستثمار مباشراً . وتسود طريقة الاستثمار المباشر في العالم القديم حيث عرفت ملكية الأرض منذ زمن بعيد . ولكنها تسود أيضاً في البلاد الجديدة ، ففي السهول الامريكية الكبرى واستراليا يستقر كل معمر Colon مع أسرته على قطعة يختارها بنفسه ومن هنا كان الاسكان مبعثراً فلا نجد في تلك السهول أي تمرکز اجتماعي يشبه القرى الكبيرة التي تصادف في بلاد العالم القديم ، فلا توجد في سهول العالم الجديد جماعات ريفية أو قروية بالمعنى المتعارف عليه قديماً فاستعمال الآلات في الأعمال الزراعية يسمح للمزارع أن يسكن المدينة وأن يتردد على أرضه ومزروعاته بالسيارة من وقت لآخر .

أما في البلاد ذات الاقتصاد الاشتراكي فان الاستثمار المباشر للأرض يأخذ شكلا جماعياً يذكر بحياة الجماعات الريفية التي تعيش في قرية واحدة يتعاون افرادها على انجاز الأعمال الزراعية .

أما طريقة الاستثمار غير المباشر فتتلخص في أن يعهد صاحب الأرض الى شخص آخر يقوم بكل الأعمال الزراعية مقابل نصيب معين من غلة الأرض وتأخذ طريقة الاستثمار غير المباشر في بلادنا سوروية أشكالاً مختلفة : المزارعة، المغارسة ، الخامسة ، المراجعة ... الخ .

ان دراسة أشكال ملكية الأرض وأشكال استثمارها تدعون للدراسة الأنظمة الزراعية .

٢ - الانظمة الزراعية :

آ - ماهو النظام الزراعي:

نعني بالنظام الزراعي الشروط المادية للاستثمار الزراعي وهذا التعريف يتضمن في الواقع العناصر التالية :

- تنسيق وتجهيز الأبنية والأراضي التابعة لمشروع زراعي .
- تهيئة الأرض لمختلف الزراعات وفق خصائص التربة واسواق الاستهلاك والظروف الاقتصادية .
- طرق تربية الماشية .
- طرق استعمال الأدوات والآلات الزراعية .

ب - تطور الأنظمة الزراعية :

ان الغاية الرئيسية من ممارسة الأنظمة الزراعية هي تأمين الغذاء الضروري لأفراد الجماعة الريفية وبعض المحاصيل يمكن أن يكون لها قيمة تجارية ؛ هذا الاقتصاد هو اذن اقتصاد اكتفائي بالدرجة الأولى غير أنه لا يلبث أن تتوطد أركانه بسبب استمرار الجهود خلال الأجيال المتتالية ، فيبدأ بالحرص على المحافظة على خصب الارض وارتفاع المردود وذلك عن طريق اتباع دورات زراعية والأخذ بنظام البور الذي يتضمن اراحة جزء من الارض في كل عام حتى تستعيد التربة الزراعية بعض عناصرها المخصصة .

لا يزال نظام البور متبعاً حتى الآن في كثير من المناطق ذات التربة الفقيرة والمياه القليلة كما هي الحال في كثير من بلاد حوض البحر المتوسط . وغاية هذا البور هو ضمان الحصول على مردود معين ، وهناك نوع آخر من البور يطلق عليه اسم البور الاقتصادي *jachère économique* يطبق لغايات تجارية كما هي الحال في الولايات المتحدة الأمريكية (يقوم على تحديد المساحات المزروعة حسب متطلبات أسواق الاستهلاك) .

غير أن تطور الاقتصاد الزراعي لا بد من أن يقضي على نظام البور الذي يعطل في كل عام جزءاً من الأرض المنتجة ، ويقضي على البور باستعمال الأسمدة واتباع الدورات الزراعية التي تؤدي الى تناوب زراعات مختلفة ذات حاجات غذائية مختلفة فوق الأرض الواحدة كأن تزرع الأرض قمحاً ثم شندراً وهكذا فان نظاماً زراعياً مستمراً يحل محل نظام البور المنقطع ، فينجم عن ذلك ادخال زراعات غذائية جديدة وزراعات أخرى علفية أو صناعية وتوسع تربية الماشية في نفس الوقت . ويترتب على هذا نمو الروح التجارية في الريف ويعتمد الاقتصاد الريفي ليس على الاكتفاء الذاتي والأسواق المحلية فحسب بل على أسواق استهلاكية أكثر اتساعاً وخاصة أسواق المدن .

وأخيراً فان نمو التجارة الريفية وازدياد الربح يساعدان سكان الارياف على تطوير اقتصادهم فيصنعون زراعتهم عن طريق انتقاء البنود والاعراس وتهجين المواشي والقيام بدراسات زراعية والاعتماد على استخدام الآلات الزراعية الحديثة .

ان التقدم التكنيكي الذي حققه أهل الريف في كثير من بلاد العالم قد

سبب تغييراً كبيراً في عقليتهم فثبت لديهم فكرة الربح والتجارة و بدأ شعورهم بعدم الاستقرار يزداد يوماً بعد يوم لما يشاهدونه من ثبات أجور العمال الصناعيين في المدن تجاه اضطراب دخلهم المرتبط بشروط الاحوال الجوية واحتمال مرور أعوام قاحلة يهبط فيها دخلهم وتساء حالمهم . ومن هنا كانت بداية نزوح أهل الريف من القرى الى المدن حيث تتوفر اسواق للعمل دائماً وذات اجور ثابتة .

الفصل الثالث عشر

المدن

١ - تختلف المدينة عن القرية والريف . ويؤلف سكان المدن وأهل الريف في كل بلد جماعات بشرية تختلف نسبتها العددية حسب المناطق المأخوذة بعين الاعتبار وحسب أعمار الحضارة التي تسود فيها .

فالمدينة مؤسسة اجتماعية أكثر فعالية من القرية ، ويرتبط نشوءها وحياتها بنمو وازدهار الحضارات ، وتعتبر المدينة من أهم العوامل المساعدة على قيام هذه الحضارات ، كما أن الأمم المتحضرة استثمرت البلاد الجديدة أو المتخلفة ، منذ عهد الاستعمار الاغريقي حتى يومنا هذا ، عن طريق بناء المدن .

هذا : وقد عرف التاريخ فترات امتازت بازدهار المدن ، كالفتره الهلينستية في سورية والفتره التي تمتد من القرن العاشر الى الخامس عشر ثم فتره الثورة الصناعية في أوروبا . وعليه يمكننا أن نتحدث عن أجيال من المدن ، فكل مدينة لها موقعها الزمني في الاطار التاريخي لها موقعها الجغرافي في اطار الطبيعة .

قد تساعد الطبيعة أو تما كس عمل التجمعات البشرية في بناء المدن ؛

إنها تساعد عندما تقدم موضعاً وموقفاً لها من المزايا ما يدفع على نمو المدينة ،
ولذا ترى المدن تنزع للمحافظة على أماكن نشوئها عبر العصور المختلفة وبالرغم من
عاديات الدهر فلقد نشأت مدينة باريس في نفس مكان لوتيسيا ونشأت تونس
في مكان قرطاجنة .

وقد تعمل الطبيعة على هدم وتخريب جهد الانسان أحياناً . ومن الأمثلة
المشهورة في التاريخ خراب مدينتي بومبي وسان بيير اللتين أحرقتا وتهدمتا
بفعل الانفجارات البركانية .

وعلى هذا يمكن القول بأن الاطار الجغرافي يلعب دوراً خاصاً في حياة
المدن ، وقد يكون هذا الدور نتيجة عوامل عامة كالمناخ والتضاريس والكثافة
البشرية أو نتيجة عوامل نسبية كالموقع والموضع . وسنبين فيما يلي مفهوم
الموقع والموضع .

الموقع *la situation ou la position*

المقصود بالموقع هو مكان المدينة بالنسبة لما يجاورها من المناطق وما ينجم
عن هذا المكان من سهولة أو صعوبة في علاقاتها البعيدة . وتشكل الحواجز
التي تعترض المواصلات عنصراً من العناصر المرجحة في اختيار مواقع المدن ،
ويعتبر حاجزاً كل مكان يتوجب فيه عادة تغيير وسائل النقل والمواصلات وعلى
هذا فان مواقع المدن تكون عادة .

١ — عند سفوح الجبال : لأن طرق ووسائل النقل الخاصة بالمناطق السهلية

يجب أن تتلاءم مع شروط جديدة . عند وصولها الى سفح الجبل . ان المدن تكثر على سفوح جبال الألب الفرنسية مثلاً .

٢ — عند الشواطئ البحرية : تكثر مواقع المدن على الشواطئ وفي النقاط التي يتم فيها تحميل البضائع وتنزيلها أي في النقاط التي تتوقف فيها المواصلات البرية أو البحرية .

٣ — شواطئ الأنهار : تشكل الانهار حاجزاً أمام استمرار المواصلات لذلك تنشأ المدن عند المخاضات أو في أماكن الجسور .

٤ — عند تخوم الصحارى : كثيراً ما تختار المدن مواقعها على تخوم الصحراء مثل قتيق وتومبوكتو في افريقية ودمشق وحمص وحماه وحلب في سورية ، فهذه المدن هي في الواقع موانئ حقيقية للاستراحة وصرا كز لتجارة القوافل .

الموضع : Site

موضع المدينة هو الهيز الذي تشغله من سطح الارض مع ما لهذا الهيز مع ميزات تتعلق بوضعه الطبوغرافي وتربته ومياهه وثروته الدفينة .

لمن النادر أن تبني مدينة لتكون عاصمة على الفور كمدينة كانبرا في استراليا وبرازيليا في البرازيل . ان كل المدن تقريباً تنشأ صغيرة ومتواضعة ثم لا تلبث أن تنمو وتتسع لتتجاوز حدود موضعها الأصلي .

وقد يصدق أن تغير المدينة وظيفتها فيظهر موضعها الاصلي غير ملائم

للوظيفة الجديدة لذلك فان الموضوع الحالي لكثير من المدن يكون في الواقع مختلفاً عن موضعها الاصيل الذي تأسست فيه .
ويجب أن نذكر هنا أن في الطبيعة دلائل تؤكد أن المدن تنشأ وتتطور حسب مايناسبها من شروط بصرف النظر عن كل فكرة حتمية .

٢ - مورفولوجية أو استغلال المدن

تعني مورفولوجية المدن مخططاتها ومظاهرها وتخطيط شوارعها ومساحاتها وتنوع أحيائها . وغاية مورفولوجية المدن هي دراسة مجال المدن ، أي المساحة الأرضية التي بمحورتها من أجل حياتها وتوسمها ، ودراسة تنظيم هذا المجال حتى تؤدي المدينة وظائفها على أحسن وجه .

١ - مجال المدينة L'espace urbain :

يبدو للوهلة الاولى أن مجال المدينة لا يعني شيئاً آخر غير المساحة التي تشغلها المدينة المأخوذة بعين الاعتبار ، وتذكر الاحصاءات أن مدينة باريس تشغل مثلاً ١٤٠ كم^٢ ، ولندن ٣٠٧ وبرلين ٨٩٠ ولوس آنجلوس ١١٦٥ كم^٢ ، ولكن هذه الارقام تعين في واقع الامر حدود بلديات هذه المدن ولا تعطى فكرة دقيقة عن المساحة التي تشغلها الابنية والمنشآت البلدية أو المدنية ؛ ولكي ندرك حقيقة مدلول هذه الارقام يكفي أن نذكر مثلاً ان مدينة فيينا بها من المساحات الخالية من الابنية مايزيد عن مثيلاتها في باريس بسبع وعشرين مرة . وعلى هذا يبدو من الضروري ادخال بعض التعديل على تلك

الارقام كأن نأخذ نسبة السكان الى المساحة اي كثافة السكان . وعندها نرى أن الكثافة في باريس تبلغ ٣٢٥ شخصاً في الهكتار و ١٣٠ في لندن . ٨٠ فقط في مدينة فيينا . إن ارقام الكثافة هذه لا تخلو من عيوب لانها معدلات وسطية مجردة يستحسن استبدالها بما يسمى بكثافة السكني أي بعدد الاشخاص الذين يسكنون في المنزل الواحد . لقد كانت كثافة السكن في باريس ٣٥ شخصاً في المنزل و ٨ في لندن . ان الكثافة السكنية توضح بشكل أدق ظاهرة التكاثر البشري في المدن ولكنها مع ذلك لا تنطبق الاعلى نواة المدينة .

٢ - مخطط المدن :

يعني المخطط التنظيمي الذي يتم في مجال المدينة أي في المساحة التي تشغلها من الارض . وهذا التنظيم يمكن ان يكون متلامماً مع موضعها فمخطط مدينة موجودة في أعلى أكمة لا بد وان يختلف عن مدينة تقع في بطن واد أو داخل كوع نهري .

هذا وليس مخطط المدن حصيلة الشروط الجغرافية لوحدها ، بل ان الانسان يمكن ان يضع مخططاتها سلفاً وقبل بناء المدينة ، ومثل هذه المخططات تكون هندسية في أغلب الاحيان ؛ على شكل رقعة الشطرنج (ذات شوارع متعامدة) أو على شكل شعاعي ، شوارع مستقيمة تنبعث من مركز المدينة وتقطع شوارع أخرى دائرية لها نفس المركز .

غير أن مخطط المدينة كثيراً ما يضم عناصر مختلفة ومتباينة . فقد توجد أحياء ذات شوارع ضيقة ومتعرجة الى جوانب شوارع أخرى واسعة ومنظمة

وتنحصر الشوارع الضيقة عادة في نواة المدينة الأصلية .

تبدأ المدينة بالاتساع ابتداءً من نواتها الأصلية وعلى طول الطرق التي تنبعث منها الى مختلف الجهات فتتكون على هذا النحو أولى ضواحي المدينة، ثم لا تلبث الفراغات الموجودة بين الطرق أن تمتليء تدريجياً بحيث يغدو مخطط المدينة شبكة تشبه شبكة العنكبوت وتدل الشوارع الدائرية الرئيسية الموجودة في بعض المدن الكبرى كمدينة فيينا على مختلف مراحل توسع المدينة. لا تتوسع المدينة دائماً بصورة عفوية ، بل ان هذا التوسع يخضع لتنظيم الانسان الذي يدخل على المخطط تعديلات مستمرة كفتح الشوارع الواسعة والساحات والحدائق .. الخ وهناك فن خاص يتعلق بالتغييرات والتنظيمات التي تدخل على مخططات المدن ويطلق عليه اسم فن أو علم تنظيم المدن . Urbanisme

هذا وتعتبر مخططات المدن وما يصيها من تغييرات وتعديلات من أقوى الدلائل على حيوية المدن وفعاليتها ، ويعتبر مظهرها الخارجي دليلاً آخر على فعاليتها وحيويتها .

٣ - مظهر المدينة : Laspect d'une ville

لكي نعرف حقيقة المظهر الخارجي للمدينة علينا أن ندرس مخطط مدينة امريكية كبرى كمدينة شيكاغو : انها محاطة بأحواض السفن والمعامل وهي مستودع ومركز للاعمال بقدر ماهي مدينة سكنية ، طرقها مستقيمة وابنيها الشاهقة تعلو فوق الكنائس والمعابد والمتاحف . لقد بناها اشخاص لم يكونوا

يطبقون الصبر وكان دأبهم الحصول على المال والغنى لذلك ساهم المهندسون في بنائها بقدر مساهم المعمارين وهي الآن في تطور دائم بغية تأمين الربح والراحة .



شكل - (٤٩)

سورتان متجاورتان تظهر فيها أبنية شيكاغو العالمية (ناطحات السحاب) وشوارع المدينة

قد يتخلو مركز المدينة من كل فن وجمال اما ضواحيها فلا تخلو من الأناقة التي تتصف بها المدن الاميركية المتوسطة الحجم اذ نجد فيها شوارع واسعة تظللها الاشجار و فيلات تتوفر فيها كل شروط الراحة . إن الناحية العملية هي البارزة في المدن الاميركية ولكن الظروف اذا كانت مناسبة فانها لا تخلو من الجمال كما هي الحال في سان فرانسيسكو وكفيلاند ودويترويت .

تختلف مظاهر المدن في أوروبا الغربية عن مظاهر المدن الاميركية ،

ففي أوروبا يطبع الزمان بصمته على مختلف الاجزاء التي بنيت في مراحل مختلفة فالماضي ماثل فيها أبداً والفنادق والكنائس وشواهد فنية على ذلك . وتتضاءل الأحياء الموجودة في وسط المدينة ذات الشوارع الضيقة أمام نمو الأحياء التجارية والصناعية التي تحيط بها وامام الضواحي التي تمتد وتتسع من غير تنظيم دقيق .

وهناك مظهر آخر لنوع ثالث من المدن هي مدن المستعمرات كبرازافيل والرباط ، وتتوسع هذه المدن بدون أي تحديد فتنشر الفيلاطات على أطرافها وداخل الحضرة بصورة دائمة لذلك لا تتكون فيها نواة مركزية أو مركز للنقل . ليس مظهر المدينة في الواقع سوى هذه النظرة الاجمالية التي تسمح لنا برؤية المدينة كلها دفعة واحدة وهذه النظرة توضح ترتيب مختلف اجزاء المدينة والعلاقات المتبادلة بين هذه الأجزاء ، إنها توضح في الواقع العلاقات الكائنة بين المساحات المبنية والمساحات الخالية من جهة وتنوع الأحياء من جهة أخرى .

تؤلف المساحة المبنية عادة جزراً صغيرة من المنازل كما تشمل المستودعات والمخازن والمعامل ... الخ اما المساحات الخالية فتتمثل في الشوارع والأزقة والحدائق والملاعب وهي تساعد على التنقل والمواصلات كما تساعد على الشمس .

بالاضافة الى تلك العلاقات الموجودة بين القطاعات المبنية والقطاعات الخالية يساعد تنوع الأحياء على تمييز المدينة؛ ان تصنيف الأحياء الى تجارية وصناعية وادارية وسكنية هو تصنيف قديم . غير أن تخصص الأحياء عاد

للظهور من جديد ، فهناك أحياء الأعمال ذات الأبنية الضخمة التي تضم المكاتب والمصارف ، وتخلو هذه الأحياء تقريباً من السكان ليلاً بينما تعج بهم أثناء ساعات النهار . وهناك الأحياء الصناعية التي تنتشر بالسواد والدخان ويكثر فيها الضجيج ويعج فيها العمال في ساعات بدء العمل وعند خروج العمال من المصانع . ثم هناك أخيراً أحياء الضواحي التي تنتشر فيها المنازل الصغيرة المخصصة للسكن .

٣ - وظائف المدن :

لا تصبح مجموعة من المنازل والمنشآت البشرية مدينة إلا بقدر ما يتعاطى ساكنوها مهناً وفعاليات معينة تختلف اختلافاً واضحاً عن مهن وفعاليات أهل الريف . إن الوظيفة هي التي تفرض على مجموعة المساكن مظهر المدينة وهي التي تكون سبب بقائها وتطورها ، لذلك تشكل دراسة وظائف المدن أهم جزء من جغرافيتها .

إن الوظائف التي تؤلف سبباً وداعياً لنشوء المدن عديدة وسندرس فيما يلي أهمها :

- الوظيفة العسكرية : القلاع ، المرافئ الحربية الخ .
- الوظيفة التجارية : المدن الأسواق ، والمرافئ البحرية التجارية الخ .
- الوظيفة الصناعية : مدن المناجم ومدن المصانع .
- الوظيفة العلاجية ووظائف الاصطياف والسياحة والتسلية والرياضة الخ .

— الوظيفة الفكرية والروحية ... المدن الجامعية ومدن الحج .

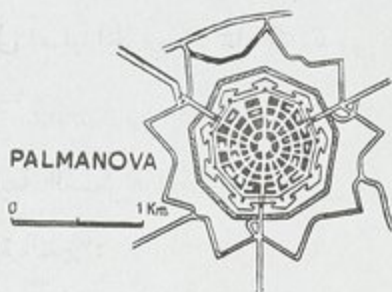
— الوظيفة الادارية وتظهر بشكل خاص في العواصم .

هذا ومن الجدير بالذكر أن هذه الوظائف ليست ثابتة بل إنها في تطور دائم وقد يحل بعضها محل البعض الآخر بل أن عدداً منها قد يجتمع في مدينة واحدة كبيرة .

الوظيفة العسكرية :

١ — مدن القلاع :

اضطرت كثير من مدن العالم في فترة من فترات حياتها الى إحاطة نفسها بالأسوار بغية الدفاع ولكن مثل هذا الاجراء لم يجعل منها مدن قلاع كما لم تخلق تدابير الدفاع المدني المتخذة حالياً في المدن ضد الغارات الجوية مدناً ذات صفة عسكرية . (الشكل — ٥٠)



شكل (٥٠)

مخطط لمدينة محصنة أنشئت بالأصل لغاية الدفاع

غير أن مدناً كثيرة بنيت في الأصل لغايات عسكرية وخاصة تلك التي

نشأت خلال العصور المضطربة . تقسم هذه المدن الى فئتين ، الفئة الأولى انشئت لكي يلتجئ اليها السكان في حالات الحرب لاسيما عند حدوث هجوم من قبل العدو . أما الفئة الثانية فقد بنيت من أجل السيطرة وإخضاع السكان في المناطق المجاورة وكان الرومان قد بنوا كثيراً من هذه المراكز التي تحولت فيما بعد إلى مدن حقيقية مثل ناربون Narbonne وآرل Arles ويزانسون Besançon .. الخ كذلك فعل الروس أثناء استعمارهم لسiberia فشيّدوا القلاع عند مخاضات الأنهار والأماكن التي كان يتخذها القوزاق مراكز استناد .

لقد لعبت شروط الدفاع المناسبة التي تقدمها الطبيعة دوراً كبيراً في انتقاء مواضع هذه المدن ، فاقامت على المرتفعات المنعزلة أو المخاريط البركانية أو داخل الأكواع النهرية ... الخ إلا أن ضرورات الدفاع في وقتنا هذا لم تعد تأخذ بعين الاعتبار مثل هذه المواضع البسيطة لأنها تؤلف هدفاً سهلاً للأسلحة الحديثة . ورغم أن كثيراً من المدن قد فقدت قيمتها الحربية فإنها لا تزال تحتفظ بأسماء تشير إلى أصلها الحربي كالأسماء التي تنتهي بالمقاطع التالية :

châtillon, ferté, garde, burg, castle.

لا شك ان الوظيفة العسكرية أو الحربية تتعلق قبل كل شيء بالشروط السياسية وهذه كثيرة التغير :

لذلك فان التغييرات التي تصيب الأوضاع السياسية والعسكرية تقضي على هذه القلاع إن لم تنشأ فيها أو حولها وظائف أخرى ، جديدة بالبقاء والحياة .

« الموانئ الحربية هي قواعد الأساطيل ، وهذه القواعد تختار على أسس استراتيجية صرفه ، فينبغي ان تكون هذه القاعدة ضمن خليج أمين حصين يمكن أن يأوي إليه جزء كبير من الأسطول أو الأسطول بأكمله ، وما يلحق به من أحواض جافة ومصانع حربية ، كما ينبغي أن يكون متصلاً بشبكة من خطوط المواصلات السهلة تربط القاعدة البحرية بداخل القطر . أما الموقع الاستراتيجي للمياه فهو يتوقف على الغرض الدفاعي أو الهجومي الذي من أجله انشئت القاعدة ، فقد تغيرت مثلاً قواعد الأسطول البريطاني في الجزائر البريطانية تبعاً للظروف السياسية التي أحاطت بتاريخها فقد كانت في الجنوب والجنوب الشرقي إبان الحروب الانكليزية الهولندية ثم انتقلت إلى جزر أوركني وشمال اسكتلندة مع نمو القوة البحرية الألمانية في القرن التاسع عشر ،

إن الموانئ الحربية تشبه إلى حد كبير مدن القلاع التي تبنى داخل القارات ، فهي تبنى من أجل السيطرة على بلاد معينة فميناء الجزائر لعب دوراً عسكرياً خلال منتصف القرن التاسع عشر ولعبت الدار البيضاء وبزرت نفس الدور في بداية القرن العشرين .

وقد قامت الموانئ الحربية في النقاط التي تمر منها الطرق البحرية التجارية الكبرى . وتكون هذه الموانئ في كثير من الأحيان بمثابة بنور لمدين المستقبل . تتحول هذه الموانئ بسرعة هامة لما تحتاج إليه من أحواض لإصلاح السفن وترساتات ومخازن وأحواض لبناء السفن ... وتجذب هذه الملاحقات

اعداداً ضخمة من العمال فتبنى المنازل وتقام الأسواق التجارية وقد يتحول الميناء الحربي إلى ميناء تجاري .

وهكذا فالوظيفة العسكرية قد تؤدي إلى ظهور مدن داخلية أو ساحلية . يتجمع الأشخاص عادة ويتعايشون لكي يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم ، ولكن عندما تتغير الحدود السياسية أو يزول خطر الحروب تجد المدينة لنفسها أسباباً تمكنها من البقاء والاستمرار وتمارس وظائف تنضم إلى وظيفتها العسكرية أو تحل محلها .

الوظيفة التجارية

كانت التجارة دوماً من أهم الوظائف التي تمارسها المدن ، وقد دعت شدة ارتباط التجارة بالمدينة بعض المؤلفين أمثال H. Wagner إلى القول بأن المدن هي النقاط التي تتركز فيها التجارة . وتكاد المدن التجارية تبلغ في قدمها مبلغ المدن الحربية ولكن بينما قضى تقدم الفنون العسكرية على أهمية القلاع والحصون فإن الأسواق التي قامت إلى جانبها أو في داخلها نمت وتوسعت وحولت المدن الحربية إلى مدن تجارية كثيرة الأهمية والتنوع .

إن الوظيفة التجارية للمدن المعاصرة تبدو على شكل حركة من المبادلات المستمرة ، وهذا الاستمرار في التبادل هو الذي يميزها عن القرى التي تتصف تجارتها بالدورية Périodique . ولقد أصبح التخزين الشكل الجديد لتجارة

المدن ، إذ تخزن البضائع المصنوعة في مستودعات ومخازن كبيرة تسهل البيع والتصدير .

والوظيفة التجارية هي التي تفسر أيضاً بعض المظاهر الخاصة ، ففي المدن الأميركية مثلاً نجد لوحات الدعاية المضيفة التي تضيء على المدينة رونقاً سحرياً خلال الليل . كذلك تفسر الوظيفة التجارية أيضاً ما نجد من أبنية خاصة تتمثل في المخازن العامة ومستودعات محطات نقل البضائع . هذا ويمكن تقسيم المدن التجارية إلى ثلاث زمر : الاسواق المحلية ، ومدن التجارة البعيدة المدى والمرآكز الكبرى للتجارة ، وسندرسها على التوالي :

١ - الاسواق المحلية

يبدو أن الأسواق المحلية كانت دوماً ضرورة اجتماعية وقد وجدت حتى عند الشعوب البدائية . وقد سكن الناس بالقرب من هذه الأسواق ليمتنعوا التبادل التجاري .

وكانت هذه الأسواق المحلية في بدايه أمرها موقته ودورية تنعقد في اوقات معينة غير أن هذه المدن مالبت أن تمت وتطورت وبلغت أوجها في أوروبا خلال القرن التاسع عشر وقد ساعدها في ذلك تحسن شبكات الطرق المحلية والاقليمية .

غير أن تحسن وسائل النقل وازدياد سرعتها أضر بالمدن الصغيرة لانه ساعد على توسيع مدى تأثير المدن التجارية الكبرى .

٢ - مدن التجارة البعيدة المدى

تبدو التجارة البعيدة المدى سهلة أمام أعيننا نحن الذين اعتدنا على استهلاك قهوة مستوردة من البرازيل وشاي من سيلان و بضائع من مختلف بقاع الدنيا. غير ان هذه التجارة كانت صعبة جداً فيما مضى بسبب عدم توفر وسائل وطرق النقل المناسبة ، ومع ذلك فقد ظهرت هذه التجارة منذ زمن بعيد جداً وقد قطع التجار مسافات بعيدة بحثاً عن التوابل والحزير والاحجار الكريمة النادرة .
وتقسم مدن التجارة البعيدة المدى إلى مرافئ بحرية ومدن قارية .

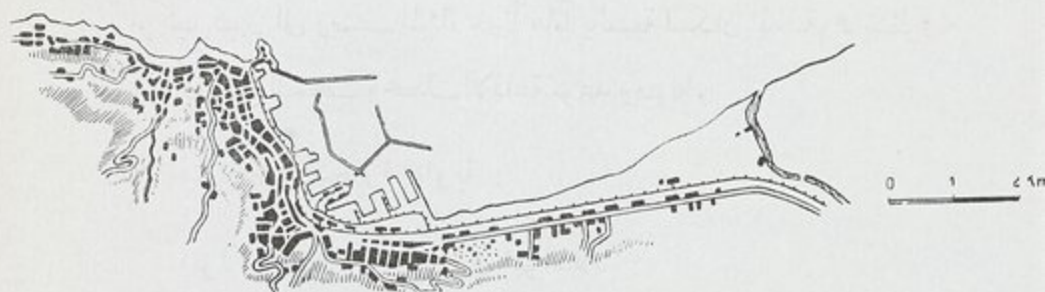
أ - الموانئ البحرية :

تعتبر الموانئ البحرية من أقدم المدن التي مارست التجارة البعيدة لأن البحر طريق صالحة للملاحة لمختلف الجهات، وفي العصور القديمة كانت معظم المدن التجارية في حوض البحر الابيض موانئ بحرية .

ولكي يقوم ميناء بحري في مكان ما يجب أن تتوفر له شروط معينة :

— موقع حسن يساعد على اقامة علاقات بين ظهره Hinterland والبلدان الاخرى ؛ فلكل ميناء ظهر (المنطقة التي تقع خلف الميناء) يخدمه ويصرف منتجاته ويتقبل البضائع من الخارج لتوزيعها على مختلف أقسامه . وقد تعدى أهمية بعض الموانئ الاقطار التي تقع فيها وتمت نفوذها الى ما وراء حدودها مثل هامبورغ التي كانت تورد و تصدر بضائع المانيا وتشكوسلوفا كيا . وكانت بيروت الى وقت قريب مرافئ للبنان وسورية بل وللمراق والاردن أيضاً .

وللشروط السياسية دورها في حياة الموانئ والاضطرابات التي أصابت ميناء
تريستا بنتيجة الحوادث السياسية أمر معروف ، ولقد كان الاستقرار السياسي



شكل - (٥١)

العامل الأساسي الذي ساعد على ازدهار مرفأ شانغهاي .

ولقد لعبت الشروط الطبيعية دوراً هاماً في حياة الموانئ فقد كانت الرياح
وقلة عمق الشاطئ والحبال الرملية وتجدد المياه تخلق مشاكل صعبة غير أن
التقدم العلمي والفني قد ذلل مثل هذه الصعاب ، فالمرأ اليوم هو من عمل
الانسان قبل ان يكون من عمل الطبيعة .

هذا وتتطلب الموانئ تجهيزات خاصة من أجل تحميل البضائع وتنزيلها،
وهناك اتجاه لتخصص الميناء بتجارة مادة معينة ، فكارديف هو ميناء للفحم،
وهناك مرفأء للبتروول وللأرز والصويا ... الخ

ويمتد الميناء مع ملحقاته المختلفة نحو المدينة ، فالحياة التجارية التي نشأت
على أرضة الميناء لاتلبث أن تمتد الى مكاتب المدينة ومستودعات التصدير
والشركات المالية فتغذي الصناعة وتخلق المحاكم وتجذب القنصليات الاجنبية

(كان في هامبورغ في وقت ما أكثر من ٢٠٠ قنصلية) . وهكذا ترتبط حياة المدينة بالميناء وتعيش منه . ويدرك سكان المدينة بأن منارة الميناء التي تشع طوال الليل إنما تعمل لتستقدم لهم البواخر حاملة الغنى والخير . ويعتبر وصول مركب كبير الى رصيف الميناء حدثاً هاماً بالنسبة لسكان المدينة وهم ينتظرونه بعد أن تعلن الصحف ومحطات الاذاعة موعد وصوله .

ب - مدن التجارة القارية :

المراكز التجارية على طرق المواصلات :

تؤلف مجاري المياه أسهل طرق المواصلات داخل القارات لذلك استخدمها الانسان منذ القديم ، لهذا تأسست مراكز تجارية قارية هامة على ضفاف الانهار وفي الأماكن التي تنتهي فيها الملاحة النهرية أو يتوجب فيها تغيير وسيلة النقل . وللهوانىء النهرية مدن خاصة بها نشأت من حركة تجارة البضائع أو من ضرورات النقل .

غير أن الانهار الصالحة للملاحة قليلة بالنسبة لسعة القارات ، والسكك الحديدية حديثة العهد لذلك فإن معظم المدن التجارية القارية إنما كانت تعتمد على طرق المواصلات البرية ، فعلى تخوم الصحراء تقوم مدن تجارة القوافل ونشأة مدينة تدمر وازدهارها مثلاً لم يكن سوى نتيجة مرور طرق تجارة القوافل بها .

وكانت القوافل التي تسير على الطرق البرية تحتاج للاستراحة والتوقف في مراحل معينة ومن هنا نشأت مدن المراحل ، وكانوا يختارون مواقع هذه المدن

عادة بالتقرب من الممرات الصعبة حيث كانوا يستريحون وحيواناتهم قبل محاولة اجتياز تلك الممرات .

ولم يقتصر دور طرق المواصلات البرية على خلق مدن المراحل فحسب ، بل إنها خلقت مدناً هامة عند تقاطع الطرق الرئيسية في سفوح الجبال أو السهول الكبرى .

مدن المحطات :

اضطرت السكة الحديدية ، وهي حديثة العهد ، الى التلاؤم مع الأوضاع التي كانت موجودة عند ظهورها ، وعلى هذا فقد اقتصر دورها غالباً على ادخال بعض التعديلات على المدن . ومع ذلك فان السكك الحديدية خلقت مدناً عديدة ، فالنقل بواسطة الخط الحديدي يحتاج الى أماكن لتبديل القطارات او تزويدها بالوقود ، ولتصنيف البضائع المعدة للنقل وهذه الأماكن لا تلبث أن تصبح مدناً فيما بعد . ولكن يجب أن نتنبه الى أن الذي يخلق المدينة فعلاً ليست هي سكة الحديد بل التجارة التي تستخدم هذه السكة . لقد كانت السكك الحديدية وسيلة التوغل والاعمار في البلاد الجديدة وقد ساعدت بالتالي على نمو المدن ، وعلى هذا فقد وصفت الحضارة الأمريكية بأنها حضارة السكة الحديدية . إن المحطة في هذه البلاد لا تلعب دور سوق للتبادل الدوري بل انها أساس كل الاقتصادي الاقليمي .

أما في البلاد الأوروبية ذات الحضارات القديمة فان محطات القطارات قد نشأت قرب المدن واقتصر دورها على ادخال بعض التعديلات عليها وخاصة

على المدن الصغيرة ؛ إن ديجون متلا كانت مدينة صغيرة لا يسكنها أكثر من ٢١ ألف نسمة في بداية القرن العشرين فارتفع عدد سكانها الى ٩٦ ألف نسمة عام ١٩٣٦ وكانت قد اختيرت لتكون محطة كبرى ومركزاً تتقاطع فيه الخطوط الحديدية .

٣ - المراكز الكبرى للتجارة :

وهكذا فان الوظيفة التجارية أوجدت مدناً متنوعة تختلف عن بعضها حياةً ومظهراً تبعاً لوسائل النقل التي تستخدمها التجارة فالواناء التجارية تختلف عن مدن المحطات والواناء النهرية لاتشبه المدن التي تنشأ على مفارق الطرق .

هذا ونحاول المدن التجارية الكبرى أن يكون لديها وسائل للنقل متنوعة فمدينة آنفوس التي تستقبل كل عام حوالي ٢٠ مليون طن من حمولات السفن تستخدم الملاحة النهرية على نهر الايسكو المرتبط بنهر الموز عن طريق قناة « البير » ، كما تستخدم خطوطاً حديدية كثيرة تسير لمختلف الاتجاهات . إن المراكز التجارية الكبرى لاتكاد تجد لنفسها مكاناً ضمن تصنيف وظائف المدن الذي ذكرناه آنفاً ، إنها أشبه ماتكون بمستودعات كبيرة تأتي إليها وتتراكم فيها البضائع القادمة من كافة انحاء العالم . وفي تلك المستودعات تصنف البضائع وتراقب وتضان ، ولكي يسهل تخزين هذه البضائع وتوزيعها كثيراً ماتكون الصناعة التحويلية الأولية ضرورية: كتنقية الكاوتشوك من شوائبه وقشر كل من الرز وفستق العبيد.. وتجفيف الكاكاو .. الخ

غير أن هذه المراكز التجارية الكبرى ليست مجرد مستودعات ومخازن بل انها مراكز كبرى للاعمال التجارية ولذلك فانها تمتاز بوجود المكاتب التجارية الكبرى والمصارف الهامة ، لقد كان انشاء بنك انكلترة عام ١٦٢٤ حدثاً بالنسبة لساحة لندن ، وقد بقيت لندن بعد ذلك مدة طويلة مدينة تقديية ذات اسعار رخيصة . ووجود المصرف التجاري يعمل على استقطاب مكاتب الاعمال بل والبضائع . وكثيراً ما تجذب الاعمال التجارية الصناعة لتوفر المواد الاولية وسوق الاستهلاك معاً ، فان منطقة الفلاندر مثلاً لم تصبح مركزاً صناعياً في العصور الوسطى الا بفضل موقعها التجاري . هذا وتختلط الفعالية التجارية بالفعالية الصناعية في هذه المراكز الكبرى بحيث يصبح من الصعب الجزم فيما اذا كان يجب تصنيفها مع المدن التجارية أم مع المدن الصناعية .

الوظيفة الصناعية

ليست الصناعة خاصة بالمدن كالتجارة ، فكثير من المصنوعات كانت ولا تزال تصنع في الريف خاصة في الشرق الاقصى ، بل ان الصناعة الحديثة كثيراً ما تبعد عن اليد العاملة الرخيصة في الريف . غير أن العمل الصناعي الحديث بدأ يميل منذ وقت غير قريب الى التركز والتكاثف ويدفعه الى ذلك التقدم التكنيكي ولهذا فقد أصبحت الصناعة تدريجياً واقماً يخص المدن ، بل ان صناعات معينة ، كالصناعة الحديدية مثلاً ، لا يمكنها أن تنشأ بعيدة عن المدينة بل انها هي التي تخلق المدن في كل مكان تنشأ فيه .

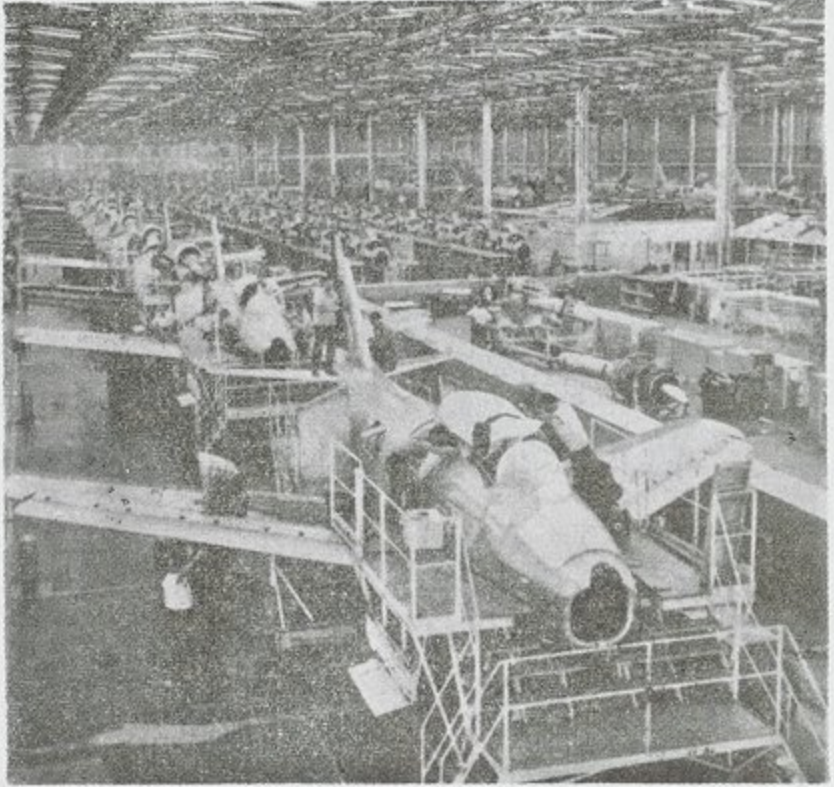
وللمدن الصناعية أنواع منها مدن المناجم وهي المدن التي تختص باستخراج نوع معين من الفلزات أو باستخراج الفحم الحجري . وتشكل مدن المناجم وسطاً مغلقاً جداً والحياة العائلية فيها تدور كلها حول المنجم فالابن ينزل الى المنجم مع أبيه منذ سن الرابعة عشرة من عمره وكانت الأم تعمل فيه أيضاً قبل صدور القوانين الخاصة التي قصرت عملها على سطح الارض ، وعلى هؤلاء العمال تقوم الحضارة المعاصرة وهم بالحقيقة سادتها وضحاياها .



الشكل - (٥٢)

نموذج مساكن عمال المناجم يلاحظ ان الدور بنيت جميعها على نمط واحد هنالك أيضاً مدن المصانع والمعامل - والانسان حر في اختيار المواقع التي يؤسس فيها صناعاته التحويلية ، وقد تلعب الصدفة دوراً في اختيار مواقع مدن الصناعة التحويلية ومع ذلك فلن هذه المدن شروط معينة تبرر هذا الاختيار . تبحث المراكز الصناعية عادة عن أماكن تتوفر فيها المواد

الأولية وموارد الطاقة ، والماء واليد العاملة ورؤوس الأموال وأسواق الاستهلاك وطرق المواصلات . الشكل (٥٣) .



الشكل (٥٣)

معمل لصنع وتركيب الطائرات . يجري العمل في هذا المعمل على الطريقة الاميركية

ومن المعروف ان الصناعة تستدعي الصناعة ، وتجاوز صناعات مختلفة يفيدها جميعاً اذ أنها تتعاون في تأمين المواد الأولية والوقود والرساميل بل والعمال بأجور رخيصة .

فالمدينة اذن وسط صناعي ولكن القاعدة التي تستند اليه هو التنظيم

الاقتصادي . وليس من الضروري أن تبقى المعامل والمصانع دوماً داخل المدينة قد تنتقل كلها الى الضواحي ومع ذلك فان المدينة تبقى مركزاً للتنظيم الصناعي وهذا ما يطلق عليه اسم المدينة - المكتب ville - burean وتتفرق الصناعات وتبعثر خارج المدينة ، ولكن المدينة تبقى مركزاً لها ويكون لكل مؤسسة صناعية مكتب لادارة الأعمال ومكاتب للأعمال التجارية ومن الأمثلة عن مدن المكاتب ليون في فرنسا ومانشيستر في انكلترة وإسن في حوض الرور في المانيا .

إن التجارة هي التي تستدعي الصناعة غالباً الى المدن ، لأنها هي التي تؤمن الوقود ورؤوس الأموال واليد العاملة والمواد الأولية كما تضمن بيع وتصريف المواد المصنوعة ، وعلى هذا فالصناعة والتجارة تشكلان داخل المدن حل تعائش حقيقي .

الوظيفة الروحية :

كان الناس ولا يزالوا يجتمعون ليقوموا بالعبادات بصورة جماعية وليتبادلوا المعرفة . ففي البرازيل توجد مدن موقنة تعرف باسم « مدن يوم الاحد » . ففي يوم الأحد يجتمع السكان المبعثرون في منطقة واسعة ليقوموا بصلوات مشتركة ويبنى كل واحد منهم منزلاً ومجموعة هذه المنازل تشكل فيما بعد مدينة حقيقية .

لقد دفعت المشاغل الروحية والفكرية بني البشر الى بناء مدن ذات طابع خاص كالمدين الدينية والمدن الجامعية .

١ - المدن الدينية :

هنالك مدن مخصص كل فعاليتها للحياة الدينية ، وكثيراً ما كانت الأديرة سبباً في قيام المدن في التبت مثلاً تكون المدينة مجموعة من الأديرة التي يسكنها الرهبان ، أما الرجال العاديون الذين لا يكرسون حياتهم للعبادات فيسكنون في الضواحي .

ومن أهم المدن الدينية تلك التي يقصدها الحجاج ؛ ان الأماكن التي يتوافد إليها الاتقياء والمتعبدون لا تلبث أن تتحول الى مدينة ذات طبيعة خاصة وتجدر الإشارة هنا الى أن تمركز هذه المدن في أماكن معينة لا يخضع لأي حتمية جغرافية . هذا وإن سهولة أو صعوبة الوصول الى هذه الأماكن المقدسة امر ثانوي بالنسبة الى الدوافع الروحية التي تدفع الناس لزيارتها . وهنالك نوع من الشبه بين مدن الحج والمدن السياحية لأن فعاليتها موقته وتقتصر على موسم معين . غير أن هذه المدن الدينية المقدسة لا تكتفي أن تكون فندقاً ونزلاً للقادمين ، بل انها تبيعهم ذكريات دينية مقدسة كما تؤمن لهم كل ما يحتاجون اليه ومن هنا تكتسب المدينة صبغة تجارية . ومن المدن الدينية المشهورة في العالم بيت المقدس ، ومكة المكرمة والمدينة المنورة ولورد في فرنسا وروما وبنارس في الهند ولاهاسا في التبت .

٢ - المدن الجامعية :

تشبه المدن الجامعية المدن الدينية الى حد ما ، ففي ميدان القيم الروحية

جاءت الدراسات الفكرية متممة للدراسات الدينية . ولا يزال لبعض الجامعات طابع المؤسسات الدينية كجامعة لوفان في بلجيكا مثلاً .

توجد الجامعات في المدن الكبرى عادة ، غير أنه لوحظ ان الجامعة تعاني مصاعب كبيرة في التوسع وفتح كليات جديدة فقد تبعثت كليات جامعة باريس في كافة أنحاء الحي اللاتيني . لذلك وجد من المناسب أن نحصر الحياة الجامعية في مدن صغيرة تستطيع الجامعة ان تتوسع فيها بكل حرية . وقد سادت هذه الفكرة منذ زمن بعيد في بعض البلاد لذا نجد فيها مدنًا تظفي عليها الوظيفة الجامعية . فمدن ا كسفورد وكامبردج في انكلترا وهايديلبرغ وينا Iéna في المانيا واوبسال في السويد وبرنستون في امريكا كلها مدينة بحياتها وشهرتها الى الجامعات الموجودة فيها .

الوظيفة العلاجية ووظائف الاصطيف والسياسة والرياضة والتسلية :

قد يبدو غريباً أن نجتمع تحت عنوان واحد كل هذه المدن وهي ذات وظائف متباينة جداً كمدن الاستشفاء التي يقصدها المرضى ومدن الاصطيف التي يقصدها الناس للراحة والتسلية . ومع ذلك فان لكل هذه المدن صفة مشتركة هي أنها تؤوي أشخاصاً عاطلين لا يقومون بأي عمل ولا يبقى هؤلاء الناس في هذه المدن الا فترة صغيرة ثم يمضون لياتي غيرهم .

١ - مدن المياه :

لقد اعتقد الناس منذ القديم بفوائد بعض المياه فقصدوها منذ أقدم العصور وقد خلقت وفود الناس اليها مدناً حقيقية . وقد اشتهرت في أوروبا

منذ عصر الرومان مياه إيكس لبيان Aix - les bains والمياه المعدنية الحارة في إيكس لاشابل Aix - la chapelle .

لكن هذه المدن التي تفيد مياهها في معالجة بعض الامراض كانت مقصورة على فئة صغيرة من الأغنياء ، وقد ساعد ظهور القطار الناس فيما بعد على ارتياد مثل هذه الأماكن باجور رخيصة . إن وجود نبع حار أو معدني لا يكفي لخلق مدينة مياه بل يجب أن تكون طرق المواصلات متوفرة وأن تكون بالقرب منها سواحي ومنتزهات جميلة .

ولما كان رواد هذه المدن من الاغنياء فانها تنص الفنادق الفخمة وتؤمن لهم كل وسائل اللهو والتسلية . والخدمات التي يجب تأمينها لهم تتطلب عدداً كبيراً من الأيدي العاملة . وأكبر صفة لهذه المدن هي أن فعاليتها موسمية لاآتمد على طول العام .

٢ - المدن المناخية :

ان الشروط المناخية التي تسود في بعض المدن تساعد على اجتذاب عدد كبير من الزوار ، وهذه المدن على أنواع .

مدن الاصطياف : وتكون عادة في المرتفعات الجبلية التي لا تشد فيها الحرارة خلال فصل الصيف أو على سواحل البحر أو البحيرات .

مدن المشاتي : كذلك فان المدن التي يكون شتاؤها لطيفاً تجتذب اليها اغنياء البلاد الباردة . فسكان بلاد الشمال في أوروبا يقصدون سواحل البحر

المتوسط عادة لقضاء فصل الشتاء والتمتع باشعة الشمس الدافئة كما هي الحال في مدينة نيس مثلاً .

مدن المصحات :

وهي مدن يتوفر فيها نور الشمس بسبب صفاء سمائها ويقصدها الناس لمعالجة بعض الأمراض كالسل مثلاً. فمذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأوا بمعالجة السل الرئوي والعظمي عن طريق الهواء النقي والشمس . وتبنى هذه المصحات عادة فوق الهضاب المرتفعة المحمية من الرياح والرطوبة . ولا يقصد هذه المدن سوى المعلولون الذين يأتونها للاستشفاء أما الأصحاء فيبتعدون عنها مخافة العدوى .

مدن المتقاعدين : هنالك مدن يقصدها المتقاعدون ليقضوا فيها بقية عمرهم في هدوء وراحة . انها تشبه مدن الاصطياف بكونها خالية من سكان عاملين ولكنها تختلف عنها بأن سكانها مستقرون فيها دوماً ولا يتجددون بين فترة وأخرى .

٣ - مدن السياحة :

لا يعرف السياح الهدوء والاستقرار إنما يتنقلون من مكان لآخر بصورة فردية أو بشكل جماعات صغيرة غير أن بعض الأماكن المشهورة بآثارها غدت مدنًا صغيرة رغم بعدها كمدينة أسوان في مصر وتدمر في سورية . وتعتبر السياحة الجبلية أكثر أنواع السياحة انتشاراً . وهناك سياحة صحراوية وقد استفادت من هذه السياحة بعض المدن الموجودة على تخوم الصحراء وقد ازدهرت بفضلها: كمديني غاردايا وطوغورت. ثم هنالك سياحة نحو

البقاع الشمالية وقد ازدهرت بفضلها مدينة كيرونا السويدية .
هنالك أيضاً المدن التاريخية يقصدها السياح لما فيها من آثار ولكنهم
لا يقيمون فيها طويلاً . وتعتبر المدن الإيطالية من أشهر المدن التاريخية .

الوظيفة الادارية - العواصم :

العاصمة مركز اداري وسياسي يؤدي خدمات متنوعة تتطلبها عادة ممارسة السلطة . والعاصمة عادة مدينة كبيرة ولكن العواصم تختلف مع ذلك من حيث المساحة وعدد السكان من قطر لآخر . فلندن عاصمة المملكة المتحدة يبلغ عدد سكانها حوالي ٨.٥ مليون نسمة ، بينما لا يتجاوز عدد سكان عاصمة الجبل الاسود المسماة cittinje ٦٠٠٠ نسمة فقط ولكنها مع ذلك تقوم بكل وظائف العواصم الادارية والسياسية . هذا ولا تبدأ الوظيفة الادارية صغيرة ثم تنمو تدريجياً كالوظيفة التجارية والصناعية . بل إن المجتمع السياسي هو الذي يعطي وظيفة الادارة والعاصمة ، وقد يعطيهامدينة صغيرة فيخلق منها عاصمة كبيرة كما حدث في تركيا عندما نقلت العاصمة من استانبول الى انقره وقد يبني المجتمع عاصمة جديدة كمدينة كانبرا في استراليا وبرازيليا في البرازيل .

ان اختيار موقع العاصمة امر مهم ، لأن الاخطاء التي قد تقع في هذا الاختيار لاتصلح بسهولة . وتراعى عادة عند انتقاء العاصمة بعض الشروط :
١ - ان تكون العاصمة في مركز البلاد قدر الامكان كمكبريد وانقرة مثلا ولكن معظم بلاد العالم ليس لها شكل سطح مضلع تستطيع العاصمة ان تحتل

مركزه ، وتلعب الأودية التي تتحكم في طرق المواصلات الداخلية دوراً كبيراً في بعض البلدان كالنمسا التي تقع عاصمتها فيينا على نهر الدانوب ، ويوغوسلافيا التي تقع عاصمتها بلغراد عند التقاء نهر الدانوب بنهر السافا .

٢ - وقد يقع الاختيار على مركز أغنى اقليم في البلاد . فباريس مثلا هي مركز حوض واسع وغني ومأهول في فرنسا وكذلك لندن بالنسبة لانكلترا .

٣ - وقد يؤخذ بعين الاعتبار الدور الذي لعبه اقليم ما في توحيد البلاد فيتخذ مركز ذلك الاقليم عاصمة لكل البلاد فمدينة برلين كانت عاصمة بروسيا التي تزعمت حركة الوحدة الألمانية كذلك أصبحت فيما بعد عاصمة الرايخ الألماني .

٤ - وقد يراعى عند اختيار العاصمة علاقات الدولة الخارجية مع غيرها من الدول ، فعندما تكون الدولة متجهة نحو الخارج بسبب شروطها الجغرافية نجد ان العاصمة تطل على ساحل البحر ، فقد كانت الاسكندرية عاصمة مصر في عهد البطالسة واستامبول عاصمة الأتراك في عهد العثمانيين . وتقع على البحر أيضاً عواصم المستعمرات لكي يسهل الاتصال بينها وبين الدول المستعمرة مثل مدينة الجزائر وداكار وسايغون . ونذكر هنا ان بطرس الاكبر كان قد نقل عاصمة ملكه الى سان بطرسبورغ (لينينغراد الحالية) عندما أراد ان يخرج روسيا من عزلتها وان يوجهها نحو أوروبا الغربية .

٥ - وقد يراعى ايضاً عند اختيار موقع العاصمة شروط الدفاع عنها ، فسقوط العاصمة في الحرب له أثر كبير في معنويات الشعب وقد يؤدي الى شل الجهاز الحكومي تماماً . ولذلك لا يستحسن أن تكون العاصمة قريبة جداً من

الحدود بحيث تتعرض للسقوط بسرعة بعد اعلان الحرب . وهذا مايفسر نقل العاصمة التركية من استنامبول الى انقره .

٦ - وقد يؤخذ الماضي التاريخي بعين الاعتبار ، فليست كل مدينة جديرة بأن تكون عاصمة ، وقد تفضل المدن ذات الماضي التاريخي المجيد على المدن الاخرى ، ولذلك اختيرت المدن التاريخية لتكون عواصم الدول الحديثة التي قامت بعد الحرب العالمية الاولى مثل فارسوفيا عاصمة بولونيا وريغا عاصمة لاتفيا وهلسنكي عاصمة فنلندا . وقد كانت في ايطاليا مدن كبيرة يمكنها ان تكون عاصمة مثل تورينو وميلانو وناپولي ومع ذلك اختيرت روما لما لها من تاريخ مجيد .

هذا وتجدر الاشارة الى أن كل الاعتبارات السابقة لاتكفي لتفسير وتبرير مواقع كل العواصم في العالم ، فالعاصمة ليست في الواقع مجرد مركز اداري ، انها تعبر عن أعمق مافي حياة الدولة ، تعبر عن مبادئها في الادارة والسياسة والستراتيجية .

العاصمة هي مقر رئيس الدولة وهي بالتالي مقر المجالس النيابية والوزارات ومايتبعها من دوائر ملحقة . وينجم عن ذلك أنها تكون مقراً للحياة راقية ويتركز فيها غالباً النشاط الأدبي والفني والعلمي . وتجتمع فيها عادة أحسن مافي البلاد من صناعات تنتج افخر المصنوعات .

ومن الامور المعروفة عن العواصم أن عدد السكان يزداد فيها بسرعة ملحوظة بحيث أنها تغدو مركزاً تجارياً هاماً وسوقاً كبيرة للاستهلاك تستورد حاصلات المناطق المجاورة . ولا بد أخيراً من الاشارة الى وجود عواصم كبرى

تفوق سلطتها سلطة العواصم العادية ويمتد نفوذها خارج حدود الدولة الى مناطق اخرى : تلك هي عواصم الامبراطوريات . لقد كانت كل من مدريد ولسبونة عاصمة لامبراطورية واسعة ، ولا يزال امستردام وباريس عاصمتين لامبراطوريتين استعماريّتين . واحسن مثل للعواصم الامبراطورية مدينة لندن التي يمكن اعتبارها عاصمة العواصم supercapitale لانها تشرف على اقطار عديدة مثل كندا وزيلنده الجديدة واستراليا وعدد كبير من المستعمرات .

٤ — المخزومات العامة في المدن

يعيش داخل المدينة وعلى ساحة محدودة من الارض عدد كبير من السكان وتخلق ظروف الحياة فيها وسطاً خاصاً لا بد من التلاؤم معه . ويتصف الوسط الذي يعيش فيه أهل المدن بأنه غير صحي غالباً بسبب الأبنية المتقاربة التي تحجز عن بعضها أشعة الشمس وبسبب الجو المشحون بالغبار والدخان الذي يتصاعد من المنازل والمصانع والسيارات والقطارات ... ويتصف هذا الوسط ايضاً بالضيق النسبي وخاصة ضيق الشوارع التي تزدحم خلال ساعات النهار بالمارة وال عربات والسيارات ... بحيث يصبح تنظيم حركة المواصلات أمراً ضرورياً . هذا ولا بد من تأمين المواد الغذائية المختلفة لسكان المدن وهم أناس لا يشتغلون في انتاج مثل هذه المواد ، كذلك لا بد من التخلص من الاقذار والاورساخ والفضلات التي يتركها هذا العدد الضخم من الناس في كل يوم . وعلى هذا فان السلطات في المدن تجد نفسها وجهاً لوجه أمام ضرورة ملحة ، ضرورة تأمين خدمات عامة تهدف الى تأمين حياة أفضل لهذه الفئة الكبيرة من المواطنين . وسندرس فيما يلي أهم هذه الخدمات العامة

١ - المواصلات داخل المدن :

تخضع حركة النقل والمواصلات داخل المدن لشروط خاصة يجب التغلب عليها ليتمكن المشاة ووسائل النقل المختلفة من الحركة بسرعة وإلى كافة الجهات ومن هنا كانت ضرورة وضع أنظمة السير وخلق شرطة خاصة للإشراف على تنفيذها .

ولكي ندرك أهمية حركة المواصلات والنقل في مدينة كبيرة كباريس نذكر أن طول خطوط المترو بها يبلغ ١٥٠ كم ، وطول خطوط الضواحي ٨٥٠ كم وطول خطوط سيارات النقل العامة ٢٠٠٠ كم ويبلغ عدد الذين يستخدمون سيارات شركة النقل داخل باريس مليونين من الأشخاص .

هذا وقد ساعد توفر وسائل النقل بين المدينة وضواحيها على تخفيف أزمة المساكن فيها لأن عدداً من الذين يعملون في المدينة يستطيعون السكن في الضواحي القريبة . ولكن المدينة تشعر بالازدحام وتصبح حركة المواصلات في ساعات بدء العمل أو انتهائه .

٢ - تموين المدينة بالمواد الغذائية :

يعمل أهل القرية على إنتاج معظم حاجياتهم وخاصة الغذائية منها ، ويمكن أن توصف سياسة الاقتصاد الريفي بأنها سياسة اكتفاء ذاتي . أما أهل المدن فلا يزرعون ولا يمحصدون فإذا لم تأتهم المواد الغذائية من الخارج تعرضوا للجوع . ولا يشعر سكان المدن بأهمية وصعوبة هذا التموين إلا عندما تنقطع الواردات

الآتية من الخارج ، واذا قلَّ خطر الجوع الذي يهدد سكان المدن في الوقت الحاضر فإن سكان المدن خلال العصور الوسطى عاشوا في خوف دائم من المجاعة .

إن صعوبات التموين ليست واحدة من أجل كل المدن ، فإذا كانت المدينة صغيرة ولم تتجاوز في نموها حدوداً معينة فإن ضواحيها القريبة تستطيع أن تمدها بما تحتاج اليه من مواد غذائية . غير أن هذه الضواحي تعجز في كثير من الأحيان عن تأمين حاجات المدن وتضطر هذه الى استيراد حاجاتها من مناطق بعيدة وهنا تظهر مشكلة تأمين نقل وتوزيع هذه الحاجات وهما أمران صعبان خاصة من أجل المواد السريعة التلف كالخضار والفواكه والاسماك والالبان .

٣ - تأمين مياه الشرب :

إن تأمين المياه الضرورية للشرب ، ولمتطلبات الحياة اليومية الأخرى هو من أول الواجبات التي تتطلب جهداً مشتركاً من أهل المدن ، فالآبار الفردية لا تكفي لعدد من السكان يزايد بصورة مستمرة ، أضف الى ذلك أن حاجة الانسان للماء تزداد أيضاً في المدن . وقد قدر أن ساكن المدينة يحتاج في اليوم الى ٥٠٠ لتر من الماء وسطياً ، ويدخل ضمن هذا المعدل ما يصرف من الماء لرش الشوارع ولتأمين حاجة الصناعة .

إن تأمين مياه الشرب أصعب بكثير من تأمين الماء الضروري لبقية الاستعمالات الأخرى ، وذلك لأن مياه الشرب يجب أن تكون صافية ونقية

وتضطر مدينة باريس بالرغم من مرور نهر السين فيها الى جلب مياه الشرب من مسافة تبعد عنها ١٧٣ كم كذلك تفعل مدينة دمشق اذ تجلب مياه الشرب من نبع عين الفيحة الذي يبعد حوالي ٢٢ كم عن المدينة .

ويجب أن تراقب مياه الشرب بصورة مستمرة ودقيقة ، ويجري فحصها كل ساعة مرة في بعض المدن ، والوسائل الحديثة لتصفية الماء جديدة بالثقة وتدعو للاطمئنان .

٤ - تأمين التدفئة والانارة :

كان تأمين الوقود الضروري للتدفئة والانارة واجباً يقع على عاتق الأفراد فكان كل فرد يشتري الزيت والشموع والخطب والفحم ... الضروري لاسرته غير أن وسائل جديدة للتدفئة والانارة في القرن التاسع عشر ظهرت للوجود ولكنها كانت تحتاج الى تنظيم جماعي .

كان غاز الاستصباح يستخدم في معظم المدن الأوروبية للاضاءة والتدفئة معاً ويمتاز هذا الغاز بأنه رخيص الثمن يعطي الحرارة والدفء مباشرة واستعماله سهل ولا يحتاج الى أي جهد . لقد اقتصر استعمال هذا الغاز في الوقت الحاضر على التدفئة والاستعمالات المنزلية ولم يعد يستخدم للاضاءة .

وقد حل الكهرباء محل غاز الاستصباح في الاضاءة وشاع استعماله في كل المدن تقريباً ومن مميزات أنه سهل النقل وله استعمالات كثيرة. ولكن التدفئة بواسطة الكهرباء والغاز تكلف غالباً لذلك بدأت المدن باستخدام « التدفئة المركزية » على نطاق الأحياء بدلا من أن يكون على نطاق البناء الواحد وتعمل في توليد الطاقة الحرارية الضرورية للتبخير بمحرق الفضلات والأوساخ. وتستخدم

هذه الطريقة في الولايات المتحدة وفي باريس .

٥ - تأمين النظافة والتخلص من الاوساخ والفضلات :

إن أبسط مبادئ المحافظة على صحة سكان المدن تفرض على السلطات البلدية التي تحرص على نظافة المدينة التخلص من المياه المستعملة الوسخة ومن كافة الفضلات والقمامة . ولذا عمدت هذه السلطات الى انشاء المجاري وجمع القمامة من الازقة والشوارع وتشكل هاتان العمليتان أول مرحلة من مراحل تنظيم المدن .

فلمدينة باريس شبكة من هذه المجاري يبلغ طولها ١٧٢٨ كم ويبلغ صيبيها اليومي ٤٦٣ مليون م^٣ من المياه القذرة التي تصفى من محتوياتها الصلبة وتقوم ثم تصرف لسقاية ٥٠٠٠ هكتار من الاراضي التي يزداد خصبها ويرتفع مردودها من الخضار المختلفة .

أما القمامة والأوساخ فانها عادة تجمع من المنازل وقد بلغ وزن هذه الأوساخ التي تجمع يومياً في مدينة باريس ١٦١٠٠٠٠٠٠ طناً . ويوجد من هذه الفضلات ما يمكن أن يستفاد منه فنستخرج منها الخروق بواسطة آلات خاصة كما تستخرج المواد المعدنية بطريقة المغناطيسية الكهربائية ويحرق الباقي إما للحصول على الكهرباء أو على البخار . وترمي بعض المدن الساحلية بأوساخها في البحر بعيداً عن الساحل .

٦ - الخدمات الاخوى في المدن :

تحتاج المدن الى رجال الشرطة للمحافظة على الأمن فيها كما تحتاج الى مصلحة خاصة لمكافحة الحرائق . وهناك ضرورة للمحافظة على صحة السكان لذلك تنشأ المشافي والمصحات ودور التوليد ٠٠٠ والمدينة بحاجة طبعاً الى عدد من المدارس الابتدائية والثانوية الخ ٠٠٠

• • •

الفصل الرابع عشر

النقل والمواصلات

اضطر الانسان منذ القديم للتنقل بحثاً عن الحاجات الضرورية لتأمين غذائه وكسائه كما وجد نفسه مضطراً لنقل ما يعثر عليه من تلك الحاجات من أماكن وجودها الى حيث يسكن ويقوم . وكان الانسان يسلك دائماً نفس الطريق التي سلكها من سبقه من الناس حتى انطبعت آثار أقدام البشر على الأرض فظهرت المسالك والدروب في أماكن المرور . غير أن الانسان كان يتقدم تدريجياً في مضار الحضارة وأخذت تزداد حاجاته من الناحيتين الكيفية والنوعية .

ومنذ ظهور الجماعات البشرية المنظمة على سطح الأرض كان لابد من إيجاد طرق معينة للمواصلات والنقل : أولاً لتنقل الأشخاص الذين يعيشون في حركة دائمة ثانياً لنقل المواد المختلفة التي يحتاجون اليها من أماكن انتاجها الى أماكن صنعها واستهلاكها . وقد ازدادت أهمية طرق المواصلات كآثر من آثار الانسان المطبوعة المتنوعة على سطح الكرة عندما أخذ النقل شكل التبادل والتجارة . وسندرس فيما يلي طرق المواصلات كآثار بشرية أدخلها الانسان في البيئة

الطبيعية وكوسيلة من وسائل النقل والتبادل الاقتصادي بين الجماعات البشرية المختلفة .

لا تزال بعض شعوب الأرض تجهل طرق المواصلات ووسائل النقل فيعتمد أفرادها على نقل الأشياء محمولة على الرأس أو الظهر أو الأكتاف يسرون بها على دروب بسيطة للغاية كما هي الحال في افريقية الوسطى والصين الجنوبية . إن الأوروبيين الذين يذهبون الى تلك المناطق يستخدمون الانسان في تنقلاتهم فيركبون نوعاً من الكراسي يحمله عدد من الأشخاص ويطلق على هذا الكرسي المحمول اسم فيلازان filazane في جزيرة مدغسقر وبلانكان planquin في الصين وتيبوي Tipoye في أفريقية الاستوائية .

ومنذ أن بدأ الانسان باستئناس الحيوان استخدمه في النقل، كأداة للتحميل حيناً وللجر حيناً آخر . غير أن استخدام العرب في النقل تطلب طرقاً أخرى تختلف عن الطرق التي يسلكها الجمالون أو قوافل الحيوانات .

وعندما استخدم البخار في القطارات والبواخر كان لابد من مد السكك الحديدية وكان لابد من ادخال تغييرات هامة على مجاري الانهار وعلى الموانئ البحرية حتى تصبح صالحة لتلك الوسائل الضخمة السريعة من وسائل النقل الحديث .

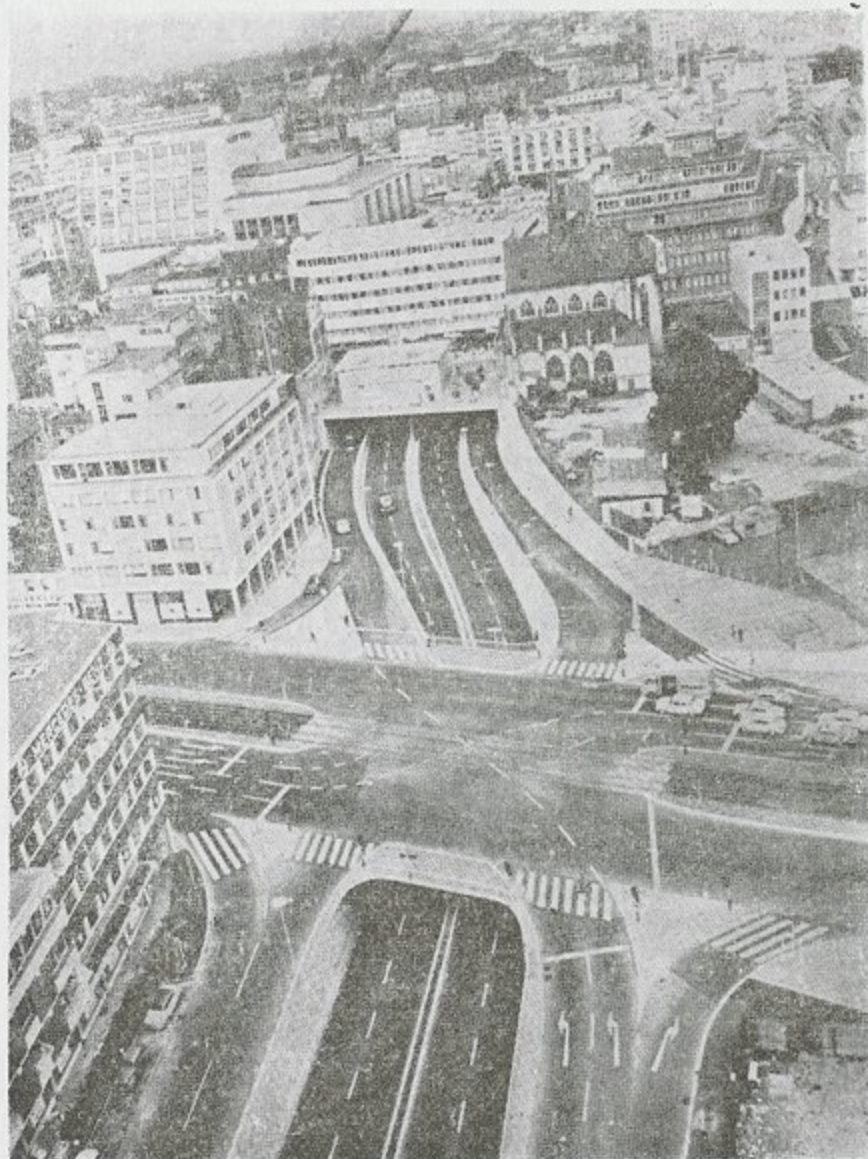
١ - الطرق

من أقدم الطرق التي بنتها الشعوب طرق شعب الانكا في أمريكا ، والطرق الصينية ثم الطرق الرومانية وكانت غاياتهم منها حربية وسياسية تهدف الى المحافظة على امبراطوريتهم .

كانت شبكة المواصلات الرومانية تتألف بشكل خاص من طرق مستقيمة
تقع من كل مدينة من المدن الرئيسية مثل روما وليون وبوردو وكانت هذه
الطرق مبنية لتحمل مقاومة كبيرة في الأماكن التي تشتد فيها حركة المواصلات.
وكان أساسها مبنياً من عدة طبقات من الأحجار وبينها ملاط جامع ، ثم كان
يكسى الأساس ببلاطات أو قطع ضخمة من الأحجار الكبيرة التي يجمع بينها
نوع من الاسمنت . وقد هجرت هذه الطرق منذ عصور طويلة ومع ذلك
لا يزال كثير من آثارها باقياً حتى الآن وفي سورية أجزاء من هذه الطرق القديمة
لم تزل باقية كما هي الحال في جبل الدروز .

وفي القرن الثامن عشر ابتدع الايكوسي ماك آدم Mac Adam طريقة جديدة
في تعبيد الطرق عرفت باسمه ، وتلخص طريقته برصف الطريق بالأحجار ثم بالرمل
ودحليها جميعاً بقوة ضاغطة كبيرة . وتمتاز الطرق الحديثة المكسوة بالاسفلت
أو بالاسمنت بشدة مقاومتها لعوامل التخريب . وقد أصبحت الطرق التي تحيط
بها الأشجار جزءاً من المظهر الطبيعي في كثير من مناطق العالم .

وتعرض شبكة الطرق في العالم لتغيرات دائمة حتى تصبح صالحة لمتطلبات
العصر فيزداد عرض الطريق وتخفف المنعطفات وتزال الحدبات ويتحاشى
الطريق التقاطع مع السكة الحديدية قدر الامكان . وقد ظهرت طرق خاصة
بالسيارات تعرف باسم Autoroute تمتاز بعرضها وباستقامتها ، وبرصفها بطريقة
خاصة وبجرف كل تقاطع في مستوى واحد وبابتعادها عن التجمعات البشرية ،
وفي ألمانيا وحدها حوالي ٣٠٠٠ كم من هذه الطرق التي تستطيع السيارات ان
تسير عليها بسرعة كبيرة .



(الشكل - ٥٤)

يمثل الشكل نموذجاً من الطرق المرتفعة والمنخفضة في المانيا لتسهيل حركة
المواصلات ولتفادي المرور على سوية واحدة

ولكي نأخذ فكرة عامة عن أهمية شبكة الطرق التي فتحتها وعيها الانسان
مغيراً بها معالم سطح الأرض الطبيعية يكفي أن نذكر أن طول هذه الشبكة
يبلغ ١٦ مليوناً من الكيلومترات. هذا وقد ازداد عدد السيارات بشكل غريب
خلال الخمسين عاماً الأخيرة ، وتدلتنا الأرقام الأخيرة على الجهود التي بذلت في
سبيل إنشاء شبكات الطرق في عدد من الدول الكبرى :

هذا وتملك الولايات المتحدة أطول شبكة طرق في العالم اذ تملك خمسة
ملايين كم من الطرق ، ويأتي بعدها فرنسا (٦٥٠٠٠٠ كم) ثم ألمانيا (٤٢٥٠٠٠ كم)
ثم روسيا (٢٥٠٠٠٠ كم) . غير أن أهمية شبكة الطرق لا تقدر بطولها المطلق
بل بنسبة طولها الى مساحة الدولة المعنية ، وهذه النسبة هي التي تبين كثافة
الخطوط ووضوحها كجزء من المظهر الجغرافي لتلك الدولة . وتأتي فرنسا في
الدرجة الاولى في العالم من حيث كثافة طرق المواصلات فيها اذ يعود لكل
١٠٠ كم^٢ من ارضها ١١٨ كم من الطرق ، وتأتي بعدها انكلترا (١٠٠) فألمانيا
(٩٠) ، فالولايات المتحدة (٦٢) ، فايطاليا (٣٠) ثم كندا (٦٥) والاتحاد
السوفيتي (١) . وهذه الأرقام توضح لنا أن شبكة الأنحاء السوفيتي التي
تشغل المرتبة العالمية الرابعة من حيث الطول المطلق غير كافية بالنسبة لسعة
مساحتها ، وأن هذه الشبكة لا تشكل بالتالي عنصراً هاماً وواضحاً من عناصر
مظهرها الجغرافي .

٢ - الخطوط أو المسلك الحديدية :

بدأت السكة الحديدية بداية صعبة ولم يكن الناس آنذاك يعتقدون بأنها
ستكون وسيلة ناجحة من وسائل النقل والمواصلات ولكنها سرعان ما شهدت

توسعاً سريعاً هاماً إذ تحتجاز السكة الحديدية اليوم معظم القارات من طرف لآخر؛
 فيبلغ طول الخط الحديدي عبر سيبيريا مثلاً ٦٦٥٠ كم والعابر الكندي ٦٠٢٠ كم
 والعابر الاسترالي ٥٦٠٠ كم . وتتجاوز السكة عرض دائرة القطب في الاتحاد
 السوفيتي كما أنها تخترق جبال الأند في أمريكا .

وقد أحرزت بعض الدول تقدماً كبيراً في مد السكك الحديدية في بلادها
 فبلغت كثافتها درجة عالية وأصبحت هذه الخطوط الحديدية وما يرتبط بها
 من جسور ومحطات جزءاً هاماً من المظهر الجغرافي لتلك البلاد. وتدل السجلات
 الإحصائية على كثافة الخطوط الحديدية بالنسبة لكل ١٠٠ كم^٢ من المساحة
 فنجد أن في :

بلجيكا ٣٢ كم وهي تأتي في المرتبة الأولى العالمية من حيث كثافة

خطوطها الحديدية

بريطانيا	١٣٦٤ كم	روسيا	٠٠٤ كم
سويسرا	١٢٦٨ كم	الصين	٠٠١ كم
فرنسا	١١٠٧ كم		

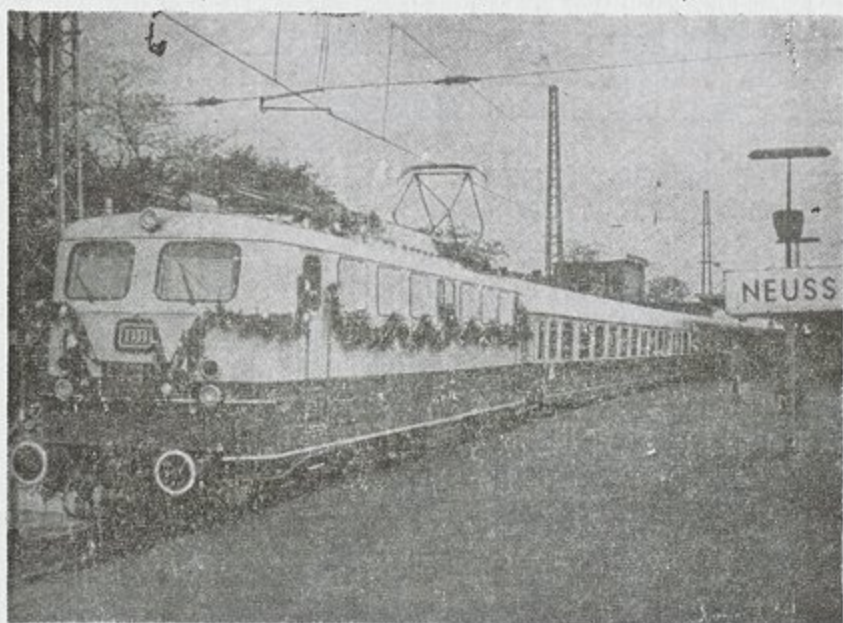
أما إذا أخذنا أطوال شبكات السكك الحديدية بعين الاعتبار فتنال ترتيب

الدول على النحو التالي :

الولايات المتحدة	٤٠٠٠٠٠٠ كم	استراليا	٤٤٦٠٠٠٠ كم
الاتحاد السوفيتي	٩٠٠٠٠٠ كم	فرنسا	٤٢٦٠٠٠٠ كم
الهند	٧٠٠٠٠٠ كم	الارجنتين	٤٠٦٠٠٠٠ كم
كندا	٤٦٠٠٠٠ كم		

والجدير بالذكر أن الدول التي تملك شبكات حديدية طويلة نجدها غالباً ذات مساحة واسعة جداً بحيث تصبح كثافة السكك الحديدية فيها قليلة ولا تعادل الكثافة التي نجدها في دول صغيرة كبلجيكا وبريطانيا وسويسرا مثلاً.

وتمتاز السكة الحديدية بمقاومتها لعوامل الفناء والبلي وبأنها تؤمن نقلاً سريعاً اقتصادياً ومريحاً. ومن الأمور التي تجدر الإشارة إليها أنها سبقت الطريق في كثير من مناطق العالم وخاصة المناطق التي اكتشفت مؤخراً في العالم الجديد. غير أن



(الشكل - ٥٥)

نموذج للقطارات الحديثة التي تسير على الكهرباء.

السكة تنأثر كثيراً بالميل لذلك يجب أن تكون المنحدرات ضعيفة قدر الامكان أضف الى ذلك أنها قليلة المرونة بمعنى أن القطار لا يمكنه ان يجيد قيد شعرة

عن القضيبين الحديديين . وتتطلب السكك محطات وملحقات معقدة وباهظة التكاليف وعدداً كبيراً من الموظفين والمستخدمين .

لقد كان توسع وانتشار السكك الحديدية سبباً هاماً في تطور الاقتصاد الحديث ، لأن القطار ساعد في الواقع على تأمين نقل سريع وسهل لكثير من المحاصيل السريعة التلف أو الثقيلة الوزن . وعلى هذا فقد استطاع عدد من المناطق أن يتخصص في إنتاج الثمار مثلاً لأن القطار ضمن نقلها الى اسواق الاستهلاك البعيدة قبل أن تتلف وبأسعار رخيصة نسبياً .

هذا وإن شبكات السكك الحديدية في بلاد أوروبا القديمة بمحضارتهم تأخذ اشكالا متعددة تبعاً للشروط الجغرافية . فالسكك الحديدية تأخذ مثلاً شكل أشعة منبعثة من مدينتي باريس ولندن ، أما في المانيا فانها تأخذ اتجاهات متعامدة بعضها على بعض .

أما في بلاد العالم الجديد فان السكك الحديدية لاتأخذ دائماً شكل شبكات حقيقية إنما تبدأ من الساحل وتتجه نحو الداخل ويطلق عليها عادة اسم خطوط التوغل نحو داخل القارات كما هي الحال في افريقية وامريكا الجنوبية .

٣ - طرق الملاحة الداخلية : الانهار والوقنية

عرفت الشعوب منذ القديم كيف تستخدم الانهار ، هذه الطرق الطبيعية المتحركة ، عرفت كيف تستخدمها في أغراض النقل والمواصلات . وقد عرف الانسان ايضاً ماهذه الطرق المائية من ميزات تتمثل بسهولة استخدامها أولاً وبقلة تكاليفها ثانياً .

استخدم الانسان في الملاحة النهرية زوارق ومراكب صغيرة في بداية الأمر وكان من الممكن والحال هذه ان تسير في معظم المجاري المائية الطبيعية . غير أن أحجام المراكب مالبثت أن تضخمت منذ القرن التاسع عشر فلم تعد المجاري النهرية الطبيعية ملائمة لسير هذه المراكب الكبيرة بسبب ضيق الأنهار وقلة عمقها فتعطلت الملاحة في كثير منها كما حدث في نهر اللوار في فرنسا مثلاً .

ولهذا كان لابد من ادخال تعديلات عديدة على مجاريها بغية تنظيمها وجعلها صالحة لمتطلبات المراكب الحديثة فعمقت المجاري ونظمت جوانبها وانشئت عليها السدود والأهوسة بغية رفع مستوى الماء في المجرى وتسهيل انتقال المراكب الى مختلف اجزاء النهر وفي كل الاتجاهين .

هذا وتعتبر الأقنية من جملة التعديلات التنظيمية التي يدخلها الانسان على ومجاري الأنهار وهي على نوعين :

— القناة الجانبية وتسمح بتجنب الحواجز والعقبات التي توجد في سرير النهر وتعرض مجراه . ومن الأمثلة على هذه الأقنية الجانبية قناة نهر الراين في الازراس .

— قناة الوصل : وهذه تسمح بوصل نهريين متجاورين، وتجتاز هذه القناة عادة خط توزيع المياه الذي يفصل بين الحوضين النهريين وتبني عادة على مثل هذه الأقنية أهوسة تسهل على المراكب السير في القناة . ومن أشهر أقنية الوصل في العالم قناة Mittellandkanal في ألمانيا وقناة موسكوبا — الفولغا في روسيا .

وبفضل هذه الاصلاحات المختلفة أصبح نهر الراين مثلاً صالحاً لسيرمراكب كبيرة بلغت حمولة الواحد منها ١٣٠٠ طناً في حين أن حمولة المراكب التي تسير على بقية أنهار فرنسا لا تتجاوز ٣٠٠ طناً .

تتصف الملاحة النهرية بأنها بطيئة إذا ما قورنت ببقية وسائل النقل الأخرى، ولكنها مقابل ذلك قليلة التكاليف ، لذلك تستخدم خاصة في المناطق الصناعية التي تحتاج الى نقل كميات كبيرة من مواد ثقيلة الوزن .

٤ - الملاحة البحرية

لقد وقف الانسان من البحر موقف الخوف والريبة مدة طويلة من الزمن ولم يكن ملاحو العصور القديمة يتعدون بمراكبهم كثيراً عن الشاطئ ، فقد جاب الفينيقيون مثلاً كل أجزاء البحر الأبيض المتوسط ولكنهم كانوا يسرون دائماً على مقربة من الساحل . غير أن صناعة السفن والمراكب كانت في تحسن دائم وحلت السفن البخارية محل السفن التي تسير بالمجذاف او الشراع وعندها فقط بدأ الانسان يتعد عن الساحل ويقطع البحار والمحيطات .

يمتاز سطح الماء بأنه لا يترك أي أثر للبواخر التي تشق عبايه بعكس ما يحدث على سطح القارات . والبحار طرق طبيعية سهلة لا عوارض فيها ولا حواجز لذلك تصلح للنقل والانتقال بدون أي تمهيد أو تعبيد لذلك أخذت الملاحة البحرية أهمية كبرى في الوقت الحاضر فتضخم الاسطول التجاري العالمي وتخصصت السفن في نقل مواد معينة كناقلات الفحم أو البترول أو الموز

والفواكه او الحبوب او التمور والاسماك كما خصصت سفن اخرى لنقل الركاب .

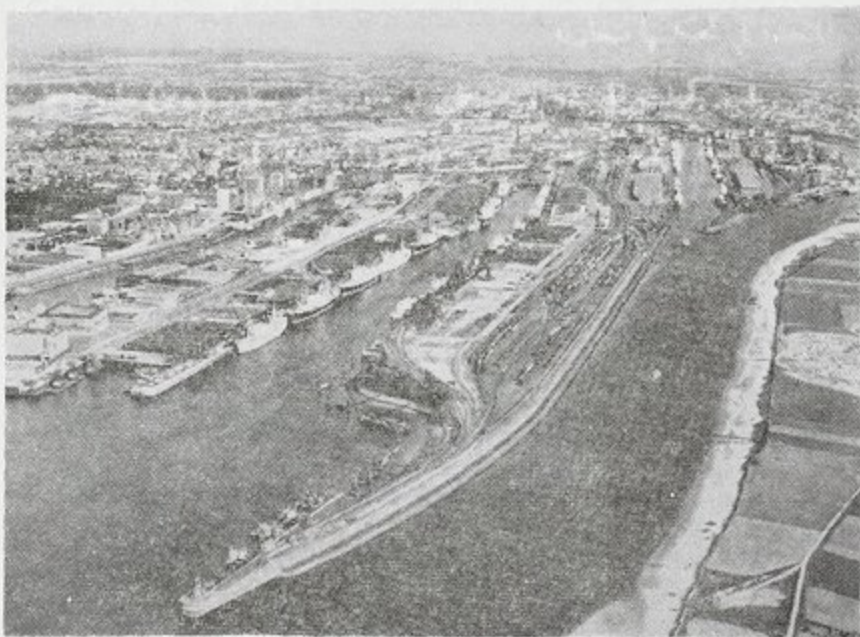
هذا وإذا كانت البحار تشكل طرقاتاً طبيعية لا تحتاج الى تدخل الانسان من أجل تحسينها فان المرافىء البحرية تطلبت الكثير من الاصلاح ، لأن المرافىء هي في الواقع تلك النقاط الشاطئية التي يتم فيها استقبال السفن وايواؤها وتموينها ، لذلك لا بد من ان تتوفر في المرافىء بعض الشروط الطبيعية . ومما تجدر الاشارة اليه هنا هو أنه لم يعد الآن في العالم أجمع مرافأ كبير واحد بشكله الطبيعي الأولي - فالانسان عدل الشروط الطبيعية حسب حاجاته ومتطلباته . وتهدف الاعمال التي يقوم بها الانسان في المرافىء الى الغايات التالية :

١ - تأمين مساحة مائية كافية لرسو السفن تكون محمية من الأمواج والرياح حتى يتم شحنها وتفريغها بسهولة وأمان . ويمكن عند عدم كفاية المساحة الطبيعية اكتساب مساحات جديدة إما من البحر مباشرة وإما من القارة وباتجاه الداخل ، وإما من القارة والبحر معاً في أغلب الأحيان .

٢ - تأمين عمق مناسب : إن ضخامة السفن الحديثة تطلب تعميق المرافىء والخلجان الطبيعية ، حتى يتراوح عمقها بين (١٠ و ١٣) متراً بحيث لم تهيب الطبيعة مثل هذه الأعماق وجب على الانسان أن يلجأ الى الحفر . أضف الى كل ذلك أن المرفأ الحديث أشبه شيء بمعمل كبير وظيفته الرئيسية تحميل البضائع وتنزيلها ولأمام هذه الوظيفة لا بد من تجهيز المرفأ بشكل يوفر الوقت واليد العاملة معاً .

تتعلق أهمية المرفأ الحديث وقدرته على أداء وظيفته بمقدار ما أدخل عليه الانسان من تحسين في وسائله وتجهيزاته التي تتمثل :

- ١ - بطول أرصفة الرسو .
- ٢ - بمساحة العنابر والمخازن .
- ٣ - بعدد الآلات الرافعة في المتر المربع الواحد من مساحة الرصيف وبطبيعتها : بخارية أم كهربائية وبسرعة عملها .
- ٤ - بالآلات الماصة للحبوب ، وبأنايب تفريغ البترول والسوائل .
- ٥ - بطول السكك الحديدية التي تعمل في خدمة المرفأ وطول الأبنية الملحقة .



شكل - (٥٦)
يمثل الشكل ميناء « برمين » في ألمانيا على بحر الشمال يلاحظ اتساع الميناء وامتداد الارصفة ويعتبر من أهم الموانئ التجارية في ألمانيا

- ٣٠٥ -

- ٦ - بالأحواض الجافة المعدة لتصليح السفن .
 ٧ - يسعة المستودعات المعدة لتخزين المحروقات السائلة .
 ٨ - يضاف الى كل ماسبق اسطول الزوارق «المرشدة» الخاصة بسحب السفن نحو الأرصفة .

كل هذه التعديلات والتجهيزات تقلب المرفأ الى مؤسسة بشرية اصطناعية تختلف كثيراً عن الخلجان الطبيعية التي تلجأ اليها سفن الملاحين بصورة عفوية . ومن الاعمال الجليلة التي قام بها الانسان في سبيل تنظيم الملاحة البحرية ففتح الأقنية البحرية الكبرى التي وصل بها بحراً بأخر مختصراً بذلك مسافات كبيرة . ومن أشهر الأقنية في العالم قناة السويس التي فتحت عام ١٨٦٩ بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وقناة بناما التي فتحت عبر برزخ بناما عام ١٩١٤ .

٥ - الطيران والمواصلات الجوية :

الجو كالبحر طريق طبيعي لا يحتاج الى تمهيد أو تعبيد ، وتستطيع الطائرة أن تحلق فيه ، وتسير في كل الاتجاهات وبسرعة كبيرة ، من غير أن تترك فيه أي أثر أثناء طيرانها .

لقد ازداد استخدام الطائرة في النقل في السنوات الأخيرة زيادة كبيرة ، ولضمان سلامة هذا النقل اضطر الانسان لاقامة منشآت هامة على سطح الأرض تمثل بالمطارات او الموانئ الجوية التي تستطيع ان تستقبل مختلف أنواع الطائرات لايوائها أو تموينها . وعلى هذا فان الموانئ الجوية كالموانئ البحرية

الفصل الخامس عشر

مبادئ في الجغرافية السياسية

الدولة^(١) والامبراطورية

من جملة الصفات التي تميز الانسان عن باقي المخلوقات انه كأئن اجتماعي وصياسي يأتلف مع أبناء جلدته ولا يعيش مطمئناً الا ضمن جماعة منهم . وتعمل الجماعات البشرية سواء كانت بدوية متنقلة أو مدنية مستقرة ، على تنظيم الأرض التي تعيش عليها ؛ ويكون هذا التنظيم تحقيقاً لما في نفوس الناس من ميول اجتماعية وعواطف دينية واستجابة لضرورات الدفاع عن النفس من أجل البقاء . لقد عمد الاستراليون الأصليون مثلاً ، رغم بدائيتهم الى تنظيم الارض التي يعيشون عليها وتقسيمها بين القبائل المختلفة وكان لكل قبيلة على تلك الارض حق الملكية تبعاً لتقاليد فولكلورية معقدة . كانت القبيلة تعتبر الارض وما عليها ملكاً لها ، لذلك كان أفرادها يعتبرون الاغنام (أغنام

(١) استمدت معظم معلومات هذا الفصل من كتاب الجغرافيا السياسية تأليف الدكتور
دولت صادق والدكتور محمد السيد غلاب والدكتور جمال الدين الدناصوري . القاهرة ١٩٦١ .

المهاجرين الاوروبيين الى استراليا) التي تدخل حدود أرضهم الجماعية ملكا لهم فيذبجونها بدون أي تردد ، ولم يكونوا يفهمون سبب الحملات الانتقامية التي كان يشنها عليهم أصحاب الاغنام .

أما في البلاد المتقدمة في مضمار الحضارة فان ملكية الارض واستثمارها يؤديان الى خلق وحدات سياسية ذات حدود واضحة على الارض ، تلك هي الدول .

١ - الرونة والجغرافيا السياسية :

هنالك فرع من الجغرافيا يختص بدراسة الدولة والوحدات السياسية في العالم يطلق عليه اسم الجغرافيا السياسية فالجغرافيا السياسية هي اذن جغرافية الدول « ومهمتها دراسة كل دولة من دول العالم كوحدة قائمة بذاتها ، لها كياناتها الخاصة ، ولها صفاتها المميزة من حيث الانتاج والاستهلاك ، ومن حيث قدرتها على سد حاجات السكان الذين يعيشون داخل حدودها ، وعلى مساهمتها في رخاء العالم بما تملكه به من انتاجها الذي يفرض عن حاجتها . ولها أهميتها من حيث مقدرتها على المساهمة في المحافظة على الأمن والسلام العالمي ، وذلك بمرعاة حقوق الدول الاخرى التي تتألف منها المجموعة العالمية . والجغرافيا السياسية تدرس المقومات المختلفة التي يتوقف عليها نهوض الدولة وتقدمها ، وتفسر العلاقات القائمة بينها وبين الدول الأخرى على أساس جغرافي .

وتعد الجغرافيا السياسية فرعاً من فروع الجغرافيا البشرية التي تبحث في العلاقة بين الانسان وبين البيئة التي يعيش فيها ، مثلها في ذلك مثل الجغرافيا

الاقتصادية والجغرافيا الاقليمية ، وربما كانت الجغرافيا الاقليمية أقرب
الانواع الى الجغرافيا السياسية لأنهما تفيدان معاً من المعلومات الجغرافية ؛
إلا أن الجغرافيا السياسية تمتاز عن الاقليمية بأنها تعنى بدراسة الوحدات
السياسية من حيث أنها وحدات ذات نظام سياسي واقتصادي واجتماعي معين
بينما تعنى الجغرافيا الاقليمية بدراسة تلك الوحدات من حيث أنها تنتمي
الى أقاليم جغرافية قد تتباين أو تتشابه في الظروف الطبيعية كالبيئة والموقع
والمناخ والنبات والحيوان !

هذا وتجدر الاشارة الى أن كل دولة إنما تقوم على أساس سيادتها على أرض
معينة . ويمتاز المجتمع السياسي عن بقية الأشكال الاجتماعية الاخرى ، بأن
وجوده لا يمكن أن ينفصل عن الأرض ، الارض السياسية والاقتصادية التي
تتوقف قيمتها على موقعها الجغرافي وسعتها وعدد سكانها وما فيها من موارد
اقتصادية . ويبدو من هذا أن في كل دولة عنصراً جغرافياً هاماً هو السيادة
على أرض معينة .

الا أن الارض لوحدها لا تضمن قيام الدولة وبقاءها ، لان الدولة إنما هي
من خلق الانسان وارادته ، لهذا يتوجب علينا ، اذا أردنا ان نعرف سبب
قيام الدول ، أن نطرح فكرة الحتمية جانباً وأن نبحث عن مختلف الاسباب
التي تؤدي الى قيام الدول وعندها نرى أنفسنا ملزمين بالتمييز بين نوعين من
الدول : الدول الشخصية والدول القومية .

١ - الدكتور محمد متولي . الجغرافية السياسية القاهرة ١٩٥٨ ص - ١ - .

فاللؤل الشخصية (امبراطورية الاسكندر الماكدونى و نابوليون الاول وهتلر) ترتبط بشخصية رجل استطاع أن يخضع لنفوذه عدداً من الاراضي قد تكون متفرقة ومتباعدة أحياناً . إن حدود وبقاء مثل هذه الدول يرتبط بقوة مؤسسها أو رئيسها وقدرته على تعبئة كل القوى العسكرية والمعنوية وباستثمار كل الامكانيات الاقتصادية الكامنة فيها ، ولذلك فان مثل هذه الدول قد تزول بزوال مؤسسها .

ان الرابطة الجغرافية الوحيدة داخل مثل هذه الوحدات السياسية الشخصية هي التسهيلات المتوفرة فيها من أجل استثمار القوى والموارد استثماراً حراً وسهولة انشاء مواصلات تربط بين مختلف أجزائها .

أما الدول القومية فتنشأ نتيجة ارتباط جماعة من البشر ارتباطاً وثيقاً بالارض التي يملكونها والتي تضمن لهم اكتفاءهم الذاتي واستقلالهم والمحافظة على ممتلكاتهم ويجمع بين افراد هذه الجماعة أيضاً ممارستهم لفعاليات وأنماط من المعيشة وعادات متقاربة ومتضامنة .

هذا ومن الجدير بالذكر ان اصطلاحاً جديداً قد ظهر في ميدان دراسة الدول والوحدات السياسية الجيئوبوليتيكا هو *gèopolitique* والكلمة مؤلفة من مقطعين *geo* وتعني الأرض و *politique* وتعني السياسة؛ يقول اللواء الألماني هاوسهوف في هذا الصدد : « ليس مجرد الصدفة هو الذي جعلنا نسبق كلمة *polilik* بهذا المقطع الصغير *geo* ، فهذا المقطع يعني كثيراً وبتطلب كثيراً ، فهو يرتبط للسياسة بالارض ويجررها من الكثير من النظريات السقيمة والعبارات الجوفاء التي قد توقع زعماءنا السياسيين ، في وهم « الدولة المثالية » الفاضلة التي لا طائل منها ،

ويعود بهم الى الأرض الصلبة ، فالجيوپوليتيكا تبين كيف يتوقف كل تقدم سياسي على ذلك العامل الثابت الذي لا يتغير : عامل الأرض .
وعلى هذا يبدو الشبه كبيراً بين الجيوپوليتيكا والجغرافيا السياسية و *géographie politique* ومع ذلك فالفرق بينهما واضح ، فالجيوپوليتيكا تقوم على دراسة الوضع الطبيعي للدولة من ناحية مطالبها في مجال السياسية الدولية ، اما الجغرافيا السياسية فتأخذ الدولة بعين الاعتبار وتعنى بتحليل بيئتها الطبيعية تحليلاً موضوعياً . وقد أوضح otto Maul أحد كتاب معهد ميونيخ هذا الفرق بكل جلاء عندما قال : « تعنى الجيوپوليتيكا بالمطالب المكانية للدولة ، على حين تقتصر مهمة الجغرافيا السياسية على فحص ودراسة ظروف مجالها الارضي . وبمعنى آخر « تدرس الجغرافيا السياسية ^(١) مقومات الدولة من الناحية الجغرافية أي ترسم الصور الحاضرة مع ربط هذا الحاضر بالماضي وأما الجيوپوليتيكا فتحاول رسم سياسة الدولة في المستقبل استناداً الى المعلومات التي يقدمها لها علم الجغرافيا السياسية . ويمكن القول بأن العلمين مكلان لبعضهما فبينما يقف أحدهما بالبحث عند الصورة الحاضرة فان الآخر يحاول رسم صورة المستقبل ويخطط السياسة اللازمة لتحقيق هذه الصورة . والجغرافيا السياسية علم واقعي لا يعنى الا بالحقائق الملموسة أما الجيوپوليتيكا فعلم يقوم على الفروض » .

(١) راجع كتاب : بعض مشكلات الجغرافيا السياسية للدكتور ابراهيم أحمد رزقانه .

نشر دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٦٠ .

هنالك (١١٠) مائة وعشر وحدات سياسية في العالم ، وقد وصلت كل واحدة منها الى درجة الدولة الكاملة الأسس ، ولكنها تختلف فيما بينها اختلافاً يديناً من حيث المساحة وعدد السكان والامكانيات الاقتصادية . وتمثل الدولة سواء كانت صغيرة او كبيرة ، جهود جزء من المجتمع البشري في التنظيم وفي تحويل بقعة من الارض الى وطن له كيان خاص ، ومن هنا يظهر الفرق بين الحكومة والدولة ، فالدولة مرتبطة بقاعدة من الارض وقوانين تسري على سكانها ، أما الحكومة فلا ترتبط بالارض القومية دائماً فقد تنشأ حكومات في المنفى لأغراض سياسية معينة مثل حكومة فرانسا الحرة التي نشأت خارج الأرض الفرنسية عندما احتلها الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية وحكومة « عموم فلسطين » التي انشئت لتدافع عن حقوق عرب فلسطين الشرعية ، وحكومة الجزائر الموقنة التي عملت من خارج الأرض الجزائرية على تحرير الوطن عندما كان يحتله المستعمر .

تقوم الدولة على أسس طبيعية وبشرية واقتصادية متداخلة ومعقدة ليس من السهل الفصل بينها . وإن الطريقة التحليلية التي تعمد الى دراسة كل من الأسس الطبيعية والبشرية على حده إن هي إلا طريقة مدرسية غايتها تسهيل فهم هذه الأسس .

لابد لمن يود دراسة الجغرافيا السياسية من أن يأخذ بعين الاعتبار مواقع الدول الجغرافية ومساحتها وأشكالها ، لان هذه الأمور تعتبر من جملة العوامل التي تساهم في تقدير أهمية الدول .

- الموقع الجغرافي : تشغل كل دولة موقعاً جغرافياً معيناً وثابتاً على

سطح الكرة الارضية ، ويمبر عن هذا الموقع بالامور التالية :

أ - الموقع بالنسبة لخطوط الطول والعرض - إن الموقع بالنسبة لخطوط الطول لا أهمية كبيرة له أما الموقع على خطوط العرض فهو على جانب كبير من الأهمية لانه يساهم الى حد كبير في تحديد الشروط المناخية وهذه تؤثر بدورها على الامكانيات الزراعية بل تؤثر على كل نواحي النشاط البشري .

ب - الموقع بالنسبة للبحار والقارات - لابد للدولة أن تقع ضمن إحدى القارات الخمس المعروفة او داخل بحر من البحار اذا كانت الدولة ذات موقع جزري . وتقسم الدول عادة الى قارية لا سواحل لها على البحر ، ودول بحرية لها سواحل على بحر أو اكثر . ومن الدول البحرية ما تشرف على بحر واحد كالجهورية العربية السورية التي تملك ساحلاً على البحر الابيض المتوسط ومنها ما تملك ساحلين على بحرين مختلفين ك مصر التي تطل على البحر المتوسط والاحمر ، أما فرانسفاقتها تملك ساحلاً على البحر الابيض المتوسط وساحلاً ثانياً على المحيط الاطلسي وثالثاً على بحر المانش . وهناك دول تقع وسط البحر على شكل جزر وليس لها أي اتصال بري مع دول اخرى . ومن اشهر

الدول الواقعة ضمن البحار بريطانيا واليابان واندونيسيا وسيلان وجزر
الانتيل المختلفة .

ولا تقاس أهمية الموقع البحري دائماً بطول السواحل وبعدد البحار التي
تطل عليها الدول ، فقد تكون البحار غير صالحة للملاحة كل أيام السنة ،
فالاتحاد السوفيتي مثلاً يملك سواحل طويلة على المحيط المتجمد الشمالي وعلى
بحر البaltيك والقسم الشمالي الغربي من المحيط الهادي إلا أن المرافئ المطلة
على هذه البحار تتجلد خلال الفصل البارد ومن هنا جاءت سياسة روسيا
القيصرية التقليدية في البحث عن منفذ على البحار ذات المياه الحرة . وقد
أدت هذه السياسة إلى إنشاء ميناء فلاديفوستوك على المحيط الهادي والموانئ
المختلفة على سواحل البحر الأسود . إن وضعية البحار الروسية هي التي كانت
تدعو إلى اعتبارها قوة برية أكثر منها بحرية .

ولا تقتصر قيمة الموقع البحري على الناحية الاستراتيجية أو تأمين مواصلات
سهلة بينها وبين الدول الأخرى ، بل إن موارد البحر المختلفة لا تقل أهمية
عن موارد الأرض بالنسبة لبعض الدول ، فالنرويج مثلاً تعيش مما تصطاده
من البحار .

وتعتمد اليابان في جزء كبير من غذاء سكانها على صيد البحر كذلك الأمر
في جزيرة ايسلندة وجزيرة الأرض الجديدة .

هذا ولا يكفي أن تطل دولة من الدول على البحر حتى تغدو دولة بحرية
هامة ، فالجبهة البحر تستمد أهميتها من أهمية ظهرها Hinterland ، فجبهة
يوغوسلافيا على بحر الأدرياتيك قليلة الأهمية لأن الساحل الدالماسي صخري

بجذب تسوده الطبيعة الكارستية والسواحل الصحراوية مثل ساحل ليبيا وسواحل البحر الاحمر أقل أهمية من السواحل الغنية .

ج - الموقع بالنسبة للدول المجاورة . - إن مجاورة الدول بعضها لبعض يؤثر دائماً في علاقاتها في السلم وفي الحرب على حد سواء . وكما طالت الحدود البرية بين دولتين كان ذلك عاملاً من العوامل التي تقوي الصلة بينهما مثال ذلك الحدود بين كندا والولايات المتحدة .

إن الجانب المتغير من الموقع الجغرافي هو علاقة الدول بجيرانها ، كذلك مكانها بالنسبة لمراكز الثقل الحضارية والسياسية في العالم . ومن الامثلة على ذلك الجزر البريطانية ، اذ كانت على هامش العالم القديم المتحضر عندما كانت مراكز الثقل الحضارية تقع في البحر الابيض المتوسط ، ولكن الوضع تغير بعد أن تم اكتشاف العالم الجديد اذ أصبحت هذه الجزر في مركز متوسط بين دول غرب أوروبا وشرق أمريكا الشمالية أي أنها واقعة في مركز الاقاليم المعتدلة التي تعتبر مراكز الكثافات البشرية والحضارة الرفيعة .

إن موقع الدولة ، سواء كان جزرياً او بحرياً أو قارياً ، يوجه الى حد كبير سياستها الخارجية فوقع ألمانيا الداخلي كان يميل عليها سياستها الخارجية القائمة على خوفها من التطويق ومن هنا ايضاً كانت سياستها التوسعية وحرصها على خلق اسطول كبير لارتياح البحار والحصول على المستعمرات .

٢ - مساحة الدولة وشكلها :

تعتبر المساحة الكبيرة ، اذا كانت مقترنة بكثافة سكان مرتفعة وبموارد

طبيعية مستغلة استغلالاً حسناً ، مصدر قوة للدولة وتضعها في مصاف الدول الكبرى . ومن الامثلة على ذلك الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة ، اذ تحتل كل منها كتلة كبيرة من الارض متصلة ببعضها وتشمل أراضيها على أقاليم مناخية ونباتية متنوعة مما يساعد طبعاً على انتاج محاصيل زراعية متنوعة . أضف الى ذلك ما في أراضيها من معادن مختلفة ومصادر قدرة متنوعة . ولكن المساحة ليست دائماً كل شيء فهناك دول ذات مساحات واسعة ولكن الصحارى القاحلة تشكل نسبة كبيرة من أراضيها كاستراليا والمملكة العربية السعودية .. فالهم اذن ان تكون أرض الدولة خصيبة صالحة للاستثمار الزراعي وغنية في نفس الوقت بالوقود والمعادن .

أما فيما يتعلق بالشكل فن « صالح الدولة أن تكون ذات شكل منتظم ، وكما كانت الدول منتظمة كلما كانت حدودها قصيرة بالنسبة لمساحتها ، وكانت النقط التي تتعرض منها للغزو الخارجي قليلة ، والشكل المثالي للدولة ما كان دائرة أو قريباً من الدائرة ، وكانت العاصمة تحتل نقطة المركز ، ويمكن ان تمد فرانساً دولة مثالية من هذه الناحية ، وان تعتبر سويسرا والنمسا والمجر دولا قريبة من المثالية .

والدول غير المنتظمة تكون على أشكال عديدة ، فقد تكون حدودها كثيرة الالتواء والتعرج فتبدو متشعبة مثل ألمانيا . وقد تكون الدولة متطاولة مثل النرويج وشيلي ، فتكون الصلة بين العاصمة والاطراف قليلة ، ويكون الدفاع عن الاطراف مهمة شاقة .

وقد تكون الدولة مشتتة ، اذا كان بعض أجزائها يتفصل عن بعضها الآخر كأن

تتألف من جزر مثل اليابان وبريطانيا ، أو من كتلة جبلية وعدد من الجزر
مثل اليونان ، وهذا لايسهل الدفاع عنها لتشتت أقسامها ، وانفصال بعضها
عن بعض» (١)

هذا ولا ضرورة هنا للبحث عن المناخ؛ والثروات النباتية والتضاريس
كعناصر رئيسية تدخل في أسس الدولة الجغرافية .

٣ - الأسس البشرية

لا تقل الأسس البشرية في أهميتها عن الاسس الطبيعية والاقتصادية بل ربما
كانت أهم الاسس جميعاً ، لان أغلب المشاكل السياسية والاقتصادية التي نعانىها
الآن ترجع في الأصل الى عوامل بشرية .

إن الأشخاص الذين يعيشون ضمن حدود دولة ما ويخضعون لقوانينها هم
المواطنون ، وتهتم الجغرافيا السياسية بدراسة المواطنين من ناحيتين متميزتين:
اولا من الناحية الأتوغرافية وثانياً من الناحية الديموغرافية . أما الناحية
الاولى فتشمل دراسة المواطنين من حيث السلالة أو العنصر أو السلالات التي
ينتمي اليها المواطنون ، واللغة أو اللغات التي يتفاهمون بواسطتها والدين أو
أو الديانات التي يعتنقونها . وأما الناحية الديموغرافية فهي أقل تعقيداً من
الناحية الاتوغرافية ، لانها تقوم على التعداد والاحصاء واستقراء
الارقام والجداول .

(١) الدكتور محمد فتولي - الجغرافيا السياسية - ص ٢٦

وقيمة الدراسة الاثنوغرافية أنها تعطي فكرة عن مقدار انسجام المواطنين وعلاقتهم العاطفية بجزيرتهم أو بغيرهم من مواطني الدول الأخرى ؛ وقيمة الدراسة الديموغرافية أنها تعطي فكرة عن مقدار قوة الدولة وجيوشها وقيمتها في المجال الاقتصادي والدولي .

آ - الدولة من الناحية الاثنوغرافية :

لماذا تقوم الدولة ؟ وما الذي يفصل بين الدول ، وعلى أي أساس رسمت الحدود بينها^(١) ؟ هذه أسئلة ليس من السهل الاجابة عليها : «فالدولة تطور تاريخي أنشأته جماعة من الناس ، التصقت بوطن من الاوطان ربما وصلت اليه بالهجرة أو بالغزو . ولكنها خلال تلك العملية التاريخية كونت شعباً معيناً انزل في هذا الوطن عن غيره نسبياً ، وتطور تطوراً ثقافياً معيناً ، وانفصل بلغة أو لهجة عن جيرانه ؛ وكون تقاليد خاصة به ، وترعرعت في نفوس أفرادها عاطفة معينة نحو هذا الوطن ، ونحو مواطنيهم ، بحيث أصبحوا شخصية متميزة، تطلق على نفسها اسم أمة . وقد تكون لهذه الامة دولة . أو قد تنطوي تحت لواء دولة أخرى ، ولكن أبناءها لا ينسون أنهم أبناء امة واحدة ، كثيراً ما يعبرون عنها بأنهم سلالة أسلاف معينين انحدروا من أصلابهم . ومن ثم كان الاختلاط بين الامة أو الشعب وبين السلالة Race . ويدل التاريخ ان اقدم الدول كانت لامم خاصة ، لها مميزات القومية (من لغة ودين واسلوب

(١) الجغرافيا السياسية تأليف صادق وغللاب ودناصوري ص ٤٤

حضارة) مثل المملكة المصرية القديمة ، ومثل دول العراق الأدنى ومثل دولة الحثيين ، ولكن التاريخ يشير أيضاً الى أنه منذ القدم نشأت دول لاعلاقة لها بالقومية، مثل الامبراطورية المصرية في عصر الدولة الحديثة ، ومثل امبراطورية فارس وامبراطورية الاسكندر الأكبر، غير أن كلا من هذه الامبراطوريات كانت تقوم على سواعد أمة معينة ، تؤلف الطبقة الحاكمة في الامبراطورية ولا تلبث تلك الامبراطوريات ان تنفتت ، وتستقل كل قومية فيها عن الاخرى .

وقد نشأت في العصور الوسطى امبراطوريات لاتعتمد على القومية ، بل على الدين ، مثل الامبراطورية الاسلامية ، ومثل امبراطورية شارلمان في اوروبا . ولكن هذه أيضاً ما لبثت أن تفككت وعادت القوميات المحلية الى الظهور في كل منها^(١) .

ويبدو مما تقدم انه من الضروري ان توضح معاني الكلمات التالية: سلالة، شعب وامة حتى ندرك حقيقة التكوين الاتنوغرافي لدولة من الدول . هذا ولم يتفق علماء الانثروبولوجيا بعد على تحديد معنى السلالة ويعتبر احسن تعريف لها ما اعطاه للاستاذ Marc - R. Sauter الذي يقول : « السلالة صنف variété من اصناف الانسان العاقل يتمثل بمجموعة من الاشخاص الذين يتميزون عن المجموعات الاخرى بعدد من الصفات والخصائص التشريحية والفيزيولوجية (وربما النفسية ايضاً) الوراثية التي تستمر خلال اجيال عديدة.

(١) الجغرافيا السياسية - دول ، غلاب ، وناصوري - ص ٥٥ ، ٥٦ .

ولا تشمل هذه الخصائص أي شيء مكتسب عن طريق التربية والتعليم والتقاليد
أو تأثير الوسط . (١)

الآن كلمة سلالة لا تعني أبداً أن أفراد الجماعة المأخوذة بعين الاعتبار
ينحدرون من رجل واحد ، وما من شعب على سطح الأرض يتكون من سلالة
واحدة فقط ، لذلك هنالك اتجاه حديث في الدراسات الانثروبولوجية يهدف
الى التقليل من استعمال تعبير السلالة قدر الامكان كما يهدف الى احلال كلمات
المجموعات البشرية groups أو Ethnic groups محل كلمة السلالة .

أما لفظة شعب people فليس لها دلالة عرقية او سلالية ، فالشعب الواحد
قد يتكون من عدة مجموعات عرقية، فالشعب الأمريكي يحتوي على عناصر عديدة :
انكلو ساكسونية ، لاتينية وسلافية ومغولية وزنجية ... الخ والشعب البريطاني
يضم حوالي سبع مجموعات عرقية، وعلى هذا فالشعب مجموعة من الناس لها تاريخها
الحضاري وتراثها المشترك ولكنها ليست بالضرورة متسلسلة بالمعنى الأحيائي
(البيولوجي) .

أما لفظة أمة Nation فتميز مجموعة من الناس تعيش في وطن معين ، لها
تقاليد قديمة ومصالحها المشتركة . وهي كلمة حديثة نسبياً تدل على شعب أو
أكثر يرتبط أفرادهم ببعض البعض بالآخر برباط التاريخ والتقاليد المشتركة
واللغة وأحياناً الدين والجوار الجغرافي أو يرتبط بعضهم البعض الآخر بالتقارب
الحضاري والثقافي ويشتركون في آلام وآمال واحدة بغض النظر عن أصولهم

Marc-R. Sauter : Les Races de l'Europe. Payot. 1952. p. 12 (١)

الاحيائية المختلفة كالأمة العربية مثلاً . إن الأمة العربية واحدة ولكنها تضم شعوباً عربية عديدة .

هذا « وتختلف الدول من حيث تجانسها الاتنوغرافي Homogeneity وهذا التكوين قد يكون بسيطاً ، وقد يكون ملتئماً Segmented وقد يكون مركباً . أما التكوين البسيط فهو الذي لا يلاحظ فيه الغريب أي تنافر اتنوغرافي في الشعب الذي يكون الدولة ، فالمصريون مثلاً متجانسون أم تجانس ، رغم تعدد المجموعات العرقية التي دخلت في تكوينهم ، إذ امتطاعت البيئة المصرية - على مدى القرون والأجيال - أن تمثل جميع العناصر التي دخلتها ، بحيث أصبحت جميعاً مصرية .

ويتمثل التكوين الملتئم في جمهوريات العالم الجديد . إذ أن من السهل التعرف على عناصر السكان المختلفة دون عناء كبير ، في أي وحدة سياسية فيه وإن كانت الولايات المتحدة الأمريكية أقرب هذه الوحدات الى التجانس العنصري باستثناء الزنوج ، إذ استطاعت ، بفرض لغة واحدة على المهاجرين إليها ، تكوين شخصية أمريكية خاصة بها .

أما التكوين المركب فلا يميز الا الدول التي لم تنضج قومياً بعد . وهذا التكوين يشبه تكوين العناصر التي لم يمتزج بعد ، بعضها ببعضها الاخر ، يحتفظ كل منها بشخصيته الثقافية بل وولائه القومي ، ومن ثم كان هذا التكوين مصدر ضعف الدولة ، ومن ثم كانت أيضاً المشكلة التي أطلق عليها اسم مشكلة الأقليات !!

(١) الجغرافية السياسية - دولت . غلاب ، دناصوري ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠

هنالك حقيقة يجب أن لاتغرب عن أذهانتنا وهي أن أي شعب من شعوب العالم مكون من تضافر عدة سلالات ومن امتزاج وتداخل صفات متعددة . لذلك فان مشكلة الأقليات القائمة على أساس عنصرى (سلالى) لا توجد الا حيث تعيش معاً في دولة واحدة جماعات من سلالات مختلفة يمكن التعرف عليها بسهولة ، ومن هنا كانت المشكلة السوداء في أمريكا ومشكلة الملونين في اتحاد جنوبي أفريقية .

هذا ولا تم دراسة الدولة من الناحية الاتنوغرافية مالم نخصص كلمة عن اللغة والدين .

فاللغة هي من أهم المقومات الثقافية للأمة ، إذ انها وسيلة للتعبير تعطي صورة عن عقلية الأمة التي تتحدث بها . وينشأ عادة بين الشعوب التي تتكلم لغة واحدة نوع من التعاطف والود رغم بعد اصولها واختلافها . هذا وكانت وسيلة النبي محمد ﷺ في توحيد أمة العرب أن جمعها حول لهجة واحدة هي لهجة قريش لغة القرآن الكريم . ولا تزال اللغة العربية اقوى رباط يجمع بين شعوب العرب ويجعلهم أمة واحدة تمتد أراضيها من المحيط الأطلسي الى الخليج العربي . ويعتبر الحاجز اللغوي من أهم الحواجز التي تفصل الشعوب بعضها عن بعض . ولا ريب أن وحدة اللغة هي العامل الأول في وجود الأمة البريطانية ، رغم تعدد اصولها وعناصرها وتعدد لغاتها في الزمن القديم . وإن تغلب اللغة الانكليزية على المهاجرين الأوروبيين الى أمريكا الشمالية هو الذي كَوّن في نهاية الأمر ما يسمى بالأمة الأمريكية . والحدود التي تفصل الولايات المتحدة

عن المكسيك حدود لغوية ، تفصل بالحقيقة بين المتكلمين بالانكليزية شمالاً والمتكلمين بالاسبانية جنوباً .

هذا وليس من الضروري أن يتكلم كل رعايا الدولة لغة واحدة (الهند فيها أكثر من ٢٠٠ لهجة مختلفة) ، بل أن بعض الدول قد اعترفت بوجود أكثر من لغة رسمية واحدة فيها ، ففي اتحاد جنوب افريقية تعتبر لغة البوير (وهي لغة هولندية قديمة) لغة رسمية الى جانب اللغة الانكليزية ، كما تعتبر الفرنسية رسمية الى جانب الانكليزية في كندا . أما في سويسرا فتوجد أربع لغات رسمية هي الفرنسية والالمانية والايطالية والرومانسية .

وأما الدين فهو أيضاً عامل هام في بناء المجتمع وهناك دول في العالم قامت على أساس ديني ، فدولة الفاتيكان قامت على أساس الدين المسيحي ، ودولة باكستان قامت على أساس الدين الاسلامي وهناك محاولة لتأسيس دولة اسرائيل على أساس الدين اليهودي .

ولا تستطيع الجغرافية السياسية أن تهمل العاطفة الدينية لان أثرها يمتد عبر الحدود السياسية المرسومة للدول . فمالاشك فيه أن هناك عاطفة قوية تربط دول أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية اللاتينية بالدول الكاثوليكية في أوروبا . وللبابا نفوذ سياسي أكيد على كثير من الدول الكاثوليكية مما حدا ببعضها الى العمل على فصل الدولة عن الكنيسة مثل فرانسوا .

واللإسلام قوة دينية سياسية كبيرة في العالم . وهو يجمع عن طريق العاطفة والثقافة الاسلاميتين قوميات عديدة (العربية والفارسية والتركية

والاندونيسية والباكستانية الخ ولذا راودت المفكرين المسلمين ولم تزل تراودهم
فكرة انشاء وحدة اسلامية أو اتحاد يجمع شملهم .

هذا وليس من الضروري أن يدين كل سكان الدولة الواحدة بديانته واحدة
أو بمذهب واحد ، وقد تدين الاغلبية العظمى بدين واحد ولكن توجد فيها
أقليات طائفية ، وقد تنجم عن الاقليات الطائفية مشاكل لا تقل أهمية عن
مشكلة الاقليات العنصرية . وتعتبر بولونيا من أكثر دول أوروبا تعقيداً من
الناحية الدينية ، فالى جانب أغليبتها الكاثوليكية يوجد فيها ١٢٪ من سكانها
من الارثوذكس و ٢٪ من البروتستانت وكان ١٠٪ من سكانها من اليهود
غير أن عدداً كبيراً من هؤلاء اليهود قد هاجر الى فلسطين خلال الفترة
الواقعة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية .

ب — الرولة من الناحية الديموغرافية:

من أهم العناصر التي تساهم في قوة الدولة سكانها الذين يقيمون صرحها ؛
ويقدمون الايدي العاملة التي تستثمر الارض ، وتعمل في المناجم والمصانع
وتستغل الثروة الطبيعية في البلاد ، وتبني الحضارة والمدنية وتعمل على نشرها
وتمد نشاطها الاقتصادي والثقافي الى خارج حدودها . فالسكان هم عماد الدولة
ودرعها الواقي الذي يحمي البلاد ويدفع هجمات الاعداء .

تفاوتت الدول تفاوتاً كبيراً من حيث عدد السكان ، فهناك دول كبرى
وفيرة السكان كالصين مثلاً ودول أخرى قليلة عدد السكان ، ولكن أهمية
السكان لا تتعلق فقط بالعدد المطلق إنما تتعلق ايضاً بنسبة هذا العدد الى مساحة

الارض التي يشغلونها أي أنه يجب أن تؤخذ الكثافة الكيلومترية بعين الاعتبار فقد يكون العدد المطلق لسكان دولة ما كبيراً ولكنه يبدو قليلاً اذا ما نسب الى مساحة الدولة الواسعة . وهناك اقطار تشكو من قلة السكان ولذلك فهي لا تستطيع أن تستثمر كل مواردها؛ ومن الامثلة على ذلك كندا و استراليا فالكثافة الكيلومترية هي شخصاً في الكم² في الدولة الاولى وشخص واحد في الدولة الثانية ، وذلك حسب احصاءات عام ١٩٥٩ . هنالك أيضاً دول ترتفع فيها الكثافة الى حدود عالية (تصل الى ٤٢٨ شخصاً في الكم² في اليابان مثلاً) لذلك يزدحم الارض بالسكان وتعتبر هذه الكثافة عائقاً يحول دون تقدم الدولة اقتصادياً ودون ارتفاع مستوى المعيشة فيها لان عدد السكان يفوق الموارد الاقتصادية فعلاً.

هذا وتجدر الاشارة الى أن مسألة الازدحام مسألة نسبية وموقته تتغير بتغير الاحوال الاقتصادية والوضع الحضاري والمقدرة التكنيكية للسكان. فالصين كانت من الدول المزدهجة بالسكان عندما كان سكانها يعيشون من القطاع الزراعي فقط ، وعندما تستكمل الصين الشعبية مشروعاتها في التصنيع والانتاج فان ذلك سيخفف حتماً من ضغط السكان وستزول ظاهرة الازدحام النسبي . ويجب أن يكون توزيع السكان على الارض توزيعاً مناسباً ، ففي كثير من الاحيان يتجمع السكان في مناطق معينة وتبقى مساحات شاسعة شبه خالية وبالتالي ضئيلة الاهمية من حيث قوتها الانتاجية .

غير أن العدد المطلق لسكان دولة من الدول لا يكفي لتقدير أهمية هؤلاء السكان ، بل يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار حيويتهم أي قدرتهم على التوالد

والازدياد الطبيعي كما يجب أن يحسب عدد السنين التي يحتمل أن يعيشها كل مواطن لان طول العمر معناه ان الفرد يستطيع أن يساهم في الانتاج خلال فترة طويلة من حياته .

يجب كذلك معرفة نسبة الرجال الى النساء في كل دولة ، ويمكن أن يكون ازدياد نسبة النساء على جانب كبير من الاهمية وخاصة في البلاد التي لم تدخل فيها المرأة بعد كل ميادين العمل والانتاج ، فازدياد عدد النساء في مثل هذه الدول معناه ازدياد الأفواه المستهلكة وزيادة العبء على الافراد المنتجين .

غير أن معرفة مجموع عدد سكان دولة من الدول ومعرفة نسبة الرجال والنساء فيها لا تشكل الا معرفة أولية لا قيمة لها إن لم تتم بمعلومات أخرى تتعلق بتوزيع السكان ، ذكوراً او أنثاء ، حسب فئات الأعمار ، لذلك نجد بكل دولة أن تعرف تمام المعرفة توزيع مواطنيها حسب الأعمار لأن ذلك يساعد على حصر القادرين على العمل والانتاج والعاجزين عنهما ، والقادرين على حمل السلاح والمكلفين بدفع الضرائب ومن لهم حق الاشتراك في الانتخابات العامة ٠٠٠ الخ ومن الضروري أيضاً معرفة توزيع السكان على الفعاليات الاقتصادية المختلفة كالزراعة والصناعة والتجارة الخ .

إن عدد السكان وحيويتهم في دولة من الدول عاملان هامان يساهمان في تحديد مركز الدولة السياسي في العالم وقد علل بعض المؤرخين انهيار فينيقيا وهزيمة قرطاج في القرن الرابع قبل الميلاد بقلّة عدد السكان وعدم ازدياد عددهم ازدياداً سريعاً تجاه الشعوب اللاتينية الناهضة ، وهناك من يعلل

انهيار الامبراطورية الرومانية أمام البرابرة بتناقص عدد الرومان بفعل اوبئة الملاريا وانفاسهم في الترف .

هذا وترتبط فكرة المجال الحيوي في دولة ما بفكرة تزايد السكان وارتفاع الكثافة الكيلومترية فيها ، فالدول ذات الكثافة الكبيرة تبحث عن مناطق قليلة السكان تستطيع أن تستقبل عدداً من مواطنيها فيخفف الضغط الديموغرافي داخل الدولة نفسها . وكانت أوروبا قد وجدت مجالها الحيوي في أجزاء العالم الجديد بعد أن تمت الاكتشافات الجغرافية الكبرى . وكانت المانيا تدعي دائماً أن مجالها الحيوي هو منطقة أوروبا الشرقية وقد نجم عن هذا الادعاء اضطرابات سياسية بل وحروب عالمية .

٤ - الاسس الاقتصادية

في الواقع لا تكفي سعة الارض ولا كثرة عدد السكان في دولة من الدول حتى تحتل مكانة عالمية هامة ، ان أهمية كل دولة إنما تبدو بنشاط مواطنيها في استغلال مختلف الموارد والثروات الموجودة في أرضهم وفي التنظيم الذي حققوه في ميدان الانتاج والاستهلاك ، وتعبير آخر تبدو أهمية الدولة باقتصادها ونظامها الذي يحدد علاقاتها مع الدول الاخرى . فهناك دول تتبع سياسة الاكتفاء الذاتي وأخرى لا تستطيع أن تعيش إلا اذا اتبعت سياسة التبادل الحر على أوسع نطاق .

ومعرفة القيمة الاقتصادية لدولة من الدول لاتعني فقط معرفة ماتملكه من ثروات طبيعية ومحاصيل بل يدخل الى جانب ذلك العامل البشري أي فعالية

السكان والموقع الجغرافي والصفات التقليدية الاصلية والمكتسبة للامة ،
ومن أهم الثروات الطبيعية :

١ - مصادر القدرة التي تعد من العناصر الاساسية في التقدم الاقتصادي فهي
التي تدير المصانع الحديثة وتسير وسائل النقل المختلفة كما يعتمد عليها في التدفئة
وتوليد الطاقة الحرارية الضرورية في الانتاج والاستهلاك المنزلي .

ومصادر القوة المحركة عديدة أهمها الفحم والغاز والبتروول والكهرباء
واضيف اليها الآن القدرة النووية .

٢ - المعادن : تتميز الحضارة الصناعية في الفترة التاريخية التي نجاهاها
بم حاجتها الى عدد كبير من المعادن أهمها الحديد، والدولة التي لا تملك مقادير وافرة منه
أو ليس لديها القوة الشرائية للحصول على حاجتها منه لأوزن لها بين الامم القوية .
والى جانب الحديد ، يجب أن يتوفر لدى الدولة انواع عديدة من المعادن
الأخرى كالنحاس والرصاص والتوتياء والالمنيوم ٠٠٠ الخ لان لكل منها
استعمالاً خاصاً يزداد أهمية مع الزمن .

٣ - المواد الاولية الصناعية : تحتاج الصناعة الحديثة الى مواد اولية
كثيرة كالكواشوك والاشخاب والالياف النسيجية الحيوانية والنباتية
كالحرير والقطن والكتان والقنب والجوت ٠٠٠ الخ .

٤ - المواد الغذائية : هي أهم الامس الاقتصادية جميعاً وقد أصبح لها
قيمة سياسية كبيرة بعد الثورة الصناعية . لقد تحول كثير من مناطق العالم
من الانتاج الزراعي الى الانتاج الصناعي واضطرت المناطق التي أصبحت
صناعية الى استيراد حاجة عمالها من المواد الغذائية من المناطق المنتجة لها .

وقد كان عجز كثير من الدول عن توفير المواد الغذائية الضرورية للشعوب والجماعات التي تعيش داخل أراضيها سبباً في اثاره القلاقل والاضطرابات الكثيرة التي عرفها التاريخ في عصوره المختلفة وخاصة في البلاد الآسيوية كالمند والصين والتركستان ، كما كانت سبباً في هجرة الجماعات البشرية من قلب القارة الآسيوية على شكل موجات متدفقة واتجاهها شرقاً نحو بلاد الصين وغرباً نحو أوروبا لكي تجد حاجتها من الغذاء .

وأهم المواد الغذائية التي يتألف منها طعام الانسان هي الحبوب ، والنباتات الزيتية والفواكه والخضار ، والالبان واللحوم المختلفة والمواد السكرية والمواد الكيماوية كالتوابل والشاي والقهوة .

٥ - الصناعة : تعتبر الصناعة أهم ظاهرة اقتصادية تميز الدولة الحديثة ولا توجد دولة كبيرة واحدة في العالم اليوم بدون صناعة ، يعتبر نمو الصناعة من جملة العوامل التي يعتمد عليها عند تقسيم دول العالم الى دول متقدمة اقتصادياً واخرى متخلفة في الميدان الاقتصادي .

فالدول الصناعية الكبرى هي التي تنزعم اليوم وتقود سياسة العالم .

٦ - طرق المواصلات : تلعب طرق المواصلات دوراً هاماً في حياة الدول لانها تربط مختلف اجزائها بعضها ببعض وتسهل بالتالي استتباب الامن فيها ، كما أنها عامل أساسي في توسيع التبادل التجاري بين أجزاء الدولة الواحدة وبينها وبين الدول الاخرى .

٣ - الدول والحدود السياسية :

لكل دولة حديثة بالضرورة حدود تفصلها عن الدول المجاورة لها . ولهذا

الحدود قدسية خاصة تكفلها المعاهدات والمواثيق الدولية . ليست خطوط الحدود في الواقع كما تبينها الخرائط السياسية إلا حدوداً اصطناعية ، وفكرة رسمها وتحديد هاعلى الارض ليست الا حدثاً جديداً في العلاقات الدولية لم تكن معروفة قبل قرنين من الزمان ، بل ان جوازات السفر وما يلازمها من اجراءات السفر والتنقل من دولة الى اخرى لم تكن معروفة حتى القرن التاسع عشر .

« لم تعرف الدول قديماً خطوطاً تحدها ، ولكنها كانت تعرف اقاليم حدود او تخوم ولم يكن يهمها من هذه الاقاليم الا قطعاً معينة تنفذ من خلالها التجارة ، وتقام عندها محطات جبي المكوس والضرائب وكانت امثال هذه النقط تعرف بالثغور . ايام الدولة الاسلامية في القرون الوسطى وكانت الدولة تكتفي بتحسين هذه الثغور وكانت الامبراطورية الرومانية تهتم بأقاليم التخوم هذه ، وتربطها بداخلية الدولة بخطوط منتظمة من الطرق الرومانية المشهورة ، وكانت غالباً ما تقيم في اقاليم الحدود ولايات لها صفة عسكرية خاصة مثل ولاية البتراء في الأردن والنقب او ولايات الدانوب والراين . وكانت الدول قديماً تشجع قيام دول اصطدام فيما بينها ، مثل دولة الفساسنة في شرق سورية (كانت تخضع لبيزنطة) ودولة المناذرة (في الحيرة) (تخضع لفارس) . بل لقد كانت هناك مناطق محايدة بأكملها !

ويمكن تقسيم الحدود التي تفصل بين الدول الى ثلاثة انواع :

١- الحدود الطبيعية : اتخذ الناس في اول الامر الظواهر الطبيعية كالجبال

(١) الجغرافيا السياسية - دولت - غلاب - وناصوري - ص ١٠١ .

والانهار والبحيرات حدوداً للفصل بين ممتلكاتهم لان تلك الظواهر تشكل حواجز طبيعية تحول أو تعيق تقدم أو هجوم الجماعات البشرية . غير ان قيمة هذه الحدود اخذت تقل بالتدريج نتيجة تطور الحضارة وتقدم الوسائل التي يلجأ اليها الانسان في هجومه ودفاعه .

لقد تخلت الجغرافيا عن مفهوم الحدود الطبيعية ، والواقع ان هذه الحدود هي من عمل الانسان قبل كل شيء آخر . فالحدود السياسية بين الدول هي اذن اصطناعية ومع ذلك فقد تشكل الجبال بعض اجزائها كجبال البيرينة التي تفصل بين فرنسا واسبانيا . وقد تشكل الانهار جزءاً من الحدود ، كبحيرة ليمان أو جنيف بين سويسرا وفرنسا وبحيرة كونستانس بين سويسرا والمانيا .

لا تعتمد الحدود السياسية بين الدول دائماً على الظواهر الطبيعية ، إن الانسان هو الذي يخططها وهي طبعاً تتأثر بالتقاليد التاريخية للشعوب وبالاختبارات السياسية وبالمنافع القومية . ان الحدود بين فرنسا وبلجيكا مثلا تعطي مثلاً واضحاً عن الحدود التي وضعها الانسان بنفسه؛ فهذه الحدود تخترق سهول الفلاندر والهينو Hainaut وتجتاز انهار الايزرواليس والايسكو والسامبر وتشطر أحياناً القرى الى شطرين وكثيراً ما تتبع ساقية او شارعاً او دربا أحياناً .

٢- الحدود البشرية او التنوع جغرافية: تختلف الجماعات البشرية بعضها عن بعض بلغاتها واديانها وعاداتها واشكال سكنها وانماط حياتها لذلك قد لا يكون اختلاطها سهلاً دائماً . وكثير من الاقليات تنفصل عما يجاورها من الاغلبية الساحقة بحدود اتنوع جغرافية واضحة وقد تكون بعض هذه الاقليات عاتية على

التمثل ، فالاقليات الصينية واليابانية في امريكا لم تذب في البوتقة الامريكية لذلك منعت قوانين الهجرة دخول افراد الشعوب الصفراء او المغولية الى بلادها .

غير أنه لا توجد دول ذات خصائص اتنوغرافية متجانسة تماما تختلف عن صفات جاراتها بحيث يمكن تخطيط الحدود على اساس اتنوغرافي محض . وهذا معناه انه لا يمكن تخطيط الحدود التي تفصل الشعوب تخطيطا دقيقا ، اذ المشاهد ان افراد الشعوب المتجاورة يعبرون الحدود في اماكن عديدة ويتسربون من احد الجانبين الى الجانب الآخر وهذا يؤدي بطبيعة الحال الى صعوبة الفصل بين العناصر التي تنتمي الى شعب معين .

هذا وقد يدفع الطمع الدول القوية الكبرى الى ضم بعض المناطق الغنية اقتصادياً والواقعة بالقرب من حدودها الى اراضيها بالقوة اذا لزم الامر، حينئذ لا تؤخذ بعين الاعتبار الا المصالح الاقتصادية والحربية للدول الغالبة .

وكثيراً ما ينجم عن تغيرات الحدود صعوبات كبيرة بالنسبة لسكان المناطق التي تكون موضع نزاع ومن اشهر الامثلة على ذلك منطقة الازاس الواقعة بين فرنسا وألمانيا والتي خضعت لكل من فرنسا والمانيا عدة مرات خلال فترة قصيرة من الزمن .

٣ - الحدود الهندسية : - تمتاز هذه الحدود بأنها تكون على شكل خطوط مستقيمة ، وتجعل من الدول أشكالاً هندسية منتظمة ، وتظهر عادة في مناطق الصحارى او الاقاليم الجديدة التي لم تعمر بعد . وتعتمد هذه الحدود الهندسية غالباً على خطوط الطول والعرض ، فالحدود بين كندا والولايات

المتحدة الممتدة بين ساحل المحيط الهادي والبحيرات الكبرى تسير مع خط عرض ٤٩ شمالاً وعلى مسافة ١٣٠٠ ميل وتعتبر أطول حدود هندسية في العالم . إن الحدود التي تفصل بين الولايات التي أتمدت لتشكيل دولة الولايات المتحدة الأمريكية وولايات استراليا هي حدود هندسية أيضاً . أما في افريقية فان الحدود التي تفصل بين مصر وليبيا وبين مصر والسودان فهي حدود هندسية أيضاً .

وفي الشرق العربي حدود هندسية ايضاً، فالحدود السورية العراقية، والأردنية السعودية كلها حدود هندسية وهمية لا وجود لها الا على الخرائط وفي المعاهدات الدولية . ولا توجد عليها أي نوع من الاخلاطات لأنها لا تفصل بين قوميات مختلفة ، فالبدو مثلاً لا يعترفون بهذه الحدود ، يتحركون ويتنقلون بحرية تامة ولا يعوقهم في ذلك عائق .

٤ : الامبراطوريات او توسع الدول الاقتصادية والسياسية

ان هذه الشبكة من الخطوط المنتظمة أي هذه الحدود التي تفصل بين الدول تقسم سطح الكرة الأرضية الى عدد من الامبراطوريات التي تؤلف في الواقع وحدات اقتصادية وسياسية كبرى كانت تسعى جاهدة للحفاظ على مناطق نفوذها وعلى توسيع هذه المناطق.

١ - غايات وأساليب التوسع : كان التوسع الامبراطوري نتيجة الثورة الصناعية وقدرتها الكبيرة على الانتاج وحاجتها الى المواد الأولية وبمخبرها عن أسواق التصدير المناسبة . وقد ساعد التوسع الامبراطوري أيضاً هذا التقدم التكنيكي الذي تحقق خلال القرن التاسع عشر والذي لم يكن على مستوى واحد

في جميع أنحاء العالم مما أدى الى اختلال التوازن بين مختلف القارات .
وكانت أوروبا نقطة الانطلاق ، فمن هذه القارة انطلق المهاجرون وانطلقت
معهم رؤوس الأموال وكل الطرق التسهيلية التي حققوها في قارتهم ، وكانت
نتيجة هذه الانطلاقة أن الشعوب البيضاء المهاجرة استولت على أجزاء كثيرة
من العالم خاصة على العالم الجديد ، وحققت أوروبا لنفسها بالتالي سيطرة مباشرة
عن طريق انشاء المستعمرات وسيطرة غير مباشرة عن طريق التفوق
الاقتصادي . ولم يكن هذا التوسع من عمل الدول لوحدها ، بل ساهمت في
ذلك شركات الملاحة والشركات الرأسمالية أمثال شركة جنوب افريقية
البريطانية واتحاد شركات الكونغو العالمية .

غير أن حمى التوسع لم تلبث أن انتشرت عبر القارة الأوروبية الى
الولايات المتحدة واليابان وظهرت في العالم عبارات وصيغ كانت ذرائع للتوسع
مثل الرابطة السلافية والرابطة الأميركية والرابطة الجرمانية .

وكانت انكلترا هي الرائدة الأولى التي خطت الطريق أمام التوسع
الأوروبي ، وقد تحولت انكلترا القديمة المسالمة التي كانت تأخذ بمبدأ التبادل
الحر والتي كانت تعترف لمستعمراتها بالاستقلال الذاتي الى ماسمي ببريطانيا
العظمى . وما لبثت أن أصبحت كلمة امبراطورية رمزاً لمطامعها واعطي لقب
امبراطورة الهند الى الملكة فيكتوريا في عام ١٨٧٦ وهكذا غدت السياسة
الاستعمارية (الامبريالية) حقيقة واقعة وكانت تنصف بانها سياسة عداء وتسلط .
وكانت هذه السياسة تركز على العناصر الانكليزية التي كانت قد استقرت
في كل من كندا وجنوب افريقية واستراليا ... الخ وكان يساعد بريطانيا على

المضي في سياستها هذه تفوقها في البحر ، لأن الملاحة البحرية كانت وحدها وسيلة المواصلات التي يمكن بواسطتها نقل عدد كبير من الأشخاص وكانت بريطانيا آنذاك تفوق في هذا المضمار على الدول القارية مثل الولايات المتحدة وروسيا. غير أن السياسة الاستعمارية التوسعية ما لبثت ان انتقلت من بريطانيا الى الولايات المتحدة التي امتد نفوذها الى جزر هاواي وبورتوريكو وكوبا والفيليبين وبرزخ بناما، وكانت أسباب هذا التوسع اقتصادية بالدرجة الأولى فقد كانت الولايات المتحدة ترغب في شراء السكر والأرز والقطن بأسعار رخيصة كما كانت تود فتح أسواق تصل اليها حاصلاتها المعدة للبيع بدون رسوم جمركية . غير أن الولايات المتحدة ما لبثت ان اتجهت بسياستها التوسعية اتجاهاً آخر ؛ لقد أرادت أن تبسط نفوذها على كل القارة الأميركية عن طريق إيجاد اتحاد اقتصادي وسياسي شامل فيها ، ومن هنا جاءت مؤتمرات واشنطن عام ١٨٨٩ ومكسيكو عام ١٩٠١ وريودو جانيرو عام ١٩٠٦ وبونس آيرس ، غير أن هذه المؤتمرات لم تعط أية نتيجة ايجابية .

وقد قابلت المانيا توسع بريطانيا الاستعماري وتوسع الولايات المتحدة في القارة الأمريكية ، قابلتها بتوسعها الاقتصادي . فكانت تندفع بكل قواها للسيطرة على الاسواق الاجنبية ، وكانت الشركات التجارية الالمانية التي تسندها وتعضدها الدولة تعتمد الى تخفيض اسعار بيع منتجاتها وتعهد الى اغراق الاسواق بالطريقة المعروفة باسم دامينغ Dumping . ويتطلب اغراق الاسواق الاجنبية وضع سعرين مختلفين للبضاعة الواحدة ، يكون السعر المرتفع نسبياً من أجل الاسواق الداخلية والسعر المنخفض من أجل الاسواق الخارجية .

ولست طريقة اغراق الاسواق الاجنبية بالبضائع الرخيصة من اختراع
الالمان ، وكل ما فعله الالمان هو أنهم طبقوها بشكل دقيق واستطاعوا بواسطتها
القضاء على المنافسين بل انهم قضوا على الصناعات الوطنية الناشئة .

إن هذا التوسع الاقتصادي الالمانى Weltwirtschaft الذي كان يعتمد على
التفوق الصناعي والمزاخمة التجارية كان أحد أسباب قيام الحرب العالمية الاولى
(١٩١٤ - ١٩١٨) .

٢ - الامبراطوريات الاستعمارية والامبراطوريات القارية :

لقد أصابت الحرب العالمية الاولى البنية السياسية والاقتصادية للامبراطوريات
الاستعمارية بتبدلات كبيرة ، وقد أفادت الامبراطوريات القارية من هذه
التبدلات .

أ - الامبراطوريات الاستعمارية :

الامبراطورية الاستعمارية البريطانية أو رابطة الشعوب البريطانية : تضم
الامبراطورية البريطانية الاستعمارية اراضي ذات مواقع مختلفة ؛ تتبع اجزاؤها
المتعددة في مختلف المحيطات والقارات وعلى امتداد درجات العرض على
سطح الكرة .

تزيد مساحة هذه الامبراطورية على ٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠ كم^٢ من الاراضي ،
بعضها ذات مساحة كبيرة مثل كندا (حوالي ١٠ ملايين كم^٢) واستراليا
(٧٦٧٠٠٠٠٠٠ كم^٢) وبعضها مؤلف من جزر كبير مثل جزر الانتيل البريطانية
(٥٥٦٠٠٠٠ كم^٢) ؛ كما تضم مواقع استراتيجية هامة كستعمرة عدن يسكن
هذه الامبراطورية الواسعة حوالي ٥٥٠ مليوناً من الاشخاص . أما الشعب

الانكليزي الحاكم لهذه الامبراطورية الواسعه فلا يبلغ عدده خمسين مليون نسمة ولا تتجاوز مساحة الارض التي يسكنونها ٢٣٠٠٠٠ كم^٢ .

هذه الامبراطورية التي تعتبر اكبر امبراطورية عرفها التاريخ بقيت قائمة حتى الآن بفضل الاستقلال الذاتي الكامل الذي منح للعناصر الرئيسية التي تدخل في تكوينها مثل كندا و استراليا ، وأفريقية الجنوبية وزيلندة الجديدة والاتحاد الهندي ويطلق على هذه الدول عليها اسم دومنيون . وهذه الدول التابعة للناج البريطاني مبعثرة في كافة انحاء العالم ، ويوجد بينها أربع دول سكانها من أصل بريطاني ومع ذلك فان صلاتها بأوروبا عامة وبريطانيا خاصة لانزال في طريق التضاؤل .

لانزال الوحدة المعنوية لكل أجزاء الامبراطورية البريطانية قائمة بشكل كامل وقد برهنت الحرب العالمية الثانية على ذلك ، غير ان العلاقات الاقتصادية بينها أصابها انحراف لغير صالح بريطانيا . كان يعتبر تبعثر أراضي الامبراطورية قديماً من أسباب قوة بريطانيا ولكن هذه البعثرة يمكنها أن تؤدي اليوم الى النزاع والشقاق .

ب - الامبراطوريات القارية :

على عكس الامبراطورية الاستعمارية البريطانية تشكل ولايات أمريكا الشمالية وجمهوريات الاتحاد السوفيتي دولاً اتحادية ضمن قارة واحدة تتصل أراضيها ببعضها بشكل سهل معه تعبئة كافة قواتها ومواردها الاقتصادية .
وتعتبر الولايات المتحدة احدى الدولتين الكبيرتين في العالم . وقد كانت

خلال حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ مستودع العالم الذي حارب دول المحور بفضل ما فيها من ثروات ضخمة وبفضل ما حققته من تقدم صناعي كبير .

وقد ازدادت سيطرتها الاقتصادية على كل دول أمريكا الجنوبية، ونحمت باقتصاديات الشرق الأدنى خاصة عن طريق شركات استثمار البترول وبسطت نفوذها الاقتصادي إلى أرخبيلات الجزر الموجودة في غرب المحيط الهادي وإلى جزر الفيلبين واليابان . وقد تسربت رؤوس الأموال الأمريكية إلى المشاريع الصناعية في كل البلاد التي كانت ظروفها مناسبة لذلك ، وتعمل الدعاية والصحافة والسينما والراديو في سبيل تسهيل التوسع الاقتصادي وانتشار رؤوس الأموال . ويكثر الأميركيون من إقامة القواعد البحرية والجوية لضمان سلامة خطوط المواصلات التجارية والاستراتيجية في المناطق التي امتد إليها نفوذهم .

أما اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية فيمتد من بحر البaltيك حتى المحيط الهادي ويتفوق على الولايات المتحدة من حيث المساحة وعدد السكان أما من الناحية الاقتصادية فإن الاتحاد السوفيتي جاد في الوصول إلى المستوى الذي وصلت إليه الولايات المتحدة ، وقد أخره عن اللحاق بها حتى الآن الأضرار والتخريبات البالغة التي تركتها الحرب في بلاده .

ولا يختلف تنظيم الاتحاد السوفيتي كثيراً عن تنظيم الولايات المتحدة ، لأن هذا التنظيم يعتمد على الاستقلال الثقافي والإداري لكل جمهورية اتحادية ولكن واقعاً مشتركاً يحرك تلك الكتلة الضخمة المؤلفة من الجمهوريات المختلفة هذا الدافع هو قوة التوسع التي ورثتها عن روسيا القيصرية . فلقد سعت دولة

روسيا منذ البداية للبحث عن منافذ لها على العالم الخارجي ، وقد تابعت مساعيها بصورة مستمرة ومنظمة وساعدها في ذلك أن حدودها لم تكن مثقلة بأعباء التاريخ ، كانت حدوداً جديدة وخالية من السكان تقريباً في كثير من أجزائها . ولقد أوجدت روسيا منفذاً لها على المحيط المتجمد الشمالي عن طريق مرفأ اركانجلسك (في عهد ايفان الثالث) ثم فتح لها بطرس الاكبر منفذاً على بحر الباطيك وأوجدت كآرينا الثانية منفذاً على البحر الأسود والمضائق ، ثم فتح المحيط الهادي أمامها في القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولهذا فان التوسع السوفيتي يبدو وكأنه نتيجة لدعوة روسية كانت قد بدأت منذ العهد القيصري .

ومن جهة أخرى فان الاقتصاد الاشتراكي المخطط هو بمثابة خيرة لكل الامكانيات الدفينة في كل الجمهوريات والأراضي التي يشملها الاتحاد السوفيتي . أضف الى ذلك أن العقيدة الاشتراكية تدفع السكان بقوة بالغة لتضعهم وجهاً لوجه أمام الاقتصاد الرأسمالي التقليدي في كل من أوروبا وأمريكا .

لقد استطاع النظام السوفيتي أن يجد لنفسه منطقتي نفوذ واسعتين أولاً في أوروبا الشرقية والوسطى حتى نهر الالب غرباً ثانياً في العالم الصيني شرقاً . وإن هذا التوسع ليس مجرد نمو بسيط .

وهكذا نجد أن الدول القوية الكبرى مهما اختلف نظامها رأسمالياً كان أم اشتراكياً تعمل دوماً على التوسع وبسط نفوذها إما عن طريق المعونات الاقتصادية والقروض وإما عن طريق نشر مبادئها وعقيدتها وقد يكون

التوسع أحياناً كثيرة عن طريق السيطرة والقوة والاستعمار . وسنفرد
للاستعمار بحثاً خاصاً لما له من أهمية بالغة ومن آثار باقية انطبعت على
وجه الأرض خلال الفترة الطويلة التي امتدت من القرن السابع عشر
حتى اليوم .

* * *

الفصل السادس عشر

الاستعمار

دفع حب السيطرة والتوسع والثراء ببعض الأمم القوية الى احتلال المناطق الخالية من السكان او المكونة من قبل شعوب بدائية أو متأخرة أو ضعيفة بقوتها العسكرية لتعمل على استثمارها وعلى نشر حضارتها بالقوة أو باللين بين السكان . وقد أطلق على هذا النوع من التوسع والاستثمار اسم الاستعمار . وقد اختلفت الغاية من الاستعمار حسب اختلاف الأشخاص والجماعات والدول وحسب الزمن ، فقد تكون الناحية الاقتصادية او السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية الأخلاقية هي الغاية الأساسية للاستعمار .

على أن الناحية الاقتصادية كانت في كل وقت أهم هذه الغايات جميعها ولم تعتمد أكثر الشعوب الى الاستعمار الا لتحسين أسباب المعيشة لابنائها ورفع سوية حياتهم أو زيادة الثروة القومية . وذلك إما لأن المستعمرة أوفر خصباً من أرض الوطن الأصلي والحياة المادية فيها هنا وأهل ، وإما لأن الوطن الأصلي بحاجة الى بعض المواد الأولية نباتية أو حيوانية او معدنية ولا يجدها الا في المستعمرة . وهذه الناحية في الاستعمار أخذت تزداد أهمية في العالم الحديث

الذي يتصف بالدرجة الأولى بوفرة الانتاج بسبب استعمال الآلة وبميل أكثر الدول لتكفي نفسها بنفسها . وهكذا ففي الوقت الذي بدأ يزداد الانتاج الصناعي أخذ الأفق التجاري بضيق في وجه الامم .

ولكي تستعيز الدول الصناعية الاوروبية عن زبائنهم الاوروبيين الذين أخذوا يصنعون لأنفسهم ما هم بحاجة اليه عمدت تفتش عن سواهم بين الشعوب المتأخرة . على أن لحمى الأستعمار التي تفتت بين الدول الأوروبية الكبرى منذ منتصف القرن التاسع عشر أسباباً أخرى اهمها جلب المواد الغذائية لأطعام أبناء الشعب المستعمر الذي يزايد بعدده وترتفع سوية معيشته أو جلب المواد الاولية التي تتطلبها الصناعة الكبرى .

ولا بد لهذه الضرورات الثلاث الكبرى : الاسواق التجارية والمواد الغذائية والمواد الاولية الصناعية من نتائج سياسية :

١ - لجأت الدول العظمى الى سياسة امبراطورية مهاجمة وذلك لتحفظ بمستعمراتها القديمة أو لتزيد في توسيعها .

٢ - أخذت تفتش عن نقاط ذات أهمية استراتيجية في جميع أنحاء العالم لتراقب عن قرب ، المناطق التي لها فيها مصالح خاصة ، أو الطرق التي تصل هذه المناطق بالوطن الاصيل .

هذا والى جانب هذه الصفات الاقتصادية والسياسية التي يتصف بها تظهر أحياناً ناحيته الاخلاقية والاجتماعية ولكن تظهر قزمة هزيلة لا تتناسب مع الدعاية التي تقوم بها الدول المستعمرة لاقتناع العالم بحسنات الاستعمار وضرورته

مدعيه أنه الطريق الرحيده التي تستطيع أن توصل الشعوب البدائية المتأخرة الى درجة قريية من الحضارة الاوروبية .

١ - الشروط الجغرافية للاستعمار :

للاستعمار علاقة مباشرة بالشروط الجغرافية المتعددة وذلك مهما تكن الغاية منه وذلك لان أفراد الشعب المستعمر المقيمين في المستعمرة يخضعون للوسط الطبيعي . ولهذا أخذ هؤلاء في بادىء الامر يفتشون عن أحسن المناطق التي تتلاءم مع طبيعتهم وأهلوا المناطق الاخرى ، ويأتي في رأس هذه الشروط الجغرافية المناخ وذلك لان المستعمرين وخاصة الاوروبيين منهم لا يستطيعون الحياة والسكنى الدائمة في جميع المناطق ، لاسيما الحارة الرطبة . يأتي بالدرجة الثانية من الاهمية التضاريس وذلك لان الاستيلاء على البلاد ذات السهول الواسعة والسواحل الكثيرة التعاريج أسهل من احتلال المناطق الصعبة الوصول وذات التضاريس الجبلية المعيقة للمواصلات . ثم تأتي أهمية الموقع الجغرافي وله اكبر الأثر في تاريخ المستعمرة .

ويشدد النزاحم بين الدول المستمرة على المناطق القريية من الطرق التجارية ومن تيارات الحضارة . وللتربة أيضاً أهميتها الكبرى وقد كان الصراع قوياً بين الدول تتناسب شدته مع خصب تربة المستعمرة وصلاحها لمختلف الزراعات أو لما تكنه في أحشائها من ثروات معدنية هامة .

هذا وللوسط البشري أهمية ، بالنسبة للاستعمار ، لا تقل عن أهمية الوسط الطبيعي ، وذلك لان سكان المستعمرات يختلفون من حيث العنصر ونوع الحياة

ودرجة الحضارة مما يوجب على المستعمر أن يتبع سياسات مختلفة تنفق ونفسية السكان اذ لا يمكن بوجه من الوجوه أن تحكم شعوب أفريقية الشمالية مثلا بنفس الوسائل التي تحكم بها شعوب افريقية الوسطى أو الشعوب الاسترالية القديمة .

وتختلف أهلية الشعوب المتقدمة في استعمار الشعوب المتأخرة حسب قدرتها على تكييف سياستها وفق الظروف وطبيعة السكان ونوع الاستعمار ووفق الاستعداد الشخصي والاخلاقي للشعب المستعمر .

٢ - الأنواع المختلفة للمستعمرات :

تختلف أشكال الاستعمار حسب الفائدة التي يجنيها المستعمر من المستعمرة . وقد جرت العادة على تمييز ثلاثة أنواع من المستعمرات .

١ - مستعمرات السكن :

وهي المستعمرات ذات المناخ المشابه لمناخ بلد الشعب المستعمر . فتعمل الدولة المستعمرة عندئذ ، على هجرة الفائض من سكانها الى هذه المنطقة ليقيموا فيها نهائياً ويعملوا على استثمارها .

وقد اتبع المستعمرون في مثل هذه المناطق طرقاً متعددة حسب الظروف وكثيراً ما عملوا على افناء السكان الاصليين وتقنيهم ليحلوا محلهم كما فعل الاميركيون مع الهنود الحمر من سكان امريكا الاصليين ، أو ان اضطروهم على ترك اراضيهم والنزوح عنها باقوة الى مناطق اخرى كما جرى في استراليا وكندا .

او انهم استعبدوا السكان الاصليين واجبروهم على العمل واستثمار الارض بعد أن وضعوا يدهم على القسم الأكبر منها كما كانت الحال في امريكا الاسبانية والبرتغالية .

او يعمد المستعمرون أحياناً إلى جلب اليد العاملة بالقوة من مناطق أخرى ويجبرها على الإقامة في المستعمرة المراد زيادة عدد سكانها واستغلالها كما حدث في حكومات الولايات المتحدة (الجنوبية الشرقية) وفي جزر المارتينيك والغوادلوب .

أما في المستعمرات الوفيرة السكان فالمستعمرون يسعى ليشترك مع سكان البلاد الاصليين في استغلال منابع الثروة على ان يكون له فيها « حصة الأسد » كما جرى سابقاً في بلاد شمال أفريقيا العربية « تونس والجزائر والمغرب » .

٢ - مستعمرات الاستثمار :

هي المستعمرات ذات المناخ القاسي الذي لا يوافق طبيعة المستعمر . ولهذا يكتبني المستعمر في مثل هذه المناطق ، باستغلال ثروتها من المواد الغذائية والمواد الأولية الصناعية ، كما تستخدم كسوق تجاري لاستهلاك البضائع والأدوات المصنوعة في بلاد المستعمر . ويقل عدد افراد المستعمرين في هذه المناطق ولكن على ضآلتهم يقبضون بأيديهم على المراكز الحساسة في الادارة والاقتصاد ، كما كانت الحال في ساحل العاج و افريقية الاستوائية والهند الصينية والهند قبل استقلالها .

٣ - المستعمرات التجارية :

اهمية هذه المستعمرات بموقعها الجغرافي الممتاز على طريق من الطرق التجارية الكبرى في العالم ، او لوجودها في جانب منطقة تابعة لدولة ثانية . وتستخدم هذه المستعمرة ليتسرب منها التأثير التجاري والنفوذ السياسي الى قلب الدول المجاورة .

وتعتبر المراتي والجزر القريبة من القارات من المستعمرات التجارية كما تعتبر الصحارى مناطق تسرب للنفوذ السياسي والتأثير التجاري بالنسبة للبلدان المجاورة لها .

٣ - طرق تسرب الاستعمار :

كتب المجاهد الكبير « محي الدين القليبي » في المقدمة التي وضعها لترجمة كتاب « الاستعمار الفرنسي في افريقية السوداء » يصف المراحل المختلفة التي يسلكها الاستعمار للتغلغل في البلاد التي يريد استعمارها ، فقال : « الاستعمار ابداً أشبه بمسابقة بين المفاصرين من مكثث في القارات والجهات المجهولة فيها ، وكان مظهره الاول التجارة والنخاسة وكان كل من اكتشف جهة استطاع استغلال ما فيها ، وجمع حوله من أجل ذلك جماعة من الممولين ليساعده ويشاركوا معه في استغلال ما اكتشف ، ثم يشارك في هذا العمل بعض رجال الحكم بدافع الحصول على ارباح وفيرة ، وليستغل الآخرون نفوذه في الدولة لحماية مشروعهم وبذلك يكتسب المشروع الطابع الرسمي الدولي .

فاذا تجاوزنا رجل البحار ، الذي غامر فاكشف منطقة من المناطق ، أو الباحث الجغرافي ، الذي توغل في مجاهل ذات جبال وغابات كثيفة ، أو ذات رمال صحراوية لوضع خريطة للارض أو تقرير عما فيها وعن سكانها ، اذا تجاوزنا هذين وجدنا وراء كل منهما اصحاب اموال ينفقون بسخاء على تنشيط الاكتشافات لاستثمارها فيما بعد . واذا بحثت في اوساط هؤلاء الممولين وجدت بينهم رجال الحكم ، او محامسة رجال الحكم ، الذين يريدون تدعيم الممولين والمكتشفين بالنفوذ الحكومي الذي يملكه نوابهم واصحاب المشروع الأرباح ممناً لذلك النفوذ . ومن هنا يبديء المشروع في اكتساء اللباس الرسمي واكتساب الصبغة الحكومية .

ان اول ما تبدأ به العلاقات بين هؤلاء المكتشفين ومن وراءهم ، أي الخطوة التمهيديّة للاستعمار ، هو التعرف على زعماء وكبراء الشعوب ، التي يراد استعمارها بزياراتهم والتردد عليهم واغداق الهدايا والتحف والاموال ، ان كانت الاموال تعرف فيما بينهم . فاذا تمتت العلاقات طلبوا اليهم ان يسمحوا لهم بارتياح جهات معينة من الأماكن يسيطرون عليها ، وان يرفقوهم بحراس من اتباعهم يحنظون امنهم في هذه الرحلة . فتكتسي هذه الرحلة صبغة سياحية أو تكون رحلة صيد . ولكنها في الحقيقة رحلة بحث واكتشاف وتخطيط قد يكون فيها العالم الجغرافي والعالم الجولوجي وغيرها ولكن لا يخلو منها الراهب والقسيس . تعاد هذه الرحلات وتتكرر ، ويتصل فيها افراد البعثة بأهل البلاد ، وينفحون الصغار بالتحف ليستميلوا قلوب الكبار ، ويوزعون بين أفراد القبائل التي يزورونها العطورات والأقمشة ذات الألوان الزاهية ، ويعالجون

بعض المرضى ، ويحبون لهم الأدوية . . . ولذلك يصبح سكان المجهل هذه ، وحتى سكان العواصم ، وزعماء القبائل ، ولا يستثنى الملوك والأمراء ، ينتظرون قدوم مثل هذه البعثات الاستكشافية التي يبعث بها في كل حين المكتشفون الأولون ومن وراءهم من ممولي مشروع الاستغلال والاستثمار هذا الذي شرع فيه . وإذا توطدت العلاقات تظاهر بعض افراد هذه البعثات بالميل الى عقائد البلاد التي اكتشفوها أو يريدون استثمارها ؛ فتظاهروا باعتمادها ، ودخلوا فيها وتعلموا لغة القوم ، ودرسوا عوائدهم فاتخذوها عوائدهم وتقاليده وبذلك حصل الانسجام الأول وابتدأ التغلغل في أحشاء البلاد من طرف هؤلاء الوافدين ، فانشأوا مراكز تجارية لبيع مصنوعات بلادهم وشراء المواد الخام بالثمن البهس ، ثم ينشأ الى جانب المركز التجاري مصحح للعلاج المجاني واسعاف الفقراء بشيء من الطعام واللباس ، فهو مشروع خيري يبدو لانظار أهل البلاد الذين لاعهد لهم بمثل هذا ، وتقوم البعثات التبشيرية على هذه المشاريع . وقد تحدث مدارس ، ثم تنشأ المصارف المالية والبنوك لاقرض الاهالي ورهن ممتلكاتهم واغراقهم بالديون ذات الربا الفاحش التي تستنزف الثروات ، ومن هنا يتبدى الاستيلاء على الارض . وعندما تتكون هذه المجموعة من المصالح الى جانب الرعايا الوافدين من بلاد المستعمر للعمل فيها يصبح وجود سلطان الدولة صاحبة المصالح امراً واجباً لا محيد عنه لحماية مصالحها وحفظ رعاياها . وهنا يخفت وجه البعثات ويظهر وجه الحكومة وراءه الجند والبوليس المسلح فيقع الاحتلال وينتزع الحكم من يد الوطنيين ليوضع في يد المستعمرين .

ويصبح هنالك مصالح ورعايا يحميهم الموظفون من المستعمرين بالقوانين والتشريعات ويحميهم الجند والبوليس من بعد ذلك بالحديد والنار . ومن هنا يتبدى الاستعمار في شكله السافر بالاستيلاء على البلاد واحتلال اماكنها ووضع اهاليها تحت القوة المسلحة ، والاستيلاء على مقاليد الحكم بالنفوذ واسعمال السلطة التشريعية لتدعيم الاستعمار واخضاع الاهالي وازلالهم وتفجيرهم وتجهيلهم . ثم يتبع ذلك الاستيلاء على الموارد الاقتصادية واحتكارها لفائدة الاستعمار واقصاء الاهالي عنها حتى يكون تحت ضغط الفقر اكبر عدد ممكن من اليد العاملة الرخيصة التي يعتمد عليها الاستعمار في توفير انتاجه وتضخيم ثرواته .

ولكي يأمن الاستعمار على نفسه ويضمن بقاءه وبقاء استغلاله ، وقد ازال حكومة البلاد وقضى على وحدة أهلها بالدس والتفرقة وبلبلة الأفكار ، فانه يلتفت الى العقيدة وهو يرى في وجود عقيدتهم سليمة في قلوبهم ما يمكنهم من الاجتماع في يوم من الأيام للكفاح في سبيل البقاء واسترداد ما فقد منهم . فهو يجمع قوته الآن لمحاربة العقيدة واجتثاثها من القلوب حتى تبقى هذه الأجساد بلا أرواح فهي ميتة ، وبلا مصباح فهي مظلمة قائمة لا تهتدي السبيل وبذلك يستقر الاستعمار ويطمئن .

٤ — صلح الاستعمار :

بقيت عادة احتكار استثمار المستعمرة من قبل الدولة المستعمرة وفي صالحها فقط دون غيرها من الدول زمنياً طويلاً واطلق على نظام الاستثمار هذا اسم

صك الاستعمار ويرجع تاريخه الى الزمن الذي كانت تعود فيه السفن الاسبانية والبرتغالية حاملة من جزر الهند الشرقية الذهب والفضة . وكانت المعادن الثمينة في ذلك الزمن تؤمن لمقتنبيها الأهمية الأولى في القضايا التجارية والسياسية والعسكرية في أوروبا .

وصك الاستعمار هذا انما هو في الحقيقة حلف ابرم عنوة بين شعوب قوية مسلحة ذات خبرة سياسية قديمة وبين سكان عزل بدائيين وأجبرت المستعمرات على اتباع قواعده الكثيرة . وتتلخص هذه القواعد بما يأتي :

١ - انتاج المستعمرة بمجموعة مخصص للدولة المستعمرة

ولهذا كانت أهمية المستعمرة متناسبة مع نوع انتاجها وكميته . فتزداد هذه الأهمية إذا كان الانتاج متمماً لمحاصيل الدولة المستعمرة لامزاحماً لها . على أن لا يزيد الانتاج عن حاجة الاستهلاك . فلا تستطيع المستعمرة إذن أن تنتج إلا بمقدار ما تتطلبه الدولة المستعمرة ، وليس لها حق في التفتيش عن اسواق تجارية لتصدر اليها انتاجها ، إنما التي هذا الحق على عاتق الدولة المستعمرة ؛ فهي التي تفتش عن أسواق التصدير ولها أن تقاضي على ما تستطيع تصديره أجراً ثميناً .

٢ - يقابل هذا الحق واجب على الدولة المستعمرة بأن لا تستورد ما هي بحاجة اليه من المحاصيل إلا من ممتلكاتها .

غير أن هذا التعويض ظاهري فقط . لأن تحديد الكميات المستوردة ومراقبتها يعودان في الحقيقة الى الدولة المستعمرة نفسها . ولهذا فأهمية هذه

القاعدة نسبية اذا ما عرفنا أن الدولة المستعمرة لها الحق بفرض الضريبة الجمركية التي تريدها على المواد التي تستوردها من مستعمراتها .

٣ - لا يحق للمستعمرة أن تنشئ المعامل على ارضها . كما لا تستطيع أن تستورد الأدوات لمصنوعة الا من أسواق الدولة المستعمرة .

٤ - للاسطول التجارى للدولة المستعمرة وحده حق الملاحة في مياه أو على شواطئ المستعمرة وفي نقل البضائع بين المستعمرات التابعة لهذه الدولة . يشكل هذا الاحتكار مصدراً جديداً من الأرباح يساعد الدولة المستعمرة على تحسين ميزانها التجاري وميزان المدفوعات ، كما يؤلف أيضاً تدبيراً قوياً تجاه تهريب البضائع الأجنبية ووصولها الى المستعمرة وبيعها .

كان لهذا النظام الذي يستعبد الشعوب لخدمة الدولة المستعمرة أسوأ الأثر على سكان هذه المستعمرات من غير أن يعود بفائدة كبيرة على الدولة . ولهذا أهملت الدول المستعمرة تطبيق موادها شيئاً فشيئاً بعد أن عملت به مدة قرون عديدة .

٥ - الشركات الاستعمارية :

قد تمنح الدول الاستعمارية بعض الشركات الرأسمالية ، دون غيرها من الشركات ، حق الاتجار مع مستعمرة من المستعمرات ، وتؤلف هذه الشركات من عدد من الرأسماليين وكبار التجار وتمنح الشركة سلطة سياسية واسعة تعمل للتجارة وتنظيم المستعمرة وحكمها على أسس مشابهة للأسس التي رأيناها في صك الاستعمار . وهكذا فقد تشكلت منذ القديم في انكلترا وفرنسا وهولندا شركات باسم شركات الهند الشرقية وشركات الهند الغربية ، كما كانت الحال

في بعض المستعمرات الانكليزية كستعمرة « نيجريا » ومستعمرة « افريقية الشرقية » و « روديزيا ». لقد كان لهذه الشركات فضل كبير في توسيع المستعمرات وتخفيف العبء الذي يتحمل كاهل الدول الاستعمارية في مشاريع قد لا تنجح جميعها . غير أن اهتمام هذه الشركات كان موجهاً بالدرجة الأولى لجني ا كبر ربح ممكن في اسرع وقت مهمة في سبيل ذلك كل اصلاح او تنظيم من شأنه رفع سوية حياة سكان المستعمرة .

كذلك هناك نوع آخر من هذه الشركات ، مجردة من النفوذ السياسي ولكنها اعطيت ، بواسطة الدولة المستعمرة ، مساحات شاسعة من الاراضي مقابل تمهدها ببعض الخدمات ؛ كتجفيف المستنقعات او جر مياه الشرب او الري ، او فتح بعض الطرقات الخ ...

وجد هذا النوع من الاستغلال الوحيد الجانب في المستعمرات المخصصة للمساجين والمنفيين التي اوجدتها انكلترة في استراليا والتي دامت حتى عام ١٨٥٢ أو التي اقامتها فرنسا في كاليدونيا الجديدة ، ووجدت بصورة خاصة في جزيرة « جاوا » عندما وضع « نظام المزروعات » من قبل الهولندي « فان در بوش Van der Bosch » . حيث اجبر سكان الجزيرة بالقوة على زراعة بعض الاصناف التي تحتاج اليها الصناعة الهولندية بدلا من زراعة المواد الغذائية الضرورية لحياة سكان الجزيرة الكثيفة النفوس .

٦ - طرق الاستثمار الحديثة في المستعمرات :

لقد استبدلت الطرق الوحشية القاسية المستمدة من المفهوم القديم لصك الاستعمار الذي كانت أسسه قائمة على الاجرام وعلى مفهوم شريعة الغاب «الحق

للاقوى « وعلى الاستيلاء على الأرض واستخدام السكان في سبيل تأمين مصالح المستعمر مع احتقارهم وتجردهم من كل الحقوق ؛ وحلت مكانها شيئاً فشيئاً سياسة جديدة مبنية على التعاون الظاهري بين الدول المستعمرة والمستعمرة الخاضعة . وقد تمشت على هذه السياسة جميع الدول الاستعمارية باستثناء امبانيا والبرتغال . وقد وصف احد كبار رجال الاستعمار في فرنسا « البيرومارو Albert Sarraut » هذه السياسة الجديدة بقوله : « هي سياسة استثمارية في مصلحة الدولة المستعمرة ومصلحة المستعمرة في آن واحد وقائمة على استغلال الارض واستغلال الانسان معاً » قامت هذه الطريقة الجديدة على اقطاع المهاجرين المستعمرين مجاناً مساحات من اطياب الاراضي لاستغلالها . وعملت من الناحية الاقتصادية على توسيع الثروة الاستعمارية باستغلال منظم علمي ، فأدخلت أصنافاً جديدة من المزروعات والمواشي التي تصلح زراعتها وتربيتها في المستعمرة . وبشرت باستغلال جميع المناجم المعدنية ، ولهذا اخذت الدول الاستعمارية بين انشاء مراكز التجارب الزراعية وتأسيس المخابر ونشر الدعاية الاستعمارية بين ابناء الدولة المستعمرة لجلب اكبر عدد ممكن من الفنيين والاختصاصيين وتوظيف « اضخم كمية من رأس المال لاستخدامها في استغلال المستعمرة . كما أنها تتابع الجهد لخلق جهاز اقتصادي كامل لبناء الطرق والموانئ وتمديد خطوط الحديدية واصلاح الانهار للاستفادة منها في الملاحة والقيام بأعمال الري وتوليد القوى المحركة الكهربائية من شلالات الانهار الغزيرة . الى جانب هذا الاستغلال الاقتصادي الذي هو ، في الحقيقة ، في صالح المستعمرين انفسهم نرى استغلال الثروة البشرية واستخدامها في صالح المستعمر أيضاً . بدأت الدولة المستعمرة

بالعمل على استتباب الامن في جميع أرجاء المستعمرة وتحرير السكان من الرق
ومكافحة الأمراض السارية بتأسيس المستشفيات .

كذلك عمل المستعمرون على تعليم افراد قلائل من سكان المستعمرة في مدارس
ابتدائية ومهنية ليتسنى له استخدامهم والافادة منهم في مشاريعه الاستعمارية .
وفي تجنيدهم في فرق عسكرية خاصة لشن حروب استعمارية او للقضاء على كل
حركة في المستعمرات يراد منها تحرير الوطن من ظل الاجنبي الغاشم .

٧ - السياسات الاستعمارية :

لقد اختلفت الخطوط الكبرى للسياسة المتبعة في المستعمرات حسب العصور
أولاً ، وحسب طبيعة الشعوب المستعمرة ثانياً . واذا تركنا جانباً السياسة
الاستعمارية في العصور القديمة نجد اول تجربة استعمارية في القرن السابع عشر
قامت بها الدولة الاسبانية في القارة الاميركية ، وكانت غايتها الأساسية
غاية استثماره صرفه . واهم الثروات التي كانت تنجها اليها انظار المستعمرون هي
المعادن الثمينة . وكانت القاعدة المتبعة في الاستعمار قائمة على القسوة والشدة
والتعصب الوحشي . حتى انه لم يكن لسكان المستعمرات اية حرمة انسانية ،
يعاملون كما تعامل الحيوانات . وكان يقتصر عمل المستعمرون على جمع اكبر كمية
ممكنة من المعادن الثمينة الموجودة في حيازة سكان البلاد المستعمرة بأي
واسطة كانت او حمل هؤلاء السكان على العمل في المناجم تحت تهديد السياط
لاستخراج المعادن الثمينة . وقد ادت هذه السياسة الغاشمة المجرمة الى افقار
المستعمرات والى نقصان مريع في عدد سكانها بسبب اعمال القسوة والقتل
التي يقوم بها رجال الاستعمار . غير ان اسبانيا بعد ما اضاعت مستعمراتها

الامريكية لم تعد تعتبر بين الدول الاستعمارية لان مستعمراتها الافريقية ذات اهمية ضئيلة .

الى جانب الاستعمار الاسباني قام الاستعمار البرتغالي في نفس الوقت وكان يشابهه في سلوكه وغاياته . قام على الرق واستعباد الشعوب المستعمرة . وبعد الغاء الرق اطلق على العمال اسم المنطوعين الا ان المعاملة والنظام القديم لم يختلفا في شيء . والاستعمار البرتغالي حتى السنوات الاخيرة كان يتصف بالفوضى والفقر المدقع السائد في المستعمرات وفقدان ار الحكومة وعدم الانصياع الى اوامرها حتى ان العناصر المنتجة من السكان كانت تهجر الى البلاد المجاورة لتجد لنفسها عملاً . وكل شيء كان يدل على افلاس المشاريع الاستعمارية البرتغالية . غير ان التشريع الذي اقر عام ١٩٣٤ امم جميع هذه المشاريع الاقتصادية والاجتماعية وبعث روحاً جديدة من النظام والنشاط لم تعرف له المستعمرات البرتغالية مثيلاً حتى اليوم . غير ان اساليب القمع الوحشية التي اتبعتها البرتغال في انغولا في الوقت الحاضر كالقتل الجماعي واحراق القرى وتجويع السكان بقصد ابادتهم يدل على ان الاسلوب الاستعماري القديم لم يزل ماثلاً وقائماً حتى اليوم .

اما استعمار البوير في افريقية الجنوبية ، فقد قام على استعباد واستغلال القبائل الزنجية من « الهوتانتو Hottentots » و « الكافر Cafres » وامتلاك أراضيهم بالقوة ، وبما ان البوير متمسكون بالديانة البروتستانتية نجدهم يجرمون على أنفسهم سفك الدماء وابادة السود بالقوة ولكنهم يسمحون لانفسهم بأن يستخدموهم كأجراء وعبيد مع ابقائهم منعزلين عنهم تمام الانزال في المدن

وفي الارياف ، ولا يحق لأحد من « الملونين » اي من غير العرق الابيض ان يضغط بعمل اجتماعي هام او يمارس مهنة من المهن الحرة الرفيعة . وهذا التفريق العنصري لم يزل حتى اليوم على اشده في اتحاد جنوبي افريقية .

وكان الاستعمار في الكونغو البلجيكية الى عهد قريب يشابه الى حد بعيد من حيث الهمجية والشدة ما رأيناه في افريقية الجنوبية لاسيا عندما كانت الكونغو تدعى سياسياً « حكومة الكونغو المستقلة » ، تدار من قبل شركات رأسمالية همها الأول الكسب السريع بأية طريقة كانت . وقد سادت في هذه الفترة سياسة « السوط » المصنوع من جلد حصان البحر والعمل الاجباري والاستيلاء على المحاصيل بدون مقابل لاسيا محصول الكاوتشوك . وكان يقضى على كل مقاومة من قبل السكان ، لهذه السياسة المجرمة بمحرق القرى وتقتيل أهلها وافنائهم عن بكرة أبيهم . فقامت الاحتجاجات تتوالى من قبل الدول الاوروبية باسم حرية التجارة ومن قبل الشعب البلجيكي نفسه باسم الانسانية . ولم تبدأ حركة تقتيل السكان السود هذه إلا بعد أن أعلنت الكونغو مستعمرة بلجيكية خاضعة لرقابة « البرلمان » . وبدأت تصدر التشريعات المتوالية اعتباراً من عام (١٩١٠) لتخفيف نفوذ الشركات الرأسمالية وإصلاح نظام الضرائب الجائر وللاعتراف للسكان بحرية التصرف باننتاجهم الخاص . ولكن لا بد من القول أن الاستعمار البلجيكي رغم ما ادخل عليه من تعديل واصلاح كان من أقسى أنظمة الاستعمار وأشدّها توغلا في الوحشية . وقد سلك الاستعمار الفونسي طريقاً خاصة قام على التدخل في حكم الشعب المستعمر وفي السياسة الداخلية والعقائد السائدة مهملاً في سبيل ذلك كل اصلاح

اقتصادي واستغلال لرفع سوية المستعمرة . وكانت غايته من ذلك لاسيما في
في مستعمرات السكن كالجزائر سابقاً هو ضمها نهائياً الى فرنسا واعتبارها مقاطعة
من المقاطعات الفرنسية وذلك بالعمل على القضاء على قومية السكان وعلى لغتهم
وعاداتهم ودينهم ، وهذا لاشك شر أنواع الاستعمار جميعها .

وأخيراً يتميز الاستعمار الانكليزي باهتمامه بزيادة الثروة القومية الانكليزية
واستثمار المستعمرة بتجهيزها بالوسائل الاقتصادية الاساسية ، كفتح الطرقات
وتمديد الخطوط الحديدية وبناء الموانئ الخ .. ولهذا بدأت باقطاء الشركات
الرأسمالية مساحات واسعة من المستعمرات . وعلى هذه الشركات إدارة المستعمرة
من جميع نواحيها . فهي التي تعي الجيوش وتضرب العملة وتقيم العدل وتعقد
المعاهدات التجارية والاقتصادية وتعتمد في الأزمات الشديدة على دعم الحكومة
الانكليزية لها . وعندما تصل هذه المستعمرات الى درجة من النضج السياسي تسلم
الحكومة الانكليزية نفسها مهام الادارة فيها والاستعمار الانكليزي ، على
عكس الاستعمار الفرنسي ، يجهد بأن يبتعد كل الابتعاد عن كل تدخل في شؤون
المستعمرة الداخلية لا يضر بمصالحه الأساسية . ولهذا فالمستعمرات الانكليزية ،
لاسيما في افريقية ، تظهر بمظهر من الغنى والثروة لانضاهيها به مستعمرات الدول
الأخرى .

ومما يلاحظ في الاستعمار الانكليزي هو ابتعاد المستعمرين عن سكان
البلاد الأصليين مع النظر اليهم بعين الاحتقار والازدراء والتعالي . وهذا
ما يفسر نداء شاعر الهند « طاغور » عندما يقول مخاطباً الانكليز « اتضرع

اليكم بأن لا تقتصروا على ارسال الاتكم وادخال قوانينكم الينا فنحن بحاجة الى ارواح .

٨ - التنظيم السيامي للمستعمرات

يمكن ان نميز اليوم بين اشكال عديدة من الأنظمة الاستعمارية :

١ - المستعمرة La Colonie

هي ارض تملكها الدولة المستعمرة والحكم فيها مباشر من قبل هذه الدولة كما كانت حال الجزائر مثلاً في شمال افريقية او حال الكونغو البلجيكية او السنغال . ومن المستعمرات ما هو تحت حكم دولتين استعماريتين في آن واحد كما هي الحال في جزر هبريد الجديدة المحكومة من قبل فرنسا وانكلترا معاً .

٢ - المحمية Le Protectorat

هي البلاد التي يحكمها حاكم محلي من سكانها له السلطة الاسمية فقط يساعده في الحكم موظفون محليون . غير ان الحاكم نفسه والموظفين المحليين جميعهم يخضعون ويسيطرون وفق مشيئة المقيم العام ومعاونيه من أبناء الشعب المستعمر . كما كانت الحال في تونس والمغرب سابقاً .

٣ - الدومينيون او المستعمرات المستقلة Les dominions

سكان هذا النوع من المستعمرات من أصل أوروبي في اغلب الاحيان . تحكم المستعمرة نفسها بنفسها : لها مجلس نوابها ووزراء وموظفون . وليس للدولة

المستعمرة ما يمثلها إلا الحاكم العام وليس له عملياً سوى سلطة رمزية تمثيلية ، كما هي الحال في كندا وأستراليا وزيلندة الجديدة . وتعتبر الدومينيون مستقلة تمام الاستقلال بسياستها الداخلية والخارجية .

٤ - مناطق النفوذ les phéres d'influence

هي البلاد المستعمرة التي تملكها رسمياً دولة من الدول بموجب اتفاقات دولية غير أنها لم تحتل بأجمعها من قبل هذه الدولة كالصحراء الكبرى . ويطلق أيضاً اسم منطقة النفوذ على كل منطقة من أرض دوله مستقلة نالت فيها إحدى الدول حق الأفضلية في إقامة المشاريع الاقتصادية أو في احتلالها المحتمل. كما كانت الحال في المنطقة الشرقية لتايلاند المعتبرة منطقة نفوذ فرنسية بينما تعتبر المنطقة الغربية منها منطقة نفوذ انكليزية .

او كالمناطق الشمالية من ايران المحاذية لبحر قزوين والمعتبرة منطقة نفوذ روسية ، بينما المنطقة الجنوبية على الخليج الفارسي هي منطقة نفوذ انكليزية .

٥ - الانتداب Le mandat

هي البلاد التي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية او المستعمرات الألمانية القديمة. والتي عهد بالوصاية عليها من قبل جمعية الأمم، التي تأسست بعد الحرب العالمية الأولى، الى بعض الدول الكبرى المنتصرة مثل الامبراطورية البريطانية وفرنسا والولايات المتحدة واليابان وأتحاد جنوبي افريقية .

وعلى الدولة المنتدبة ان تتقدم كل سنة الى مجلس جمعية الأمم بتقرير عن نتيجة الاعمال التي قامت بها في المنطقة الموضوعة تحت انتدابها . وعلى أن

لا تنفرد الدولة المنتدبة دون غيرها من الدول الداخلة في جمعية الأمم بحقوق اقتصادية خاصة .

وللانتداب أنواع ثلاثة :

١ - الانتداب من الدرجة « أ » :

وهي البلاد المتقدمة المتقدمة بحضارتها والتي يستطيع سكانها الاشتراك بالحكم مع الدولة المنتدبة كسورية ولبنان والعراق وفلسطين والأردن سابقاً ، وعلى الحكومة المنتدبة أن توصل هذه البلاد إلى الاستقلال التام التام التام عند بلوغها درجة «الرشد السياسي» . غير أن الدولة المنتدبة هي وحدها صاحبة الحق في تقدير ما إذا كانت البلاد الموضوعة تحت الانتداب وصلت إلى درجة الرشد السياسي أم لا .

٢ - الانتداب من الدرجة « ب » :

هي البلاد التي يستطيع سكانها الاشتراك بالحكم ولكن بنسبة ضئيلة جداً ، كالستعمارات الألمانية في أفريقية : « أفريقية الجنوبية الشرقية والكامرون » .

٣ - الانتداب من الدرجة « ج » :

هي المستعمرات الألمانية المتأخرة بحضارتها « كجزر المحيط الهادي وأفريقية الجنوبية الغربية » . واعتبرت هذه البلاد كأنها جزء من مستعمرات الدولة المنتدبة مع بعض الشروط الطفيفة التي وضعت في صالح السكان كمنع الرق والكحول ومنع الاتجار بالسلح ومنع العمل الاجباري للسكان .

ولا يمكن لأكثر الدول الاستعمارية إلا أن تفرق في اعتقادها أن سكان
مستعمراتها قاصرون سياسياً عن حكم أنفسهم بأنفسهم . ولذا تعتمد على إبقائهم
تحت وصاية ورقابة دقيقتين .

هذا وأن الدول الاستعمارية لتحذر أشد الحذر هذا العالم الصاحب الذي
يختلف كل الاختلاف عن عالمها ولذا ترى من الحكمة أن تأخذ بيدها إدارة
الحكم في المستعمرات حتى في دقائق الأمور . ولكن كلما طال العهد بتجربة
الاستعمار ، كلما ازدادنا يقيناً أن هذا الحكم المباشر القائم في المستعمرة والذي
يستمد تعاليمه من الحكومة المركزية ، إنما هو حكم تحف به الصعوبات ويؤدي
غالباً إلى كارثة حقيقية بسبب بعد المستعمرات عن مركز الإدارة وبسبب نوع
الحياة الخاص فيها والذي يتطلب تطوراً دائماً حسب الظروف ولا يمكن ذلك إلا
إذا كانت السياسة الاستعمارية سياسة محمية تعالج في المستعمرة نفسها ومن قبل
أبنائها أنفسهم . ومن هنا نشأ انضال بين قوتين مختلفتين متعاكستين ؛ قوة
الدولة المستعمرة وهي قوة مركزية وقوة المستعمرة نفسها وهي قوة نابذة متباعدة
عن المركز تطالب باستقلالها الذاتي .

ويظهر اليوم أن القوة المتباعدة عن المركز أخذت تتغلب على القوة
المركزية في ميدان المبدأ على الأقل إن لم يكن ذلك في ميدان العمل والفعل .
ويمكن القول إذا ما نظرنا إلى الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى أن التوسع
الاستعماري يلزم دوماً التوسع الاقتصادي وهما صنوان لا يفترقان فبريطانيا
مثلاً لم تصبح دولة اقتصادية كبرى إلا بفضل امبراطوريتها الواسعة . كذلك
هولندا رغم صغرها وضيق أرضها وقلة عدد سكانها نجدها كيف كانت تلعب

دوراً كبيراً هاماً في الحياة الاقتصادية العالمية بفضل امبراطوريتها الاستعمارية .
كذلك نجد الدول الناشئة كاليابان والولايات المتحدة ، قبل الحرب العالمية
الثانية ، درجت على طريق الاستعمار وذلك لما بدا لهذه الدول الحديثة أن
توسعها الاقتصادي لتزويدها بالمواد الأولية الصناعية او لتصدير الادوات
المصنوعة في معاملها لا يمكن تأمينه إلا عن طريق الاستعمار . وقل مثل ذلك
في إيجاد أرض جديدة لهجرة سكانها (اليابان) . والولايات المتحدة اليوم
تفكر وتنفذ عملياً نوعاً جديداً من الاستعمار الاقتصادي للعالم أجمع .

الفهرس

صفحة

٣

تقديم

الفصل الاول

١٨

البحث الاول - الجغرافيا البشرية والعلوم المساهدة

٢٠

طريقة البحث في الجغرافيا البشرية

٢٢

طرافة الجغرافيا البشرية وعلاقتها بالعلم الاخرى

٢٦

البحث الثاني - الاكتشافات الجغرافية الكبرى

٣١

الاكتشافات الجغرافية حتى القرن الرابع عشر

٣٧

الاكتشافات الجغرافية بين القرن الخامس عشر والثامن عشر

٤٢

الاكتشافات الجغرافية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

٤٤

البعثات الامتكشافية العلمية الى الاراضي القطبية

٥١

نتائج الاكتشافات الجغرافية وحالة معرفتنا الخاصة بالكرة الارضية

٥٤

الفصل الثاني - الانسان والطبيعة

٧١

الفصل الثالث - ظهور الانسان على سطح الارض

٧٧

عصور حياة ما قبل التاريخ

٨٧

الفصل الرابع - انماط الحياة

صفحة	
٩٥	الفصل الخامس — الحياة البدائية
٩٦	البحث الأول — قبائل الاسكيمو
١٠٣	البحث الثاني — القبائل الاسترالية القديمة
١٠٩	البحث الثالث — زواج الغابة العذراء وقبائل البانتو
١١٨	الفصل الخامس — الحياة الرعوية
١٢١	رعاة البقر
١٢٤	رعاة الابل
١٢٦	رعاة الأغنام
١٢٩	رعاة الخيل
١٣٢	الفصل السابع — الحياة الزراعية
١٣٤	الصفات الرئيسية للحضارة الزراعية في الصين
١٤١	الفصل الثامن — الحضارة الصناعية
١٤٥	حضارة الولايات المتحدة حضارة صناعية
٦٥٢	الفصل التاسع — المراكز الصناعية الكبرى
١٥٨	مراكز بيتسبورغ
١٦٣	حوض الروور
١٦٩	منطقة لانكشاير
١٧٤	الفصل العاشر — سكان العالم وتوزيعهم الجغرافي
١٧٤	البحث الأول — سكان العالم

١٨٢	شروط وقوانين التوزيع الجغرافي للسكان
١٨٩	البحث الثاني — مناطق الكثافات البشرية الكبرى في العالم
١٨٩	الهند
١٩١	الصين
١٩٤	حوض البحر الأبيض المتوسط
١٩٥	الكثافات الأوروبية
١٩٦	الولايات المتحدة
١٩٨	تنقل مراكز الكثافة
	الفصل الحادي عشر — حركات السكان
٢٠٢	البحث الأول — الولادات والوفيات وأثرهما في تطور عدد السكان
٢٠٢	الولادات
٢٠٩	الوفيات
	البحث الثاني — الهجرة
٢١٧	اسباب الهجرة
٢٢٠	اشكال الهجرة
٢٢١	نتائج الهجرة
٢٢٣	الهجرة في العالم الحديث
٢٣٧	الفصل الثاني عشر — المساكن
٢٣٨	السكن الريفي

٢٥٨	الفصل الثالث عشر — المدن
٢٦١	مورفولوجية أو أشكال المدن
٢٦٦	وظائف المدن
٢٨٨	الخدمات العامة في المدن
٢٩٤	الفصل الرابع عشر — النقل والمواصلات
٢٩٥	الطرق
٢٩٨	الخطوط والسكك الحديدية
٣٠١	طرق الملاحة الداخلية
٣٠٣	الملاحة البحرية
٣٠٦	الطيران والمواصلات الجوية
٣٠٨	الفصل الخامس عشر — مبادئ في الجغرافيا السياسية
٣٠٨	الدولة والامبراطورية
٣٠٩	الدولة والجغرافيا السياسية
٣١٣	الاسس الجغرافية للدول
٣٢٨	الاسس الاقتصادية
٣٣٠	الدول والحدود السياسية
	الامبراطوريات او توسع الدول
٣٣٤	الاقتصاد والسياسة
٣٤١	الفصل السادس عشر — الاستعمار

صفحة

٣٤٤

الشروط الجغرافية للاستعمار

٣٤٥

الانواع المختلفة للمستعمرات

٣٤٧

طرق تسرب الاستعمار

٣٥٠

صك الاستعمار

٣٥٢

الشركات الاستعمارية

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 072246109

